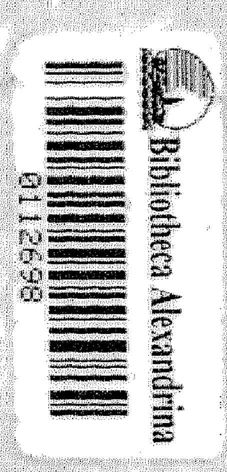
أميت ميني و نادية حجاب



مواطنون في عزلة

صورة عن وضع الفلسطينيين داخل إسرائيل

ترجمة:
هدى الكيلاني



دراسات سياسية وفكرية
٢٣

الإشراف الفني :
زهير الحمو
الخطوط :
عبد الرزاق قصيباني

مواطنـــون في عـــزلـــة

صورة عن وضع الفلسطينيين داخل اسرائيل

دراسات سياسية

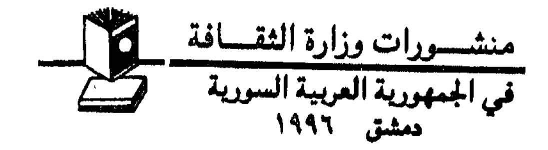
« ٢٣ »

أمينة مينس و ناديا حجاب

مواطنون في عزلة

صورة عن وضع الفلسطينيين داخل إسرائيل

ترجمة :
هدى الكيلاني



دمشق ١٩٩٦

العنوان الأصلي للكتاب :

CITIZENS APART

A Portrait of the Palestinians in Israel

AMINA MINNS

NADIA HIJAB

I . B . Tauris & Co. Ltd
London - New York

مواطنون في عزلة : صورة عن وضع الفلسطينيين داخل اسرائيل = CITIZENS APART / أمينة مينس ونادية حجاب ؛ ترجمة هدى الكيلاني .- دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٦ . - ٢٨٠ ص؛ ٢٤ سم .- (دراسات سياسية ؛ ٢٣) .

١ - ٨ر٣٥٠٠ م ي ن م ٢ - ٩٢٠ ع م ي ن م ٣ - العنوان
٤ - العنوان الموازي ٥ - مينس ٦ - حجاب ٧ - الكيلاني
٨ - السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ٦٠٥ /٥/١٩٩٦

الإهـــداء

إلى خليل...

الذي كان يبدو

نابضاً بالحياة

الذي أحب وطنه

حتى الموت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدّمة

فيما يتسم عام ١٩٤٨ ببداية الوعي لوضع الشعب الفلسطيني ، في حين لم يحظ الفلسطينيون داخل اسرائيل إلا بأقل ما يمكن من الاهتمام ، وذلك بالرغم من حكاياتهم المثيرة للمشاعر . فبين عشية وضحاها تم تحويلهم من أكثرية الى أقلية داخل وطنهم الأم ، وأجبروا ، بعد عزلهم عن إخوانهم العرب ، على العيش والعمل والدراسة داخل نظام غريب عنهم .

استطاع الفلسطينيون ، أو « أقليات اسرائيل » ، كما تصفهم السلطات الرسمية الاسرائيلية ، بطريقة أو بأخرى ، من المحافظة على بقائهم ، وكذلك فعلت الأكثرية . والأمر الذي أثار قلق يهود اسرائيل هو : تضاعف عددهم أربع مرات منذ قيام دولة اسرائيل وحتى اليوم. فقد ازداد عدد الذين بقوا بعد عام ١٩٤٨ من (١٥٠٫٠٠٠) نسمة تقريبا ، أي ١١ ٪ من عدد السكان ، الى ما يقارب (٧٠٠٫٠٠٠) نسمة، أي حوالي ١٧ ٪ من عدد السكان .

ومازال الفلسطينيون الذين خضعوا لتجربة « سياسة التهويد »، بالمقارنة مع تجربة الابعاد عن الوطن ، أو الاحتلال الاسرائيلي اللاحق ، يشكلون بالتأكيد جزءا لا يتجزأ من الشعب ذاته . ولكنهم يبدون مختلفين قليلا بطريقة ما .

ورد في ملاحظاتنا في رحلتنا الميدانية الأولى من أجل هذا الكتاب عام ١٩٨٧ : (كان الانطباع الأولي الأقوى هو الاختلاف بين أولئك « الموجودين في الخارج » ، وأولئك « المقيمين في الداخل » . فالذين

في الداخل يبدو اكثر قهرا من غيرهم ، وهم الى جانب ذلك أكثر حساسية ، وسرعان ما يفترضون بأنك تهاجمهم في حال صدر عنك تعليق ما . وقد أيد انطباعنا هذا من قابلناهم اثناء رحلتنا ، إذ قالوا: (يعود السبب في ذلك الى كوننا مستعمرين ثقافياً وفكرياً .)

على اية حال ، او كانت الرحلة الميدانية الأولى قد تمت في عام ١٩٨٩ بدلاً من عام ١٩٨٧ لكانت النتائج مختلفة : فمع كل يوم يمر ، يصبح الفلسطينيون في اسرائيل اكثر ثقة بأنفسهم وثباتاً في موقفهم . فإذا كان التحدي الأكبر الأول للسيادة الصهيونية على فلسطين قد أتى من الفلسطينيين في المنفى ، والتحدي الثاني من الفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، فمن المرجح إذاً أن يأتي التحدي الثالث من الفلسطينيين داخل اسرائيل . ولم يتوضح الشكل النهائي الذي سيتخذه هذا الاعتراض حتى الآن ، ففي الوقت الحالي يتخذ صفة الكفاح ، من داخل النظام الى حد كبير ، من أجل الحصول على حقوق متساوية مع اليهود الاسرائيليين .

هناك حجم متزايد من الكتابات الأدبية عن موضوع الفلسطينيين داخل اسرائيل ، ولكنه هزيل بالمقارنة مع المجلدات التي تصدر عن الفلسطينيين خارج اسرائيل وتحت الاحتلال . لذا نأمل في هذا الكتاب أن نقدم قصة الفلسطينيين الاسرائيليين الى أكبر قدر ممكن من القراء. وعلى الرغم من وجود مقدار ضئيل من الرويات الشخصية على لسان الفلسطينيين في اسرائيل ، فقد تركزت معظم الكتابات حول الموضوعات السياسية .

فضلاً عن ذلك ، لقد كتب النذر اليسير عن المؤسسات والمجموعات الطوعية التي تم تأسيسها على مستوى القاعدة من قبل العديد من الفلسطينيين خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة ، بهدف تقديم الخدمات لجماعتهم التي عانت من التمييز العنصري والاهمال الرسمي عبر العقود الأربعة الأخيرة . كانت عملية انشاء هذه الجمعيات إثباتاً للهوية

الفلسطينية العربية ، وهي في الوقت ذاته تعزيزا لتلك الهوية من خلال التجربة الجماعية لخدمة المجتمع . (في العقد الأخير الذي أثمر عن الانتفاضة ، حدثت خطوات مماثلة في الضفة الغربية ، وعلى نطاق أضيق في غـزة) .

يحاول هذا الكتاب أن يقدم استبصارا لحياة الفلسطينيين اليوم في اسرائيل ، وأن يبحث في كيفية مكافحة الكثيرين منهم للمحافظة على هويتهم وتطويرها من خـلال المؤسسـات . نأمل أن نحقق ثاني هذين الهدفين في القسم الأول من الكتاب . ففي الفصل الأول (البقاء) :

نراجع التطور السياسي للفلسطينيين داخل اسرائيل . وفي الفصل الثاني (المحافظة على الوجود) : نبحث في جهود الفلسطينيين لانقاذ ما تبقى من مواردهم الأساسية . ويصف الفصل الثالث (الخدمة) : النشاط الذي يبـذله الفلسطينيون للتخفيف من النتائج الاجتماعية السيئة للتمييز العنصري ، التي تكشف عن نفسـها بوضوح في ضعف مستوى التربية والتعليم ، وانتشـار تعاطي المخدرات بين الشبان ، والافتقار الى الفرص الاقتصادية . أما الفصل الرابع (العد العكسي ؟): فيبحث في محاولات السلطات الاسرائيلية اليهودية للحد من نمو الموقف الجازم للجماعة الفلسطينية . في القسم الثاني من الكتاب ، نعرض (صورة عـن فلسطيني عام ١٩٤٨) أي الفلسطينيين الذين مكثوا في في ديارهم عقب تأسيس دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، وذلك من خلال سرد قصص بعض الأشخاص الذين كان لهم دور فعال في بنـاء المؤسسات للفلسطينيين داخل اسرائيل .

وتم الحصول على مادة هذا الكتاب بشكل رئيسي نتيجة أربع رحلات ميدانية قمنا بها الى اسرائيل ، امتدت كل رحلة حوالي الشهر ، وذلك ما بين عامي ١٩٨٧ و ١٩٨٩ . تضمنت الرحلتان الأوليان مسحا واسع النطاق للمؤسسات الموجودة والتي يتم تطويرها بواسطة الفلسطينيين، وقمنا بجمع المطبوعات الصادرة عن الجمعيات ، فضلا عن اجراءمقابلات

مع الأعضاء المؤسسين . غطت هاتان الرحلتان العديد من المدن والقرى العربية حصرا مثل : الناصرة ، أم الفحم ، طيبة ، سخنين ، عيلبون ، مجد الكروم ، ميعليا ، موسموس ، يرقة ، باقة الغربية ، كفر كينا ، شفا عمر ، بئر السبع ، لاقية . بالاضافة الى مدن عربية ـ يهودية مختلطة : يافا ، عكا ، حيفا ، اللد ، والرملة . وبالنتيجة ركزنا بحثنا حول خمسة أشخاص من بناة المؤسسات وعائلاتهم الممتدة ، الذين يمكن أن تعطينا قصصهم فكرة عن الحياة التي يعيشها الفلسطينيون داخل اسرائيل . تتضمن الرحلتان الميدانيتان الأخريان مقابلات موسعة مع أفراد تلك العائلات الخمسة والذين نعرض قصصهم في القسم الثاني من الكتـاب .

من البديهي أن يملك بناة المؤسسات الخمس جميعاً احساساً قوياً بالهوية الفلسطينية ، وعلى الرغم من انتمائهم الى فئات دينية مختلفة : مسلم ـ مسيحي ـ درزي ؛ إلا أن قوميتهم علمانية . وعندما يعرّفون عن أنفسهم يذكرون قبـل كل شيء بأنهم عرب وفلسطينيون ، ثم تـأتي بعد ذلك هويتهم الدينية . وتمثل هذه العائلات الخمس أيضا نماذج لحياة القرية والمدينة والبادية ، مع اختلاف في الأعمار يعكس التحول عبر الأجيال . وقد واجهتهم ، خلال سعيهم لبناء المؤسسات ، خطوات مشجعة وأخرى محبطة . استخدمنا في القسم الثاني من الكتاب أسماء مستعارة ، وحذفنا بعض التفاصيل بغية حماية الرواة ، وللسبب ذاته تجنبنا أحيانا ذكر الأسماء في القسم الأول .

من المؤكد أن يكمل قسما الكتاب أحدهما الآخر ، ولكن من الممكن قراءة كل قسم على حـدة باعتباره وحدة متكاملة . ويحوي القسـم الثاني من الكتاب بالتأكيد على وصف مثير لحياة الفلسطينيين داخـل اسرائيل ، من خلال سماع قصص بعض الاشخاص . ونريد أن نلفت الانتباه الى أننا لا ندعي تقديم صورة عن حياة جميع الفلسطينيين داخل اسرائيل ، فكما أن هنـاك العديد ممن يؤكدون هويتهم ويصرون على المطالبة بحقوقهم ، هناك من ناحية أخرى العديد ممن يشعرون بالقناعة

للعمل داخل النظام ، أو يقبلون بوضعهم كما هو وفي كلا القسمين الأول والثاني من الكتاب قمنا بالتركيز على أولئك الفلسطينيين الذين يزداد عددهم بسرعة كبيرة ، والذين يتحدون النظام الاسرائيلي ليقبل بهم كفلسطينيين وأنداد مع غيرهم من أفراد المجتمع .

عند الاشارة الى الفلسطينيين الاسرائيليين سنستخدم بشكل عام عبارة (فلسطينيو ٤٨) شائعة الاستعمال بين الفلسطينيين في كل مكان في اشارتهم الى أبناء بلدهم في اسرائيل . وعندما يشير فلسطينيو ٤٨ الى وطنهم الأم ، فان الكثيرين منهم يتجنبون ذكر كلمة (اسرائيل). وعندما يعودون من الخارج يفضلون أن يقولوا : أنا عائد الى البلاد (الوطن) . سنستخدم أيضا عبارة (اليهود الاسرائيليين) عند الضرورة منعا للتشويش . (تقوم الدولة اليهودية في الوقت الراهن بالفصل بين مواطنيها وتعريفهم وفق البطاقات الشخصية كيهود أو عرب) .

أثناء عملنا في هذا الكتاب تلقينا دعما ماديا ومعنويا يسرنا الاعتراف به . بادىء ذي بدء نشكر السيدة حسناء مقداشي والدكتور نبيل شعث لتشجيعنا بالتفكير في هذا المشروع ومدنا بمساعدة لا تقدر بثمن في مراحله الأولى . كما لم يكن بالامكان اتمام البحث دون الدعم السخي الذي تلقيناه من السيد عبد المحسن قطان ، ومن المؤسسة التابعة لديانا تاماري صباغ .

ومن بين الكثيرين الذين ساهموا سواء بإسداء النصيحة أو بتقديم الوثائق المادية لابد في المقام الأول من ذكر الدكتور جورج ت. عابد ، والدكتور خليل نخلة ، اللذين مدا يد العون في هذا المجال . فقد اكتسبا خبرة خاصة في موضوع التطور الفلسطيني يظهر بشكل واضح في (الجمعية الخيرية) ، المؤسسة التي يديرانها باعتبارهما المدير العام ومدير البرامج على التوالي . لقد قامت مجموعة من رجال الأعمال والأكاديميين الفلسطينيين بتأسيس هذه الجمعية عام ١٩٨٣ ، وهي

تعتبر واحدة من الوكالات الرائدة التي تهتم بموضوع التطور الفلسطيني في أوربا، ونحن بدورنا نتقدم اليهم بالشكر الجزيل للمعرفة التخصصية التي أرشدونا اليها .

كما نتقدم أيضا بالشكر الى الأشخاص التالية اسماؤهم لتقديمهم التشجيع والدعم :

الدكتور عادل عفيفي ، السيدة جوليا حلو ، جون وسوهايكوك ، اضافة الى السيد إيان ويليامز ، الذي كانت لنظرته الحادة فائدة عظيمة في القسم الأول من هذا الكتاب .

وكذلك ندين بالشكر الجزيل الى كل من : أيمن ، امتياز ، رجاء جورج ، منى ، زياد ، وميساء .

أخيراً هناك الكثير من فلسطينيين ٤٨ الذين نتقدم لهم بالشكر الكبير، وخاصة أولئك الذين سمحوا لنا بالاستشهاد برواياتهم .. إذ غالباً ما تثمر الصداقة عن النصيحة والمساعدة ، وليس بوسعنا أن نذكر أسماءهم كي لا نضفي مزيدا من الصعوبات على حياتهم ، ولكننا ندين لهم بالامتنان الكبير ، وقد يكون نشرنا لقصصهم ردا جزئيا لهذا الدين.

* * *

القسـم الأول

الهـوية من خـلال المؤسسات

(لا أحد يعرف العقلية اليهودية كما نعرفها نحن فلسطيني ٤٨ . فبين الضغوط التي تمارسها على السلطات هنا ، والانتفاضة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، سيرغمون على الاعتراف بنا كشعب) .

المدرس عامر



الفصـــل الأول

البقـــاء

(الحجر الذي أهمله البناؤون أصبح ، حقيقة ، حجراً للزاوية .)

سليم جبران

يقـع التطور السياسـي والاجتماعي لفلسطيني ٤٨ ضمن طورين رئيسين : ما قبل عام ١٩٦٧ وما بعده . كان الطور الأول عبارة عن فترة تجزؤ وعزلة ؛ في حين اتسم الطـور الثاني بالتئام الشمل وإيجـاد صوت سياسي . من الصعب تخيل مرارة السنوات الأولى ، حيث انقطعت العلاقات تماماً بين فلسطيني ٤٨ وإخوانهم العرب ، وكان المذياع هـو مصدرهم الرئيسي للحصول على الأنباء السياسية وسماع أخبار ذويهم، ولم تكن الكتب والصحف الناطقة باللغة العربية تصل سوى الى أيدي فئة قليلة من الفلسطينيين . وكانت المواقف العربية تجاه فلسطيني ٤٨ تتسم بالتشويش ، فبعضهم يمجد ثباتهم وبثني عليه ، وبعضهم الآخر يرمقهم بنظرات ارتياب حذرة لتعاملهم مع الإسرائيليين . كما اشار الى ذلك أحد فلسطيني ٤٨ : (يرفض بعض العرب الذين نلتقيهم في الخارج أن يتحدثوا إلينا ، ويعتبروننا خونة لأننا نحمل جوازات سفر إسرائيلية، حتى عندما نخبرهم بأننا فلسطينيون ولسنا إسرائيليين) .

تعتبر الفترة السابقة لعام ١٩٦٧ فترة الحكم العسكري الإسرائيلي، وقد امتدت من نهاية عـام ١٩٤٨ الى عام ١٩٦٦ . فقد أعلنت المـدن

والقرى الفلسطينية (مناطق مغلقة) و (أحزمة أمان) ، وكان الخروج من هـذه المناطق يستدعي الحصول على إجازات (قبـل إلغاء هـذه الإجراءات تماماً بسنوات قليلة ، بدأ الحكم العسكري بالتساهل بعض الشيء والسماح بحريـة الحركة ، وذلك بغية توفير الفرص للاقتصاد الإسرائيلي اليهودي ـ الذي كان مزدهراً آنذاك ـ باستخدام القـوى العاملة الفلسطينية الرخيصة) .

بسبب عزلة فلسطيني ٤٨ عن العالم العربي وعن بعضهم بعضاً ، ناصر الكثيرون منهم بحماسة مبدأ القومية العربية قبل عـام ١٩٦٧ . ولكن هذا المثل الأعلى فقد بريقه إثر هزيمة العرب في حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، التي مكنت إسرائيل من احتلال الضفة الغربية ـ التي كانت بيد الأردن منذ عام ١٩٤٨ ـ وقطاع غزة الذي كان بيد مصر ، وشبه جزيرة سيناء المصرية ، ومرتفعات الجولان السورية .

ذكـر المدرس (عماد) من الناصرة ، البالغ من العمـر الثامنـة والأربعين عاماً :

(مثل العديد من أبناء جيلي ، آمنت بأهـداف ناصر ، وبالقوميـة العربية . آمنت بخطاباته وبكل كلمة سمعتها من مذياع القاهرة ، كان العالم العربي سيحقق لنا الحرية . لم يعـد ذلك حلم الجيل القديم فقط ، بل كان سيصبح حقيقة . ثم أتى عـام ٦٧ ، وكان صدمـة لي ولشعبنا ككل) .

كانت حرب عـام ١٩٦٧ نقطـة تحـول بالنسبة لفلسطيني ٤٨ ، أمثال عمـاد :

(لقد غيرت طريقة تفكيري بشكل جوهري لأنهـا جعلتني أواجـه حقيقة وضع شعبي : إننا نقف بمفردنا ، وعلينا أن نكافح معتمدين على أنفسنا . علينا أولاً أن نحرر أنفسنا من مخاوفنا ونعتمد على إمكاناتنا .

فأنا مواطن فلسطيني أحمل هويّة ومصيراً منفصلين عن بقية العالم العربي) .

ومع ذلك ، وبالرغم من أن الكثيرين قد بدؤوا يميزون بين هويتهم الفلسطينية المحددة والهوية العربية بشكل عام ، إلا أن فلسطيني ٤٨ يستعملون عفوياً كلمة (عربي) عندما يتكلمون عن شيء يخصهم ، مقابل كلمة (يهودي) . وعلى الرغم من مرارة هزيمة عام ١٩٦٧ ، إلا أن النذر اليسير منها قد وُجه نحو الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وما زال الكثيرون يحتفظون بصورته على جدران منازلهم .

نجم من حرب ١٩٦٧ نتائج أخرى أيضاً ، فبعد أن وضعت إسرائيل يدها على الضفة الغربية ، أصبح الاتصال ممكناً عبر (الخط الأخضر) ـ الخط الفاصل بين إسرائيل والأردن بعد حرب عام ١٩٤٨ (إذْ لم يكن لإسرائيل آنذاك حدود ثابتة) . وتمكن فلسطينيو ٤٨ مرة ثانية من لقاء ذويهم في الضفة الغربية وغزة ، وعائلاتهم في المنفى لتبادل المعلومات والأفكار . واصبح مؤخراً عدد من فلسطيني ٤٨ أساتذة في جامعات الضفة الغربية (على الرغم من حرص سلطات الاحتلال الإسرائيلية على منحهم عقوداً لمدة عام واحد فقط قابلة للتجديد) ، والتحق بعضهم الآخر للدراسة في معاهد الضفة الغربية ، وما يزال بعض فلسطيني ٤٨ يمرون بمرحلة إعادة اكتشاف ، فمنذ حوالي ثلاث سنوات قام « نادي الهدف الثقافي » في مدينة « أم الفحم » بتنظيم رحلة لمجموعة من النسوة ولمدة يوم واحد فقط إلى الضفة الغربية ، ولدهشتهن العارمة اكتشفن، كما ورد على ألسنتهن ، أن الناس هناك ليسوا « همجيين » كما جعلتهم وسائل الدعاية الإسرائيلية يصدقون ذلك .

قبل اندلاع الانتفاضة في ٩ كانون الأول عام ١٩٨٧ ، كانت آراء فلسطيني ٤٨ حول أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة مختلفة تماماً ، وإليكم بعض الأمثلة : (ليسوا سوى تجار وفلاحين جهلة ، يأتون إلى منطقتنا ويتاجرون مع الإسرائيليين) . (إنهم يملكون نظاماً ثقافياً عربياً

افضل وإمكانيات بحث أفضل) . (إنهم ليسوا مقاتلين حقيقيين ، بل مجموعة من الصبية يرشقون الجنود بالحجارة ، الأمر الذي لن يثمر شيئاً) . (نحن نكنّ لهم احتراماً عميقاً ، ونتعلم منهم الكثير ، كما هو الحال بالنسبة إليهم) .

وبعد الانتفاضة ، ازداد شعور فلسطيني ٤٨ بالفخر والاحترام تجاه أبناء بلدهم الذين يرزحون تحت الاحتلال ، كما ورد على لسان أحدهم : (يجب علينا أن ندعم إخواننا في الضفة الغربية وغزة ، لأن نضالهم هو نضالنا أيضاً) . قام العديد من سكان القرى والمدن بتشكيل لجان لجمع الأموال والبضائع لدعم الانتفاضة . واحتفل معظم فلسطيني ٤٨ « بيوم السلام » في ٢١ كانون الأول لإظهار تضامنهم مع أولئك الرازحين تحت الاحتلال . وأُقيمت مظاهرات هائلة وذكر أبناء الناصرة متباهين : (ليتكم شاهدتم المظاهرة التي قمنا بها يوم السلام تضامناً مع أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة ، كانت من أكبر المظاهرات واكثرها نجاحاً وتأثيراً في البلد) .

في يافا قال الناس : (كان عليكم ان تشهدوا المظاهرة التي قمنا بها تضامناً مع إخواننا ، كانت من أكبر المظاهرات وأكثرها تأثيراً ، ولم يشهد احدٌ لها مثيلاً) . في الواقع ، كانت القصة ذاتها تتردد في أية قرية أو مدينة في منطقة ٤٨ يزورها المرء في أوائل عام ١٩٨٨ : وهي أن مظاهرتهم كانت أكبرَ المظاهرات التي قامت تضامناً مع الفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال . وفي حين لا نندهش لحدوث انقلاب كبير في مدينة تتسم بصفة سياسية مثل مدينة الناصرة ، نجد أن ما يلفت الانتباه هو أن المظاهرات التي أُقيمت في ذكرى « يوم السلام » جذبت جماهير غفيرة من مدن لا تعتبر سياسية حتى اليوم مثل المدن المختلطة كاللد ويافا ، الأمر الذي يكشف عن مدى التغيير الحاصل بين فلسطيني ٤٨ .

ذكر مراقب للمظاهرات التي اندلعت في اللد ويافا :

(انضم الناس إلى المظاهرة بشكل عفوي ، حتى النساء والأطفال . في الواقع كانت أعلى الصيحات والهتافات تنبعث من النسوة ، حتى أن بعضهن حاولن أن يرشقن الجنود بالحجارة . كنّ يفقن الرجال قوة ، وكلما ازدادت قسوة رجال الشرطة تجاههن ، كلما اشتدت مقاومتهن . وعندما تمّ القبض على ست فتيات ، أصيب الشيوخ بالذعر عند سماعهم النبأ ، وهرعوا للتوسل الى رجال الشرطة للإفراج عنهن ، قائلين بأن قضاء الفتيات الليل بعيداً عن منازلهن يعتبر أمراً مخالفاً للقيم العربية ، وتم أخيراً الإفراج عنهن . هل يمكنكِ أن تتخيلي أن رجال الشرطة قد أوقفوا صبياً يبلغ الخامسة من العمر ؟!) .

امضى فلسطينيو ٤٨ عدة سنوات من العمل الشاق قبل التوصل إلى تكتل حاسم من الوعي السياسي الذي مدّهم بالقدرة اللازمة لتنظيم مظاهرات كهذه أو الدعوة إلى إضرابات عامة عملت على شلّ القطاع العربي في إسرائيل بشكل كامل وذلك للمطالبة بحقوقهم في الحصول على التعليم او الرعاية الصحية . وكما قال المرحوم (إميل توما) عام ١٩٨٥، إنه في اليوم الذي يلي إنشاء دولة إسرائيل : (غادرت البلاد جميع الفعاليات الوطنية العربية التقليدية ، فضلاً عن المفكرين المشهورين وأصحاب المهن ، ولم يتبق سوى أقلية وطنية عربية لا تتجاوز ١٥٠,٠٠٠ نسمة ، ويتألف معظمهم من فلاحين وعمال وأفراد الطبقة المتوسطة . وتحت الظروف السائدة ، يطرح السؤال التالي نفسه : كيف تمكنت هذه الاقلية العربية الفلسطينية من المحافظة على بقائها ؟) في ما تبقى من هذا الفصل سنلقي الضوء على الأحداث الرئيسة الهامة في الطريق الذي يؤدي إلى التعبئة والوعي السياسي .

الاتجاهات السياسية ما قبل عام ١٩٦٧ :

في العقود الأولى التالية لإنشاء دولة إسرائيل ، وُجد اتجاهان سياسيان فلسطينيان مستقلان رئيسان . الأول : هو الحزب الشيوعي

الإسرائيلي ، وكان معظم أعضائه من العرب . وقبل عام ١٩٤٨ كأن هناك الحزب المؤيد للسوفيات تماماً ، والذي كان يتمتع بصفة قانونية لأنه بشكل رئيسي يشتمل على عضوية يهودية وآمن هذا الحزب بالدفاع عن حقوق الفلسطينيين ضمن النظام الإسرائيلي . أما الاتجاه الثاني فهو اتجـاه القوميين العرب ، الذين لم يُنظموا ضمن حزب سياسي . وقـام بعضهم بتأسيس « حركة الأرض » المؤيدة الناصرية في أوائل عام ١٩٦٠ ، ولكنهم لم يحصلوا على ترخيص قانوني . ورفض أعضاء حركة الأرض القبول بالنظـام المفروض على الفلسطينيين ، على الرغم من إقـرار دستورهم الخطـة التقسيم التي حددتهـا الأمم المتحـدة عام ١٩٤٨ . وبالنتيجة لم يتمكنوا من التنظيم بشكل علني كما فعل حزب الشيوعيين.

هذان هما الاتجاهان السياسيان غير الصهيونيين . في الوقت ذاته قامت المؤسسة السياسية اليهودية الإسرائيلية بتقديم القوائم العربية جنباً الى جنب مع قوائمها الخاصة في الانتخابات الوطنية . ومن خلال استخدام حكيم لأسلوب الترغيب والترهيب ، تمكن هؤلاء المرشحون، الذين تم اختيارهم بشكل رئيسي من القيادة التقليدية التي تعتمد على العائلة الممتدة الأطراف ، من اكتساب حوالي ٧٥ ٪ من الأصوات العربية في السنوات الأولى . وصـوت العرب بشكل فعلي لصالح حزب العمل الإسرائيلي الذي كان يعتبر في تلك السنوات الحكومة الدائمة للدولة .

حتى اليوم ما يزال هذان الاتجاهان الواسعان غير الصهيونيين قائمين . في عام ١٩٦٥ ، تمكن الحزب الشيوعي الإسرائيلي ، الذي أطلق عليه آنذاك اسم (راكاح) أو القائمة الشيوعية الجديدة ، من اجتذاب ٢٣ ٪ من الأصوات العربية . وفي عام ١٩٧٥ تمكن الشيوعيون ، بدعمهم حلف الخريجين المستقلين على انه الجبهة الديمقراطية في الناصرة ، من السيطرة على مجلس الناصرة البلدي (ضمت الجبهة الديمقراطية حركة التجار وأصحاب المهن وحلف طلاب المدرسة الثانوية) . كانت هـذه نقطة تحول كبيرة في شؤون فلسطيني ٤٨ . بعد ذلـك بفترة قصيرة

عمل حزب (راكاح) على التحالف مع قوى أخرى غير صهيونية ليشكل الجبهة الديمقراطية من أجل السلام والمساواة .

كثيراً ما يتعرض الشيوعيون للانتقاد بسبب موقفهم « المعتدل جداً » ، ولقيامهم بتهديد المصالح الفلسطينية وذلك بغية المحافظة على وضعهم القانوني . فمن المؤكد أن الأشخاص الذين فقدوا ديارهم وأرضهم غير قادرين على رؤية ميزات المحافظة على إخلاصهم للدولة أو العمل ضمن النظام الإسرائيلي الذي اقتلعهم من جذورهم وعمل على اضطهادهم . لذلك فإن قدرة الشيوعيون على التنظيم بشكل قانوني ، والأهم من ذلك كله قدرتهم على إصدار مطبوعاتهم باللغة العربية ، كانت العامل الرئيسي في المحافظة على هوية فلسطيني ٤٨ ووعيهم خلال العقدين الأوليين . فصحيفة (الاتحاد) الصادرة في حيفا بإشراف الكاتب الفلسطيني اللامع « إميل حبيبي » ، والمجلة الأدبية (الجديد) . كانتا ولسنوات عديدة المادة الوحيدة المتوفرة لفلسطينين ٤٨ الناطقة بلغتهم الأم .

كما ذكر الشاعر « عابد » ، البالغ من العمر السادسة والأربعين عاماً :

(بدأ إدراكي يتفتح في سن مبكرة لأن والدي ، الذي كان تاجراً ، كان يعمل مع الشيوعيين . حاول الشيوعيون أن يغيروا مواقف الناس بزيارتهم للقرى وتلقين أهلها مبادىء القومية ، فكان لهم دور كبير في إثارة المشاعر الوطنية . وبدأت الشيوعية تؤثر بشكل فعلي على تفكيري عند نهاية دراستي الثانوية ، وليس قبل ذلك ، ولم يكن تأثيرها سياسياً فحسب ، بل أدبياً أيضاً . فبدأت بكتابة الشعر منذ عام ١٩٥٥ تقريباً ، وكانت قصائدي تدور حول الأرض والفلاحين مع دلالات سياسية ، كما هو حال كل من كان يكتب الشعر في تلك الأيام) .

قال الدكتور عارف :

(اذكر وانا طفل صغير بأنني كنت أرافق والدي لحضور بعض الاجتماعات السرية مع الشيوعيين ، وعندما بلغت الثالثة عشر عاماً ذهبت في زيارة الى معسكر صيفي في موسكو ، وكان لتلك الزيارة الأثر الكبير في إطلاعي على أشياء كثيرة . ثم نما إدراكي بشكل أوسع عندما ذهبت الى المدرسة الأرثوذكسية في حيفا . بالنسبة لي كانت حيفا مهد القومية العربية ، وتعلمت هناك الكثير عن قضيتنا) . كان بوسع الفلسطينيين في الحزب الشيوعي أن يعملوا ويصدروا مطبوعاتهم بشكل قانوني ، في حين ما زال العرب القوميون يتعرضون للمضايقات المستمرة .

يصف « جريس » ذلك بقوله :

(عند نهاية العقد الأول الذي تلى نشوء دولة إسرائيل ، أي في صيف عام ١٩٥٨ ، اتخذت المعارضة [القومية] مظهراً متميزاً في شكل منظمة سياسية (الجبهة العربية ، أو ما أطلق عليه فيما بعد الجبهة الشعبية) التي كان هدفها الواضح هو مقاومة السياسة القمعية التي تمارسها الدولة على مواطنيها العرب . وعلى الرغم من الانقسام الذي حصل في هذه الجبهة فيما بعد ، الا أنه لم يكن بحد ذاته مفيداً للاسرائيليين بأي حال من الأحوال ، لأنه ادى الى ظهور منظمة جديدة ذات طابع قومي عربي وهي « منظمة الأرض » أو « حركة الأرض » . وفي النهاية كان على السلطات أن تتعامل مع « حركة الأرض » فقط عندما أصدرت مرسوماً عسكرياً يقضي بحلها . (**١٩٧٩ ـ صفحة ٣٢**)

كان هناك « جبهة شعبية » قصيرة الأجل وجدت بين الشيوعيين من جهة والقوميين العرب من جهة ثانية ، استقر بعدها الطرفان على تناقض غريزي يستمر حتى اليوم . وفي عام ١٩٥٩ بدأت جماعة « حركة الأرض » باصدار صحيفة ، أغلقت عام ١٩٦٠ (ولكنهم تابعوا ، عبر منفذ قانوني ، اصدار منشورات فردية تحمل كل منها اسماً أولياً مختلفاً ، وترتبط جميعها باسم ثانٍ مشترك) . في منتصف عام ١٩٦٠ شكلت **الجماعة** حزباً سياسياً ولكنه الغي خلال أيام قليلة . وتعرض قادة

« حركة الأرض » للاضطهاد الشديد ومنهم : صالح برانسي ، ومنصور قردوش ، إذ أمضى الأول قرابة العشر سنوات في السجن .

عادت مبادىء « حركة الأرض » للظهور ثانية في حركة « أبناء البلاد » في مدينة أم الفحم ، التي أعلنت عن بدايتها بشكل قائمة انتخابية في انتخابات المجلس البلدي . على الرغم من أن أعضاء حركة « أبناء البلد » رفضوا الاشتراك في الانتخابات القوميـة الاسرائيلية (كما فعل أعضاء حركة الأرض سابقاً) إلا أنهم شاركوا في اقتراعات المجلس البلدي .

الاتجاهات الشخصية ما قبل عام ١٩٦٧ :

من المرجح أن العقبـة الكبرى والرئيسـة التي واجهت القوميين والشيوعيين في محاولتهم لتحريض الوعي السياسي هي طبيعة (النكبة) كما يقول الفلسطينيون عندما يشيرون الى ضياع فلسطين عام ١٩٤٨ . والنقطة الأكثر أهمية هي أن المعانات كانت فردية وليست تجربة جماعية. ففي ذلك الوقت ، بعـد أن تعرض الفلسطينيون للتجزئـه والضياع والعزلة ، افتقروا الى نظرة شمولية للمضامين القومية للكارثـة التي حلت بين ظهرانيهم ، كما كانت تعوزهم الوسيلة لتحديد رد فعل قومي النطاق . وطبعت الصدمة الناجمة عن الهزيمة الجيل الذي رافقها عـام ١٩٤٨ ، والذين تراوحت أعمارهم ما بين الثلاثين والأربعين عاماً ، بطابع الخوف والعجز ؛ وبالتالي انتقل هذا الخوف والسلبية التي نجمت عنه الى أطفالهم ، والكن ليس على أساس دائم . فعندما بلغ هؤلاء الأطفال الثلاثين والأربعين عاما ، أصبحوا جيلا يملك المعرفـة الكافية لتطوير تقنية رد الفعل .

هناك نوع من الانشقاق بين جيل الـ ٤٨ والأجيال الشابة التالية التي تبنت لهجة اتهامية تجاه الآباء ، وكانت شكواهم الدائمة ، (لم يفعلوا شيئاً ، لقد جلسوا في الخلف ، وتركوا كل شيء يحدث وانتظروا العالم ليحل لهم المشكلة) .

من ناحية أخرى ، هناك من يتعاطف معهم ، قال المدرس (عامر) ، البالغ من العمر السادسة والأربعين عاماً ، والذي أجبرت عائلته على الرحيل من قريتها الى الناصرة :

(صحيح انني عندما كنت يافعا ، كان إدراكي لمعضلتنا محدوداً جداً ، إذ لم يكن الكبار يتكلمون عنها بدافع من الخوف والجهل . ولكنني لم ادنهم في يوم من الأيام وما أزال حتى الآن ، بل على العكس ، كلما يزداد ادراكي للأمور يزداد تعاطفي معهم ، وإحساسي العميق بفداحة خسارتهم وشدة معاناتهم . وكونهم لم يحاربوا فهذا ليس في الواقع خطأهم ، لأنهم لم يملكوا الوسيلة لذلك) .

يشعر الجيل الأكبر بالألم لاتهامه بالسلبية ، ويفخر بنشاط الجيل الجديد . قالت جماعة من المسنين رداً على الانتقاد الذي وجه اليهم :

(لا يعلم جيل الشباب ما معنى ان نجرد بوحشية من أرضنا ومنازلنا . ولا يعلمون ايضا ما معنى أن نعيش تحت حكم عسكري يمنعنا من الانتقال من مكان الى آخر دون تصريح . لقد كافحنا بطريقتنا الخاصة : بمقاومة رجال الشرطة والجنود ، بإنشاد الأغاني الوطنية في الأعراس والأعياد ، وبالاستماع الى الشعراء القوميين . لم يكن يتسنى لادراك الجيل الجديد ان ينمو بعيداً عن تجربتنا . لم نكن نملك ما يملكونه اليوم ، لقد تغيرت الظروف والقناعات ، وكذلك الحال بالنسبة لأساليب النضال) .

قال المدرس (عماد) من الناصرة ، البالغ من العمر السادسة والأربعين عاماً يصف تجاربه مع ذويه :

(كان والدي يملك أرضاً في « معلول » تثمر زيتوناً وذرة ، وعندما بدأت المتاعب عام ٤٨ ، ذهبنا الى الناصرة آملين استقرار الأوضاع قريباً ، ولكن هيهات ، عندما كنت فتياً ، كنت أستمع الى جدي يتحدث

حديث الذكريات عن ارضه وداره ، واذكر انه كان يشتم اليهود ويهاجمهم لما اقترفته أيديهم . فالخوف لم يلجم جدي كما فعل لوالدي الذي كان يحذرنا باستمرار من التذمر علناً خوفاً من السلطات ومن المتعاونين معهم .

وعلى الرغم من أن جيل والدي قد شهد عمليات الغزو وتجريد الممتلكات والمجازر ولكنهم اتسموا بالانهزامية . فلم يفكروا على الاطلاق بأن يكافحوا معتمدين على إمكانياتهم الشخصية وذلك لانهم لا يملكون الثقافة ولا المعرفة . في بادىء الأمر ، انتقل هذا الخوف الى أبناء جيلي ، وكان يطبق بظلاله القاتمةعلينا من كل حدب وصوب حتى أنه لم يعد أحد يجرؤ على التفوه بكلمة (فلسطيني) ، أو حتى حمل جريدة (الاتحاد) علناً في الطريق كما يفعلون اليوم ، إذ كان يوقف على الفور ويتعرض للاستجواب من قبل الجنود .

كان جيلي يعتبر الجيل الانتقالي ، ويعاني جيل اليوم أيضا ولكن بشكل مختلف ؛ فهم من جهة يملكون مزايا لم تكن لدينا من قبل ، فعلى الرغم من أن النظامالتربوي العربي لا يتساوى اطلاقاً مع النظام اليهودي؛ إلا أن التسهيلات التي يتمتع بها أطفالي اليوم لم تكن متوفرة لنا . بالاضافة الى ذلك ، فأنا أقدم لهم ما عجز والدي عن تقديمه لي : الادراك والشجاعة تجاه هويتهم كفلسطينيين ، وتجاه تراثهم . وهم يملكون حرية اللجوء الى عدد من الصحف والكتب ووسائل الاعلام التي تطلعهم باستمرار على مصير الفلسطينيين في الخارج ، ولديهم أيضا وسائل ترفيه لم أكن أحلم بها . من ناحية ثانية ، فإن طموحاتهم تفوق طموحاتنا . فبعد أن يغادروا المدرسة الثانوية يجدون أنفسهم في مواجهة معاناة العالم الخارجي : التمييز العنصري ، فقدان فرص العمل ، الاذلال ، عدم التساوي في الحقوق ؛ ولكن الخوف لم يهزمهم ولم يتراجعوا في هدوء ، بل يتساءلون : « لمَ ننتهي بهذا الشكل ؟ » ويصبحون اكثر حماسة للنضال من أجل حقوقهم وإثبات هويتهم .

عزز هذه النظرة موظف البلدية (نضال) البالغ من العمر ٤١ عاماً ، عندما قـال :

(يتمتع شبابنا اليوم بقوة اكبر لأنهم فلسطينيون منذ اللحظـة الأولى لولادتهم ، وقادرون أيضاً على القيام بأشياء لم نستطع نحن القيام بها . إذ يمكنهم على سبيل المثال مواجهـة أساتذتهم وتحديهم عندما يحاولون تلقينهم مواضيع تنكر هويتهم . لم يكن ذلك ممكنا في أيامي ، لأننا كنا سنعاقب بشدة ليس من قبل الأساتذة فحسب ، بل من قبل ذوينا . يوجد اليوم مراكز ثقافية نشجع فيهاعلى تقديم المسرحيات والموسيقا والشعر الفلسطيني ـ الشيء الذي لم نقم به في الماضي ، ليس لأننا لم نجرؤ على ذلك فحسب ، بل لأننا لم نملك الوسيلة أيضاً) .

لم نعد ندهش اليوم إذا سمعنا أن بعض الطلاب الفلسطينيين يرفضون المشاركة في الاحتفال بيوم استقلال إسرائيل . ذكرت إحدى المعلمات أن تلميذاً صغيراً يبلغ الثامنة من عمره قد نعتها بالكاذبة عندما حاولت أن تلقنهم بعض المعـلومات عن يـوم الاستقلال ، وقـالت وهي تبتسم : (لم اغضب عندما قال لي ذلك ، بل على العكس كنت أرغب بتقبيـله) .

الاتجاهات السياسية مابعد عام ١٩٦٧ :

في عام ١٩٧٧ تأسست الجبهة الديمقراطية من اجـل السـلام والمساواة DFPE بمبادرة من الحزب الشيوعي (راكاح) ، وقـد تضمنت هذه الجبهة (النمور السود) برئاسة (شارلي بيتون) وبعـض رؤساء مجالس البلديات العرب .

وكمـا ذكر (جريس) ، أتلك قـرار (راكاح) بتوسـيع قاعدتهـا وتحالفها مع غير الشيوعيين نتيجة لازدياد عدد العرب الذين لم يقبلوا التصويت في الكنيست . ففي دورة الكنيست السابعة عام ١٩٦٩ بلغـت نسبة العرب الذين يحق لهم التصويت ولم يمارسوا هذا الحق ١٦٪ من

العدد الإجمالي ، وارتفعت النسبة الى ٢٠٪ في دورة الكنيست الثامنة عام ١٩٧٣ ، وأصبحت ٢٤٫٥٪ في الدورة التاسعة عام ١٩٧٧ . نوه (جريس) بأن [(راكاح) أعادت النظر في سياساتها السابقة وعدلت إحداها فأصبحت الآن توافق على تشكيل ائتلافات مؤقتة مع المجموعات القومية الأخرى التي تمتلك النفوذ في الشارع العربي) . شاركت الجبهة الديمقراطية في انتخابات الحكومة المحلية في تشرين الثاني ١٩٧٨ وحصلت على رئاسة عدد من المجالس العربية .

في غضون ذلك ، وكما ذكر سابقا ، ظهرت من جديد لدى حركة أبناء البلد » ـ التي شكلها (محمد كيوان) في بداية السبعينات بشكل قائمة انتخابية في أم الفم ـ ذات المعتقدات التي اعتنقتها في السابق « حركة الأرض » . وكما أشار (جريس) لم تسعى المنظمات المتعددة التي شكلتها حركة « أبناء البلد » في قرى مختلفة الى الاتحاد بشكل تنظيمي كي لاتتعرض للانحلال كما حدث مع حركة الاض في منتصف الستينات . وبينما أكدت « حركة الأرض » على الوحدة العربية فقد أكدت حركة « أبناء البلد » على الهوية الفلسطينية . وفي حين دعا الشيوعيون إلى اللجوء الى استعمال القوة والعنف ضمن الإطارالقانوني، فقد عارضت حركة « أبناء البلد » ذلك ولم تصوت لصالح الكنيست في الانتخابات العامة . على أية حال ، كان هناك فروق اقلية في الرأي حول الموقف الذي يجب أن تتخذه الحركة إزاء الحكومة ، وحول المشاركة في انتخابات الكنيست ، الأمر الذي أحدث انشقاقاً في الحركة ، وكما حدث مع أعضاء « حركة الأرض » من قبل ، فقد وضع افراد حركة « أبناء البلد » تحت الحجز الاداري (السجن دون محاكمة) أو تم اعتقالهم ، وبعد الانتفاضة أغلقت صحيفتهم (الراية) بعد مرور عامين فقط على صدورها .

عندما اشتد عود الاتجاهات القومية توقفت الاحزاب الاسرائيلية الصهيونية على استعمال القوائم العربية ، واضافت أسماء المرشحين العرب الى قوائم الحزب الإسرائيلي اليهودي . والكن بحلول الثمانينات

لم تجتذب هذه الخطوة سوى ٤٠٪ من الأصوات العربية ، بالمقارنة مع النسبة الحاصلة في السنوات السابقة والبالغة ٧٥٪ .

حدثت نقطة التحول الرئيسة في التطور السياسي لقضية فلسطيني ٤٨ في مابين عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ . إذ أتى (يوم الارض) بعد وقت قصير من نجاح حركة (راكاح) ، برئاسة الشاعر الفلسطيني توفيق زيّاد ، في الحصول على المجلس البلدي في الناصرة في تشرين الثاني عام ١٩٧٥ . فقامت حركة (راكاح) و (لجنة الدفاع عن الأرض العربية) ـ التي شكلها قادة المجلس البلدي العربي ـ بتنظيم (يوم الأرض) ، فكان صرخة الاحتجاج الكبرى الاولى التي أطلقها الفلسطينيون ضد الاغتصاب اليهودي للأرض العربية ، إذ قررت الدولة هذه المرة أن تأخذ اكثر من ٢٠،٠٠٠ دونم (٤دونمات = ١ أكر) من قرية سخنين ، و ٣٠٠٠ دونم من قرية كفر قاسم .

في الواقع ، رأى بعضهم أن خطوة السلطات الاسرائيلية لمصادرة المزيد من الأراضي العربية ماهي إلا رد فعل على حصول الشيوعيين على بلدية الناصرة عام ١٩٧٥ ـ وهذه الخطوة ، وفق وجهة النظر الإسرائيلية ، تحتم فرض مزيد من السيطرة على الجليل حيث يشكل العرب نصف السكان تقريباً . على أية حال ، فإن رد الفعل الإسرائيلي هذا قد زاد من الوضع المتطرف لفلسطيني ٤٨ . وكانت حصيلة المظاهرة التي جرت في ٣٠ آذار عام ١٩٧٦مقتل ستة أشخاص من العرب واعتقال العديد منهم . ومنذ ذلك الوقت ، يحتفل الفلسطينيون في كل مكان بالذكرى السنوية (ليوم الأرض) ، واعتبرته الحكومة الفلسطينية في المنفى ، منظمة التحرير الفلسطينية ، يوم عطلة رسمية ، فأصبح اليوم التاريخي الأول الذي قدمه فلسطينيو ٤٨ الى باقي افراد شعبه .

استعاد (جريس) ذكرياته :

(نتيجة للاضطراب الذي حدث في ذلك اليوم ، أعادت الحكومة الاسرائيلية النظر ثانية في سياساتها نحو العرب في اسرائيل ، وقررت

في نهاية شهر آيار عام ١٩٩٧٦ أن تنهج سياسة (دمج) العرب في المجتمع الاسرائيلي والنشاط الحكومي ككل « على أساس المساواة في الحقوق الوطنية كاملة مع الأخذ بعين الاعتبار استقلالهم الديني والحضاري » . إلا أن رؤساء المجالس رفضوا ذلك القرار ، واجتمع وفد يمثلهم مع رئيس الوزراء رابين في نهاية الشهر ذاته . احتج الوفد ضد القرار ، وفي نهاية شهر حزيران قدم مذكرة يطلب فيها أخذ « حقيقة الهوية القومية العربية » بعين الاعتبار) .

كانت تلك دلالة على نزعة التغيير الجذرية لدى اللجنة الاقليمية لرؤساء المجالس المحلية العربية ، وهي شبكة تتألف من رؤساء المجالس البلدية العربية المنتخبة في إسرائيل (يوجد الآن أربع مجالس بلدية عربية وخمس وخمسون مجلسا محليا منتخبا) . وكما ذكر (الحاج) عام ١٩٨٨ ، فقد استغرق تأسيس هذه الشبكة عدداً من السنوات . كانت في سنواتها الأولى تتلقى ، وبشكل يدعو للسخرية ، الدعم من الحكومة اليهودية التي حاولت إقناع رؤساء بلديات ذوي شخصيات مهزوزة بالانضمام الى المجالس . وكان يدير بالطبع معظم هذه المجالس في ذلك الوقت ممثلون عن التجمعات العائلية التقليدية ، كما جرت العادة منذ أيام الحكم العسكري .

وكما ذكرت صحيفة القبس (النسخة الدولية الصادرة في ٢٣ كانون ثاني عام ١٩٨٩) فقد اجتمعت اللجنة الاقليمية عشية أول إضراب (ليوم الأرض) في آذار عام ١٩٧٦ ، ولكن نتيجة للضغوط التي مارستها السلطات لم يصوت لصالح الاضراب سوى خمسة أشخاص من رؤساء المجالس (ومن ضمنهم بالطبع المحرض الرئيسي : توفيق زياد ، رئيس بلدية الناصرة) . كشف التحول الكبير الذي حدث في (يوم الأرض) عن تفكير فلسطينيي ٤٨ في مصالحهم واين توجد تلك المصالح . فبحلول عام ١٩٨٠ أصبح الكثير من المجالس تحت سيطرة الجبهة الديمقراطية والهيئات الفلسطينية المستقلة الأخرى ؛ وأصبح يطلق على اللجنة الاقليمية : (مجلس الشعب الحقيقي للفلسطينيين في إسرائيل) ، الذي

قام بدوره بتشكيل لجان متخصصة في أمور الأرض ، والصحة ، والأوضاع الاجتماعية ، والثقافة ، والمدن المختلطة ؛ بالاضافة الى تنظيم مجموعات كبيرة من القوى التي تمثل حاجات فلسطينيي ٤٨ . من الجدير بالذكر أن حوالي نصف عدد القرى العربية التي من المفترض أن تنتخب ممثلين عنها قد مارست فعلا هذا الحق ؛ فلو قامت جميع القرى العربية اليوم بانتخاب مجالس تمثلها ، لعزز ذلك من مكانة اللجنة الى حد كبير (الأمر الذي يفسر دون شك سبب غياب تلك المجالس في العديد من القرى) .

استمرت شبكة رؤساء البلديات بممارسة مهامها بشكل فعال جداً ، على الرغم من أنها تضم أفراداً مختلفين في المعتقدات السياسية ، فهي تشمل : الشيوعيين ، والقوميين ، والمسلمين ، والمحافظين ، والأعضاء الصهيونيين الملتزمين . كما ذكر (روحانا) :

(لقد تمكنت اللجنة من اكتساب احترام الشعب العربي من خلال إظهار وحدتها على الرغم من الانقسامات السياسية العميقة داخل صفوفها ، ونالت منصب القيادة القومية لأنها تمثل الاهتمامات اليومية ... ولا تتمتع أية سلطة أخرى ، حتى الحكومة الاسرائيلية ، بهذا المنصب داخل المجتمع العربي) .

في السابق ، أشار (جيريس) بأن اللجنة الاقليمية :

(قد قامت بتأسيس « منظمة » عربية ، ما تزال السلطات الاسرائيلية ، المعروفة بحساسيتها التقليدية والمكشوفة تجاه نشوء أية منظمة قومية عربية في اسرائيل ، تجد صعوبة كبيرة في التأثير عليها . ولا يعود السبب في ذلك الى أن المجالس البلدية والمحلية هي هيئات رسمية قانونيا فحسب ، بل ايضا لأن وجودها جوهري من أجل التنظيم اليومي السليم للمدن والقرى العربيية ، ويتحتم على السلطات بالضرورة أن تتعامل معها) .

بحلول عـام ١٩٨٧ ، كانت اللجنـة الاقليميـة تصعّد من حـدة الاحتجاجات الموجهـة ضد سياسـة التمييز في المجالـين الاجتماعي والاقتصادي . ودعت المجالس المحلية العربية الى اضراب ليوم وحد في ٥ آيار احتجاجا على انخفاض الميزانيات المخصصة للمجالس . وقال رئيس اللجنة الاقليمية (ابراهيم نمر حسين) . بأن هذا الاضراب كان (طلقة الافتتاح في حملة نشنها للضغط على السلطات الاسرائيلية لتنفذ تعهداتها فيما يتعلق بتحسين السكن ، وتوفير تسهيلات ثقافية أفضل ، وزيادة الميزانيات المخصصة للبلديات) .

(صحيفة الفجر ـ ١٠ ايار ١٩٨٧)

في أعقاب اضراب الخامس من أيار ، وبالتحديد في ٢٤ حزيران عام ١٩٨٧ ، أعلن عن اضراب « يوم المساواة » الذي استأثر باهتمام عالمي، واعتبر أكبر احتجاج أطلقه فلسطينيو ٤٨ ضـد الشروط الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشون فيها . وفي الأول من أيلول دُعي الى اضراب شامل احتجاجا على الأوضاع في المدارس . فقد كانت عملية التغيـير الجذري للفلسطينيين داخل اسرائيل تسير بسرعة كبيرة .

في الواقع ، ما لم تنفجر الانتفاضة في ذلك الوقت ، كان من الممكن ان يحدث اصطـدام عنيف في الرغبات بين الاقلية العربيـة والاكثرية اليهودية . ولكن انفجار الانتفاضة حول انتباه فلسطينيي ٤٨ فوضعوا موضوع دعم اخوانهم الفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال في مقدمـة الأولويات . وتجسد هذا الدعم في اضراب يوم ٢١ كانون الأول عـام ١٩٨٧ ومظاهرات (يوم السلام) دعما للانتفاضة . ومازالت الاضرابات المنتظمة مستمرة تعبيرا عن احتجاجهم على أوضاعهم ، فعلى سـبيل المثال ، دُعي الى اضراب ليـوم واحد في ٦ تشرين الأول عـام ١٩٨٨ احتجاجا على خطة تهدف الى دمج اربع مجالس في اثنين ، وهذا يعني خسارة رئيسي بلدية وانخفاض الموارد المالية .

بالاضافة الى تشكيل اللجنة الاقليمية ، شهدت السبعينات وأوائل الثمانينات مزيدا من التطورات السياسية بين فلسطينيي ٤٨ ، فقد ازداد تأثير الحركة الوطنية الفلسطينية منذ أن قامت حركة التحرير الفلسطينية PLO بتقرير أوراق اعتمادها في عام ١٩٦٨ . وفي الثمانينات أصبحت القضايا الفلسطينية وتطوراتها ، فضلا عن نشاطات منظمة التحرير الفلسطينية خارج اسرائيل ، تنشر بشكل واسع في الصحافة العربية الاسرائيلية . بالاضافة الى ذلك ، أصبحت الأحزاب السياسية المختلفة تتنافس علنا لتظهر بأنها تحظى بمباركة منظمة التحرير الفلسطينية . ومن ناحية ثانية ، كانوا حريصين على هذا الموضوع شأنهم كشأن المواطنين الاسرائيليين الذين يؤمنون ، مع العديد من اليهود الاسرائيليين ، بأن الحل الوحيد للصراع الاسرائيلي ـ العربي هو : اقامة دولتين : أي دولة فلسطين جنبا الى جنب مع دولة اسرائيل ، ولكن حتى اذا تم التوصل الى هذا الحل ، سيبقى فلسطينيو ٤٨ مواطنين اسرائيليين ، على الرغم من هويتهم الفلسطينية .

في لنصف الثاني من الثمانينات ، كانت هناك صلات قوية بين الفعاليات السياسية والاجتماعية من فلسطينيي ٤٨ واخوانهم في الضفة الغربية وقطاع غزة ويهود الشتات . فعلى سبيل المثال ، في عام١٩٨٧ عقد في جنيف وتحت رعاية الأمم المتحدة المؤتمر السنوي المنظمات غير الحكومية من أجل قضية فلسطين ، وكان مؤتمرا استثنائيا نظراً لحضور أعداد كبيرة من الفلسطينيين واليهود من داخل اسرائيل، وقد اختلطوا عن قرب مع ألف شخص آخرين منهم : عدد من الفلسطينيين من المناطق المحتلة ومن الموجودين في المنفى ، وعرب من دول أخرى ، بالاضافة الى أعداد من الأوروبيين والأمريكيين الذين يؤيدون القضية الفلسطينية . ولم ينل شرف القاء كلمة الافتتاح في المؤتمر أحد سوى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية : ياسر عرفات .

شهدت الثمانينات أيضا تأسيس أحزاب واتجاهات سياسية جديدة ، فقد شكل أحد مؤسسي حركة الأرض وهو (محمد ميعاري)

بالتعاون مع لواء اسرائيلي يهودي متقاعد يدعى (ماتي بيليد) : الحركة التقدمية ، وتقدما عام ١٩٨٤ الى الانتخابات الوطنية وفق القائمة التقدمية للسلام ، وفازا كلاهما .

تتشابه « القائمة التقدمية للسلام » و « الجبهة الديمقراطية » في تطلعاتهما السياسية ، ولكن عن الفكر الشيوعي . وقد تأمل أولئك الذين ساندوا تشكيل « القائمة التقدمية للسلام » بأنها سوف تجتذب العرب الممنوعين من التصويت والذين كانت الشيوعية وراء عزلتهم . من ناحية ثانية ، تعصب الشيوعيون بشكل كبير تجاه الدعم الذي قدمته حركة التحرير الفلسطينية للقائمة التقدمية ، لأن هذا الدعم أثر بشكل سيء في موقف الجبهة الديمقراطية . تحدث (ميعاري) الى (صحيفة الدراسات الفلسطينية) ملخصا نظرة القائمة التقدمية (المجلد ١٤ : رقم ١) :

(علينا أن نلعب دورا مضاعفا ، أولا : يجب أن نناضل من أجل المساواة الوطنية والمدنية داخل اسرائيل . ثانيا : يجب أن نشارك في عملية التوصل الى حل عادل للمشكلة الفلسطينية ، أي الانسحاب الكامل [لاسرائيل] الى حدود عام ١٩٦٧ وتأسيس دولة فلسطينية) .

وقال ان القائمة التقدمية قد تعاونت سابقا مع الجبهةالديمقراطية، ولكنهم أرادوا الآن الوصول الى فلسطينيي ٤٨ المحرومين من الاقتراع عن طريق اضفاء (هوية ولون فلسطيني متميز على نضالنا بدلا من افراقه في خضم النضال الديمقراطي الكلي) .

بعد أن أخذ الفلسطينيون دورا في الأحداث السياسية الاسرائيلية، شعرت الدولة اليهودية على الفور بضرورة اعادة التأكيد على سيطرتها وذلك عن طريق اصدار التعديل رقم (٧) عام ١٩٨٥ على القانون الاسرائيلي الأساسي : (لا يحق لقائمة مرشحين الاشتراك في انتخابات الكنيست اذا كانت أهدافها أو أفعالها تشير ، بشكل علني أو ضمني،

الى احد الامور التالية : (١ ــ رفض الاعتراف بوجود دولة اسرائيل على انها ، دولة تضـم الشعب اليهـودي ...) . ورفض الكنيست الاقتراحات التي قدمها أعضاؤه العرب بأن التعديل يجب أن يشير الى: (دولة الشعب اليهودي ومواطنيها العرب) ، أو تحديد هذا التعديل (برفض الاعتراف بوجود دولة اسرائيل) .

(روحانا ــ ١٩٨٩ ، ص ٥١)

وكما تشكلت « القائمـة التقدمية للسـلام » في الوقت المناسب للانتخابات الوطنية عـام ١٩٨٤ ، فقد تشـكل « الحزب الديمقراطي العربي » في الوقت المناسب للانتخابات القوميـة عـام ١٩٨٨ ، بعـد أن انفصل (عبد الوهاب دراوشة) عن حزب العمل احتجاجا على السياسة اليهودية الاسرائيلية في المناطق المحتلة بعد اندلاع الانتفاضة . ويبـدو أن (دراوشة) قد اتبع الحالة النفسية الشائعة لفلسطينيي ٤٨ بدلا من قيامـه بتوجيهها ، فمنذ ان قـام وزير الدفاع (اسحق رابين) عضو حزب العمل بتنسيق سياسة القمع الاسرائيلية في الأراضي المحتلة، لم يعد بامكان دراوشة الى حـد ما ان يحافظ على منصبه في الحزب نفسـه .

حصل الحزب الديمقراطي العربي عـلى مقعد واحد في الانتخابات الوطنية لعام ١٩٨٨ ، وفي مقابلة مع صحيفة الحياة العربية اليوميـة الصادرة في لنـدن (في ١٨ آب عـام ١٩٨٩) ، علـق (دراوشة) ، بناء على وجهة نظر جديدة ، بأن العرب لا يملكون النفوذ السياسي الكافي ، وذلك نظرا : (لانعدام التنسيق بين الأحزاب العربية ، وكانت النتيجـة حصول الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة على أربعة مقاعد بدلا من خمسـة ، وانخفاض مقاعد الحركة التقدمية من مقعدين الى مقعد واحد . كانت الخسـارة العربية جسيمة بسبب الانشقاقات الداخلية والضغوط السياسية والمادية المختلفة التي تمارسها السلطات الاسرائيلية ، لـذا صوّت حوالي ٤٠ ٪ من العرب لصالح الأحزاب الصهيونية ، وامتنع حوالي ٣٠ ٪ عن التصويت) .

حصل الحـزب الديمقراطي العربي على ٢٧٠٠٠ صـوتا ، وبذلك ينقصه ٩٠٠٠ صـوت للحصول على مقعـد ثاني في النظام الاسرائيلي للتمثيل البرلماني النسبي .

في شهر آب عام ١٩٨٩ ، تراس (دراوشـة) وفدا من حزبه في رحلة الى القاهرة للاجتماع مع أعضاء الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم وبعض المسؤولين المصريين الآخرين ، وقد قال وقتها لصحيفة الحياة : (اننا نؤمن بأن مصر ، بمكانتها الخاصة ومواقفها القومية ، ذات اهمية كبرى بالنسبة لنا نحن كفلسطينيين داخل اسرائيل ... فعن طريـق مصر ، نحاول أن نحطم القيود ونفتح أبواب العالم العربي ... ونحن ، برغم كل شيء ، جزء لا ينفصل عن الشعب الفلسطيني وعن العالـم العربي ، ونحن فخورون بعروبتنا وبتراثنا . ليس من المنطق أن يفرض علينا حصار ، ويكون للدول العربية يد فيه ، وليس من العقل أن يستمر هذا الحصار كما لو اننا أطفال العالم العربي غير الشرعيين) .

في الحقيقة يعتبر توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل أحـد التغييرات الرئيسـة في المناخ السياسي في الفترة التي تلت حرب ١٩٦٧ وعلى الرغم من وجود شعور بخيانة خفية فيما يتعلق باتفاقيات كامب دافيد عام ١٩٧٨ بين عدد كبير من فلسطينيي ٤٨ ، إلا أن الآلاف منهم قد اغتنموا الفرصة وقاموا بزيارة مصر ، ليس بسبب رخص البضائع فحسب ، ولكن كما ذكر أحدهم : (لقد سافر بعضنا الى أوربا ، ولكن امكانية زيارة بلد عربي أمر مختلف تماما ، إذ نشعر وكأننا خرجنا من المنفـى) .

وبينما رحب بعضهم بانتهاء عزلتهم ، اخذ بعضهم الآخر يبحث عن حلول في الداخل . ففي نهاية الثمانينات ظهرت الحركة الاسلامية كأكبر قوة جديدة فعالة انفجرت على المسرح السياسي ، وتمكنت من الحصول على عدد من مجالس البلديات في الانتخابات المحلية لعام ١٩٨٩ ، الأمر الذي أثار ذعر الأحزاب العربية الأخرى . وتمكن الأصوليون من اكتساب

تأييد الناس عن طريق اطلاق شعار بسيط وهو : (الاسلام هو الحل). ولخص أحد قادتهم هدفهم الرئيسي بالكلمات التالية : (لن نتمكن من محاربة الظلم والحصول على حقوقنا كفلسطينيين إلا عن طريق الاسلام، لذا يجب أن نعلم شعبنا أن يكونوا مسلمين حقيقيين) .

إن الميزة القوية التي يتصف بها الأصوليون ، كما في أنحاء العالم العربي ، هي التنظيم عند المستوى الشعبي وتوفير الوسائل لتسهيل الخدمات الملحة . ويتمتعون ، مثل المنظمات الدينية ، بنوع من الحصانة ضد المضايقات القانونية . وبالتالي يشكل هذا المركب الذي يجمع بين الأمور العملية والدينية صيغة قوية لمؤسسة ناجحة . فعلى سبيل المثال في أم الفحم حيث تأسست (الرابطة الاسلامية) عام ١٩٨٥ ، قام الأعضاء بتشييد ثلاث مكتبات تبيع الكتب بخصم يبلغ ١٠٪ ، واقامة دورات لتعليم الحاسب الآلي ، ومستوصفا طبيا يقدم الخدمات مقابل ست شيكلات فقط ؛ واحدى عشر مسجدا مع فسحة لحدائق الأطفال، ومراكز ثقافية ، ونواد رياضية يمارسون فيها لعبة كرة القدم على الطريقة الاسلامية ، (حيث لا يسمح للاعبين بالصياح أو الشتم ، وتتوقف المباريات عندما يحين وقت الصلاة) . بالاضافة الى تقديم القروض المالية من أجل المشاريع التجارية . وتعتبر المنظمة الاسلامية في أم الفحم واحدة من أوائل المجموعات الفلسطينية المتطوعة للقيام بخطوة ايجابية في سبيل حل مشكلة المخدرات ، فقامت بتشكيل (لجنة الرحمة) في ايلول عام ١٩٨٧ التي شيدت بدورها مركزا للمخدرات ومستوصفا طبيا يضم ثلاثة أطباء وممرضتين . وتتلقى الحركة الاسلامية في اسرائيل ، كما في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط ، مساعدات مالية ضخمة من شركائهم الدينيين في الخليج العربي .

يشارك الأصوليون ، على المستوى الاقليمي ، في اللجنة الاقليمية لرؤساء المجالس المحلية العربية ، ولكنهم على المستوى المحلي ، يختلفون غالبا مع المجموعات الأخرى . ذكرت صحيفة (الهدف) في عددها الصادر في تموز ـ آب (الرسالة الاخبارية الصادرة عن النادي

الثقافي في ام الفحم للاسم نفسه) مثلا حدث أثناء يوم الاحتجاج الذي دعت إليـه اللجنة الاقليمية في ١٠ حزيران عام ١٩٨٩ ضـد سياسة التمييز . فقد عقد في هذه المناسبة اجتماع في أم الفحم دعا إليه كل من : حزب العمل، والمابام ، القائمة التقدمية للسلام، الحزب الديمقراطي العربي ، والحركة الاسلامية المحلية .

(وحسب مصادر الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة « حداش » في أم الفحم ، لم تشارك الجبهة وحركة قرية أبناء البلد في هذه المظاهرة كما كان مقررا نظرا لخلافهما مع الحركة الاسلاميـة المحلية ، التي لـم يوافق أعضاؤها على مشاركة النساء في المظاهرة) .

تولت الحركة الاسلامية رئاسة مجلس المدينـة في أم الفحم أثناء انتخابات مجلس البلدية التي جرت في ٢٨ شباط عام ١٩٨٩ ، وعزلت بذلك الجبهة الديمقراطية . في مقال نشرته صحيفة « الفجر » الصادرة في ١٣ آذار عام ١٩٨٩ ، ذكر أن رئيس البلدية في « أم الفحم » (هاشم محاميد) وجه اللوم للسلطات لأنها خصصت « أم الفحم » بميزانيـة للتنمية لا تبلغ سوى ١٠٪ من الميزانية المخصصة لأية مدينة يهودية اخرى ، وقال بأن الجبهة الاسلامية قد هاجمت دون وجه حق المجلس البلدي لفشله بتطوير المدينة . أما رئيس البلدية الجديد الشيخ الملتحي (رائد مهاجنه) البالغ من العمر الثلاثين عاما والمتخرج من جامعـة (الخليل) فقد قال : (يتجلى حوارنا مع مواطني أم الفحم عن طريق العمل ، فقد وثقوا بنا ، وعبروا عـن هـذه الثقة بتأييدهم للجبهة الاسلامية ، في حين فقدوا الثقة بالفئات الأخرى لأنها فشلت بتحقيق التقدم والتطور في المدينة) .

حقق مجلس المدينة في عهد (محاميد) في الواقع بعض الانجازات : كانشاء شبكة مجارير كاملة للمرة الأولى في تاريخ المدينة ، (وطالب المجلس بسلفة مالية للرفع مـن مكانـة « أم الفحم » وتحويلها من قرية الى مدينة) . ولكن اعترف (محاميد) بأن الجبهة لم تبذل ما بوسعها

لاكتساب التأييد وقال : (استخدم المسلمون ۷۰۰ عربة لنقل المقترعين الى صندوق الاقتراع ، بينما لم نستخدم نحن سوى ٤٠ عربة وذلك نتيجة لسوء تقديرنا لإمكانياتهم) .

نقلت صحيفة (الفجر) عن لسان نجار يبلغ الثامنة والثلاثين من عمره صوّت لصالح الجبهة الاسلامية قوله : (لقد أيدتُ الجبهة الاسلامية لقاء ما فعلته خلال العشر سنوات الماضية) . واستشهد في حديثه بنوعية المشاريع التي ذكرت أعلاه ، مضيفا الى ذلك : (وقاموا ايضا ببناء المنازل للعائلات الفقيرة ، ومدوا يد العون الى المنكوبين الذين دمرت السلطات الاسرائيلية منازلهم غير النظامية) .

غالبا ما يحتل هذا العداء بين مختلف أحزاب وحركات فلسطيني ٤٨ حيزا واسعا على صفحات الصحف العربيـة وفي الكرّاسات ، فبعد الاحتفال بذكرى يوم الأرض في آذار ١٩٨٨ ، قام أحـد قادة الحركة الاسلامية وهو الشيخ (عبد الله نمـر درويش) بتوجيه الانتقاد الى الجبهة الديمقراطية على صفحات صحيفة (الصنارة) الصادرة في ٨ نيسان عام ١٩٨٨ :

(هذا النوع من الجنون ، الجنون الناجم عن الرغبـة في السيطرة والعظمة ، يقتات على المزاودة على الآخرين وعلى اطلاق الأكاذيب ... فقد أثر جنون العظمة هذا على الجبهة منذ البداية ، واستفحل عندما بدأت الحركة التقدمية تقف معها في موقف المنافسة في الكنيست ، وبلغ الأمر ذروته عندما اتخذت الحركة الاسلامية مكانا لها وسط جماهيرنا العربية والاسلامية على هذه الأرض) .

كتب (سالم جبران) رئيس تحرير صحيفة (الاتحاد) في ١٨ نيسـان عام ١٩٨٨ بأن السلطات الاسرائيلية كانت تحاول أن تضعف الحـزب الشيوعي ، لذا ظهرت كما قال ، القائمة التقدمية للسلام بعد غـزو لبنان عام ١٩٨٢ . وبعد اندلاع الانتفاضة انفصل (عبد الوهاب دراوشة)

عن حزب العمل ، واعلن عن شكوكه حول دور صحيفة (السنارة) التي (وجهت الانتقاد فقط الى المجالس التي يترأسها الشيوعيون أو جماعة الجبهة الديمقراطية .... ولكننا تمكنا في الماضي من احباط جميع تلك المؤامرات والظهور جميعا بالمظهر الاقوى) .

وكذلك لم يضع كل من اعضاء حركة أبناء البلد والشيوعيين فرصة تمكنهم من تسجيل النقاط ضد بعضهم بعضا ، فهناك على سبيل المثال المقالة التي نشرت في صحيفة (الاتحاد) الصادرة في ٣ تموز عام ١٩٨٨ وقد كتبت بلهجة تنم عن الاسف أكثر منها عن الغضب ، عندما حاول شبان حركة أبناء البلد لصق بعض الاعلانات على جدران (بيت الصداقة) في الناصرة ، فطلب منهم أحد شبان الشيوعيين بأدب بأن لا يستعملوا المساحة كلها ولا يغطوا اعلاناتهم . فكانت النتيجة نشوب صراع بالايدي ، ولكن تمت تسوية المشكلة في تلك الليلة بشكل سلمي وودي كما ورد على لسان صحيفة الاتحاد . ولكن لشدة دهشة شبان الشيوعيين وزع شبان أبناء البلد في اليوم التالي (آلاف) الاوراق التي تتضمن وصفا مزيفا للحادثة . وقد نشرت صحيفتا الراية والسنارة مضمون هذه الورقة ، ولا بد من ذكر التعليق الساخر لصحيفة الاتحاد على هذه الحادثة : (نقدم التهاني الحارة على هذه الوحدة الوطنية الحميمة !) .

كتب عضو الكنيست في الجبهة الديمقراطية (توفيق طوبي) في صحيفة الاتحاد الصادرة في ٢٠ شباط ١٩٨٩ ، وبعد تفكير منطقي في الدروس التي يجب ان يتعلمها المرء من انتخابات مجلس البلدية :

(بعد تلخيص نتائج الانتخابات، حافظت الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة على قوتها بشكل عام ، فقد فقدت القيادة في عدد من المجالس مثل مدينة أم الفحم وقرى طيبة وعرابا وترعان وعيلبون ، ولكن من ناحية ثانية فاز المرشحون الذين دعمتهم الجبهة برئاسة المجالس البلدية في كل من : سخنين وبعانا وكوكب وكفر ماندا وبيت جن) .

واكد (طوبي) على ضرورة استمرار التعاون بين الجبهة وكافة القوى العربية ، حتى أولئك الذين اعطوا أصواتهم الانتخابية للحركة الاسلامية ، وذلك لان العدو الرئيسي يبقى على الدوام السياسات التي تمارسها الحكومة ، وأشار بأنه قد انخفض مجموع الاصوات التي حصل عليها (محاميد) قليلا ، من ٢٨٪ عام ١٩٨٣ الى ٢٢٫٨٪ عام ١٩٨٩ وأنه قد حصل انقسام بين المنتخبين بعد قرار حركة أبناء البلد بالمشاركة في الانتخابات . أما في الناصرة ، فقد حصلت الحركة الاسلامية على ستة مقاعد في المجلس البلدي ، بينما حصلت الجبهة على عشرة مقاعد من أصل تسعة عشر (في مقابل أحدى عشرة مقعدا من أصل سبعة عشر في الانتخابات السابقة) . ولم يحصل كل من حزب الليكود وحزب العمل وحركة أبناء البلد على أية مقاعد ، وانخفضت حصة القائمة التقدمية من أربعة مقاعد الى اثنين .

وعلى الرغم من انتقاد (طوبي) للحركة الاسلامية لهجومها الشخصي على الزياد ومحاميد ، فقد ختم قوله بما يلي :

(اننا نناشد مؤيدي الحركة الاسلامية للتعاون في تحقيق المصالح المشتركة لجميع المواطنين العرب ، وتحرير الاوقاف الاسلامية (الودائع الخيرية) ، واحترام حق الجماهير الاسلامية بممارسة شؤونها الدينية بنفسها وعن طريق هيئاتها المنتخبة ، وأخيراً مقاومة تهديدات السلطات باتخاذ اجراءات عنيفة ضد الحركة الاسلامية ، الامر الذي يضر بحقوق المواطنين) .

على الرغم من دعوة (طوبي) هذه (قدم استقالته بعدها من الكنيست) الا أن الانتخابات التي ستجري في المستقبل يمكن أن تظهر شكلا من التحالف بين أبناء البلد والجبهة الديمقراطية ضد الاسلاميين اذ أن أبناء البلد كانوا بالتأكيد يعانون من انتصار الاصوليين في مدينة أم الفحم . علقت على ذلك الرسالة الاخبارية التي نشرتها صحيفة (الهدف) في آذار ١٩٨٩ :

(تسعى الحركة الاسلامية لانشاء مجتمع اسلامي متجانس لا فرق فيه بين الخاص والعام ، وتأمل بتحقيق ذلك سواء عن طـريق نشر افكارها لتصل الى كل فرد في المجتمع ، أو عن طريق استخدام جهاز الدولة لفرض مبادىء السلوك على الناس . وبما أنها لا ترى أن الثورة الاسلامية امكانية فورية داخل اسرائيل لذا فانها تتبع الاسلوب الاول في ام الفحم . وبدأت باجراء فصل بين الذكر والانثى في جميع مستويات التعليم ، وذهبت أكثر من ذلك فأستأجرت حافلات لنقل الفتيات الى المدارس الثانوية بمعزل عن الفتيان .

وفي الجانب الآخر من السلم التعليمي تم تأسيس رياض الاطفال الاسلامية التي تنشيء الاطفال وفق مفاهيم الحركة . وتصمم الحركة على وجوب التزام النساء بمسؤولياتهن كزوجات وامهـات ، وتنظيم المحاضرات للنسوة في المساجد لهذا الغرض) .

في رسالتها الاخبارية رقم (١٢) صرحت الهدف بأن الامور تزداد سوءا :

(صرف العديد من الموظفين والمعلمين في ثانوية أم الفحم من الخدمة منذ أن حصلت الحركةالاسلامية على رئاسةمجلس المدينة في الانتخابات البلدية في شهر شباط الماضي . فبعد انتصارهم بوقت قصير خفضت ساعات العمل لاثنين من الاساتذة على الرغم من وجود شروط قانونية تمنع هذا الاجراء أثناء العام الدراسي . ثم قام المجلس بصرف اثنين من اساتذة التاريخ بدوام جزئي من الخدمة وتعيين احد اتباعهم بدلا عنهما وتتالت عدة حالات منها صرف معلمتين من الخدمة لرفضهما الالتزام في ثيابهما بالطريقة التي تراها سلطات الأصوليين مناسبة ، وصُرفت ايضا معلمة مـن الخدمة اثناء فترة حملها ـ ويبدو أن الاسباب الكامنة وراء هذا التصرف أيضاً هي المحافظة الدينية وليس التعصب ضد عمل النساء لان البديلة كانت معلمة حامل أيضا ولكنها محافظة) .

اذا في نهاية الثمانينات ، لم يتمكن فلسطينيو ٤٨ من تشكيل جبهة سياسية موحدة مستقلة ، الا انهم اصبحوا بالتأكيد اكثر انغماسا في القضايا السياسية واكثر تنظيما عن اي وقت مضى خلال الاربعين عاما الماضية . ففي الانتخابات الوطنية التي جرت في تشرين الثاني عام ١٩٨٨ ، بلغت نسبة الاضراب العربي عن المشاركة ٦ر٧٥٪ بالمقارنة مع ٧٩٪ على مستوى القطر وهي أعلى نسبة الاضراب العربي التي حصلت في انتخابات عام ١٩٨٤ والبالغة ٧٢٪ . وارتفعت نسبة الأصوات العربية التي أيدت الاحزاب غير الصهيونية مثل : الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة ، القائمة التقدمية السلام ، والحزب الديمقراطي العربي ، من ٥٢٪ عام ١٩٨٤ الى ٦٠٪ عام ١٩٨٨ . بينما انخفضت نسبة الاصوات العربية المؤيدة للاحزاب الصهيونية أمثال : الليكود حزب العمل والمابام ، وحركة الحقوق المدنية ، والحزب الديني القومي من ٤٨٪ الى ٤٠٪ وحدث بين البدو ، الذين انخرطوا مؤخرا في النشاط السياسي الفلسطيني ، انقلاب ملفت للنظر ، فقد انخفضت نسبة الاصوات المؤيدة للأحزاب الصهيونية من ٩٠٪ عام ١٩٨٤ الى ٤٦٪ .

على الرغم من العداء بين القوى الفلسطينية المختلفة ، الا أن بعض المحللين السياسيين أمثال (روحانا) يرى شكلا من (الاجماع على الرأي) حول المواضيع الأساسية التي تعتبر أسسا مشتركة مثل : حق العرب بالتساوي مع المواطنين في اسرائيل . الغاء قوانين مصادرة الاراضي ، التوصل الى تسوية سلمية بين العرب واسرائيل تعتمد على مبدأ الانسحاب من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ، اقامة دولة فلسطينية تشمل القدس العربية ، اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد في محادثات السلام ، واخيرا التعاون مع القوى الداعية للسلام في المجتمع اليهودي .

على اية حال ، في نهاية الثمانينات اختلف الوضع الى حد كبير عما كان عليه ، منذ ثلاثين أو اربعين عاما ، حتى أن السلطات اليهودية الاسرائيلية اظهرت علامات تدل على الذعر . فعلى سبيل المثال . في

أول احتفالات جرت في ذكرى « يوم الارض » بعد الانتفاضة في آذار عام ١٩٨٨ حُجبت صحيفة الاتحاد عن الصدور لمدة أسبوع واحد ، وهي خطوة غير عادية ، بعد أن كانت هذه المعاملة مخصصة عادة لحركة ابناء البلد وغيرهم من المتطرفين .

الاتجاهات الشخصية ما بعد عام ١٩٦٧ :

واجه الفلسطينيون ، مع تطور الاتجاهات السياسية ، العديد من الاسئلة على المستوى الشخصي ، وخاصة فيما يتعلق بهويتهم وعلاقاتهم مع غيرهم من المواطنين : اليهود الاسرائيليين . وفي عام ١٩٨٢ ، قدم (روحانا) بحثاً يتضمن مثالا قوميا تصنيفيا حول آراء السكان البالغين ــ باستثناء الدروز والبدو ــ فكانت النتيجة التالية : اختار ٦٨٪ عبارة : عرب فلسطينيين أو فلسطينيين لوصف هويتهم الجماعية واختار ٦٪ عبارة فلسطينيين اسرائيليين ، واختار ٢ر١٨٪ عبارة اسرائيليين ، واختار ٩ر٦٪ عبارة عرب ، واختار ٥ر٠٪ فقط عبارة اسرائيليين . وبرزت الموضوعات حول الهوية والمستقبل في المباحثات الخاصة والمناقشات العامة .

فعلى سبيل المثال ، مع اقتراب نهاية الثمانينات اثارت (جمعية عرابا المستقبل) نقاشا حول (العرب اسرائيل ودورهم في الصراع الإسرائيلي ــ الفلسطيني) . وتعتبر هذه الجمعية واحدة من عشرات الأندية الثقافية الجديدة التي أنشأها فلسطينيو ٤٨ . تساءل الدكتور (شريف كنانه) رئيس مركز البحوث في جامعة بير زيت في الضفة الغربية (وهو شخصياً من فلسطيني ٤٨ من مواليد عرابا) ، عن سبب اعتبار الفلسطينيين داخل إسرائيل اقل اهمية بأي شكل من الأشكال عن إخوانهم في الخارج ، واستخلص قائلاً : (بادىء ذي بدء ، أنا لم أصبح إسرائيلياً باختياري أو بمحض إرادتي . ثانياً : ليس هناك دولة فلسطينية أختار الذهاب إليها أو البقاء في إسرائيل . ثالثاً : أنا فلسطيني مائة بالمائة ، وقضيتي لم تحل بعد) .

قال رئيس تحرير صحيفة (الاتحـاد) سالم جبران في مناقشته للموضوع :

(نحن نشارك في النضال الفلسطيني بصمودنا ، وبنضالنا من أجل المسـاواة ، وبتمسكنا بأرضـنا ، وبالتزامنـا القومي ، وبتفاعلنا مـع مؤيدي السلام من اليهـود وتعاوننا معهم ، وبسعينا من أجل تأسيس دولة فلسطينية جنباً إلى جنب مع دولة إسرائيل . وتبرز قيمة هـذا المكان الهـام بالشعب الفلسطيني ككل ، وعلى رأسه منظمة التحـرير الفلسطينية ، فالحجر الذي أهمله البناة قد أصبح بحق حجر الزاوية).

شعر (محمد ميعاري) من القائمة التقدمية للسلام في مقابلة مـع صحيفة (دراسات فلسطينية) بأن خياراته كانت واضحة : (عندمـا تتأسس دولة فلسطينية ، سنطالب بحقنا في حمل جوازي سفر : جواز السفر الإسرائيلي الذي سيوفر لنا حقوق الإقامة فوق أرضنا ، وجواز السفر الفلسطيني الذي سيحافظ على انتسابنا العرقي والقومي) .

(المجلد ١٤ ــ رقم ١)

وقام أيضـاً المربي الفلسطيني الراحـل الدكتور (سامي مرعي) بمعالجة السؤال التالي : (ماذا يحدث عندما يكون هناك سلام ؟) في مقال نشرته صحيفة (دراسات فلسطينية) عام ١٩٨٥ . وأجاب بنفسه عن سؤاله قائلاً : (من المحتمل جداً أن يتبعثر الإجماع الإسرائيلي في الرأي حول معاملة المواطنين العرب تحت ظروف السلام) . علاوة على ذلك ، وبما أن العـالم العـربي لن يبقى عـدواً لإسـرائيل ، سيتمكن الفلسطينيون مـن زيادة رؤوس أموالهـم لتحسـين حصصهم بشـكل جوهري ، وسيصبحون قادرين أيضاً على تحسين نوعية ثقافتهم وكل ما يتعلق بهذا الموضوع ؛ ولن يستطيع اليهود الإسرائيليون أن يعارضوا ذلـك .

(عندئذٍ ، لن يصبح بالإمكان تصنيف [العرب] «بالطابور الخامس» أو مجازفة أمينة ، ولن يخضعوا[1] بعد الآن ـ كما هي حالهم في الوقت الحاضر ـ إلى قوانين (دفاع) الطوارىء التي أدخلت إلى فلسطين للمرة الأولى من قبل الحكم الاستعماري البريطاني عام ١٩٤٥ ، وأبقت عليها إسرائيل بشكل قسري منذ عام ١٩٤٨) .

أما فيما يتعلق بهوية فلسطيني ٤٨ ، فقد قال مرعي : (يعتبر العرب في إسرائيل جزءاً مكملاً للشعب العربي الفلسطيني من ناحية ، وفي الوقت نفسه مجموعة تحافظ على الجنسية الإسرائيلية من ناحية ثانية) .

يؤمن معظم فلسطيني ٤٨ بأن الانتفاضة سوف تسفر في آخر الأمر عن إنشاء دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ولكن لم يبدِ أحدٌ من الذين قابلناهم من أجل هذا الكتاب أية رغبة في الانتقال والعيش في تلك الدولة . وعلق أحدهم مازحاً : (نحن الفلسطينيون الحقيقيون ، ولا نريد أن يأتي الفلسطينيون الأشكينازيون ليحكموننا)(١). وقال آخر :

(عندما كنت في الثامنة عشر من عمري كنت أعتقد بإمكانية حصولنا على دولة مستقلة هنا (في دولة إسرائيل الحالية) ، ولكنني أعلم الآن أن هذا الأمر غير واقعي ، فاليهود سيبقون هنا . ولكن من المحتمل قيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهي كما أعتقد نتيجة حتمية للانتفاضة . ولكنني لن أذهب بالضرورة للعيش فيها ، فإذا حصلنا هنا على حقوقٍ متساوية ، وإذا أمكننا أن نصبح وزراء ورؤساء وزارات ، فلن انتقل عندئذٍ إلى الدولة الجديدة) .

---

(١) اليهود الغربيون القادمون من ألمانيا وبولندا وروسيا ، والذين ابتكروا الحركة الصهيونية ، هاجروا الى فلسطين قبل اليهود الشرقيين الذين اغتاظوا منهم لتفوقهم في المجالين الاقتصادي والسياسي .

صرح طبيب من رام الله يبلغ الثلاثين من عمره :

(أنا لن اغادر مدينتي لأعيش في كنف الدولــة الجديدة ، وكذلك لا اتفق مع الأشخاص امثال أعضاء حركة أبناء البلد ، الذين يرفضون الاعتراف بوجود دولة إسرائيل ، إنها حقيقة مؤسفة يجب أن نتقبلهــا جميعاً ، وإذا لم نفعل ذلك ، فإننا نعطي اليهود عذراً جديداً لطردنا من ديارنا . الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله نحن فلسطينيي ٤٨ هو أن نحارب دون اللجوء الى العنف للحصول على حقوق متساوية . يسألني بعض اليهود إذا كنت سأوافق على تأدية الخدمــة العسكرية في الجيش الإسرائيلي في حال وجود دولة فلسطينية وسلام ؟ ما هو الجواب الذي أستطيع أن اقدمه على هذا السؤال ؟ في الوقت الحالي لا جواب عندي . ولكنني أعتقد انه يجب طرح هذا السؤال امام جميع الفلسطينيين ، ليس هنا فقط بل في أنحاء العالم) .

وهناك المتفائلون أمثال المدرس (عامر) من الناصرة والذي يبلــغ السادسة والأربعين من عمره إذ قال :

(لا أحد يعرف العقلية اليهودية كما نعرفها نحن فلسطيني ٤٨ ، ففي ما بين الضغوط التي نمارسها نحن على السلطات هنا ، والانتفاضة في الضفة الغربية وغزة ، سيجدون أنفسهم مجبرين على الاعتراف بنا كشعب ، ولن يستطيعوا أن يبقوا كالنعامات إلى الأبد) .

من ناحية أخرى ، ما تزال معظم المؤسسات الإسرائيلية اليهوديــة السياسية ترفض فكرة قيام دولة فلسطينيــة في الضفة الغربية وقطاع غزة كتسوية للنزاع العربي الإسرائيلي . وفي الوقت نفسه ، وبعد ظهور علامات انفصام الشخصية ، فهم يعيشون في حالة قلق من إمكانية إصرار فلسطيني ٤٨ في الجليل على الانضمام إلى الدولة الفلسطينية في حال قيامها . فعلى سبيل المثال : قــال (إيهود أولمرت) مستشار رئيس الوزراء (إسحق شامير) للشؤون العربية في حديث إلى صحيفة نيويورك تايمز في ١٨ حزيران عام ١٩٨٩ .

(يقول لي المستشارون المحترفون إنه في اليوم الذي تبدأ فيه فكرة إنشاء دولة فلسطينية باكتساب الشرعية ، سيبدأ العرب داخل إسرائيل بشن حملة للحصول على الحكم الذاتي ، ثم سيطالبون بالاتحاد مع الدولة الفلسطينية ؛ عندئذٍ سنواجه مشكلة حقيقية ، أو ما يسمى بحالة طوارىء قومية) .

بعد انفجار الانتفاضة تحدث (إيلي ريخز) من مركز دايان في جامعة تل ابيب الى صحيفة (جيروزالم بوست) في ١٣ نيسان عام ١٩٨٨ أنه منذ إعادة فتح (ملف ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨) : (فإن الأحداث التي جرت في الضفة الغربية وغزة قد زادت من عدد الإسرائيليين واليهود والعرب على حد سواء الذين يعيدون النظر في خطة التقسيم التي طرحت عام ١٩٤٧ باعتبارها حلاً ممكناً) ؛ ــ والتي تنص على ضم الجليل الى الدولة الفلسطينية ــ . ومع ذلك شعر بأن لهجة المظاهرات الهادئة في يوم الأرض في آذار ١٩٨٨ كانت إشارة طيبة : (من الواضح انه لا يمكنك أن تمحو في ساعة واحدة الاربعين عاماً من التعايش بين اليهود والعرب داخل إسرائيل . إذ تسير عملية « الفلسطنة » جنباً إلى جنب مع عملية « التهويد » . وما يزال الاتجاه الرئيسي للصراع السياسي ينحصر ضمن حدود القانون وداخل النظام النيابي) .

ادت الانتفاضة بالتاكيد الى انتشار الاضطراب بين الفلسطينيين الإسرائيليين ، وتحدث عن ذلك رئيس لجنة المتابعة حول الثقافة العربية، والمحاضر في جامعة حيفا (ماجد الحاج) الى صحيفة (جيروزالم بوست)، الصادرة في ١٦ حزيران عام ١٩٨٩ ، ونشر الحديث ثانية في الرسالة الإخبارية لصحيفة الهدف في تموز ــ آب عام ١٩٨٩ : (إننا نقف الآن على الخط الأخضر ، قبل الانتفاضة لم يكن من السهل أن نوازن بين العنصرين الرئيسيين لهويتنا ، ولكنه كان امراً ممكناً . وعندما اتت الانتفاضة عملت على تعميق المواجهة بين هذين العنصرين) .

وضح (الحاج) ، على نقيض ما قاله (ريخز) ، بأن الهدوء الذي خيم على المتظاهرين الفلسطينيين في يوم الارض عام ١٩٨٨ يدل على انهم

يمرون بمرحلة استبطان ، ورأى بأن التوتر بين هويتهم كفلسطينيين وكمواطنين إسرائيليين قد اخذ يتفاقم : (تواجه العرب مشكلة متزايدة وهي إيجاد توازن بين عنصر القومية وعنصر الجنسية ، إننا نقف على سطح مزدوج) . وأشار ، من ناحية ، بأن العرب الإسرائيليين لم يشاركوا في الانتفاضة بشكل مباشر ؛ وواجهوا ، من ناحية ثانية ، مشاكل اقتصادية في وطنهم ، زاد من تفاقمها انتشار البطالة على نطاق واسع : (وربما كان جو الكراهية السائد هو الأكثر ضرراً ... حيث أصبحت صيحات : « الموت للعرب » ، والنداءات بنقل العرب من الجليل الى وسط البلاد أو خارج إسرائيل كلها ، أشياء مألوفة) .

يتركز السؤال الرئيس الذي يدور في خلد فلسطيني ٤٨ حول الشكل الذي ستؤول إليه دولة إسرائيل نفسها حالما تتشكل دولة فلسطينية . كتب حول ذلك (جيريس) عام ١٩٧٩ : (إن مشكلة العرب في إسرائيل ليست جديدة ، بل تمثل ، ومنذ وجود دولة إسرائيل ، استمرار وضع غريب من القضايا لم يقبل فيه كل طرف الطرف الآخر بأي حال من الأحوال) . وتجلى عجز الدولة اليهودية عن تقبل وجود العرب كمواطنين يتمتعون بالمساواة والاعتراف بحقوقهم ، في قيامها بتعديل القانون الأساسي عام ١٩٨٥ المذكور أعلاه ، والذي يتضمن منع المرشحين من الاشتراك في الانتخابات إذا رفضوا (الاعتراف بوجود دولة إسرائيل على أنها دولة الشعب اليهودي) . ومن الجدير بالذكر أن الاقتراح العربي القاضي بتعديل تلك العبارة لتصبح على النحو التالي : (دولة الشعب اليهودي ومواطنيها العرب) قد قوبل بالرفض ، وما يزال اليهود يفهمون من كلمة إسرائيل : الدولة اليهودية فقط ، على عكس المواطنين العرب في إسرائيل .

وكتب (روحانا) حول هذا الموضوع الذي أصبح قضية رئيسة :

(تدل التطورات الأخيرة في ساحة الصراع الفلسطينية ــ التي يشعر تجاهها الفلسطينيون في إسرائيل بالحساسية الشديدة ــ أن سلسلة

الحلول الكاملة التي يؤيدهـا الفلسطينيون تتضمن التقسيم بشكل أو بآخر ، الأمر الذي يعني بأن هؤلاء العرب سيبقون مواطنين في إسرائيل بغض النظر عن الحل السياسي الذي سيتم التوصل إليه . وفي هـذه الحالة ، لن تكون هويتهم الحالية « كفلسطينيين في إسرائيل » كافية ، بل سيواجه النظام الإسرائيلي المزيد من الضغوط لاتخـاذ التعديلات المناسبة لاستيعاب مواطنيه الفلسطينيين . وسيتطلب هذا إعادة صياغة إسرائيل على أنها دولة قومية ، تبنى على أساس الجنسية الإسرائيلية (لجميع المواطنين في إسرائيل) وليس الجنسية اليهودية (تشمل جميع المواطنين اليهـود في الدول الأخرى وتستثني المواطنين غـير اليهود في إسرائيل) . ولكن في حال طالبت الأقلية العربية وبشكل فعـال بإعادة الصياغة هذه ، عندئذٍ ستجبر إسرائيل على مواجهة تفاهة الإجـراء الحالي تجاه مواطنيها العرب) .

(١٩٨٩ – ص ٤٦٠)

قام الكاتب الفلسطيني الإسرائيلي (أنطون شماس) في وقت سابق بتوضيح مجرى النقاش هذا ، عندما أذهل جمهور القراء في إسرائيل بإصدار روايته الأولى (الأرابيسك) باللغة العبرية وبأسلوب أكثر فصاحة من أسلوب اليهود ، كما ذكر بعضهم . وفي مقالة مطولة نشرت في مجلة (نيويورك ريڤيو أڤ بوكس) بعنوان : «صبيحة إعلان دولة فلسطينية»، حاول (شماس) أن يبرهن أن كلاً من إسرائيل وفلسطين ستصبحان دولة لمواطنيها . فبعد أن تفتح الدولة الفلسطينية أبوابها أمام جميع الفلسطينيين الذين يرغبون بالعودة لفترة زمنية محددة ، يجب أن تلجأ بعد ذلك الى تطبيق قوانين الهجرة ذاتها على الفلسطينيين وغيرهم من الذين يرغبون بالإقامة فيها . وينطبق الشيء نفسه على دولة إسرائيل التي يجب أن لا توافق بعد ذلك على هجرة اليهود غير المحدودة . وأكد شماس أن دولة إسرائيل يجب أن تولد ، فحتى الآن يوجد في إسرائيل يهود وعرب فقط (كما يبدو من بطاقاتهم الشخصية) وليس مواطنين إسرائيليين . ولن يبدأ وجود دولة إسـرائيل بشكل فعلي حتى تصبح

دولة ديمقراطية حقيقية لجميع مواطنيها ، بدلاً من (دولة يهودية) يتمتع فيها اليهود بالأفضلية .

وحدهم فقط فلسطينيو ٤٨ الذين يستطيعون السعي لتغيير النظام الإسرائيلي الراهن ، ولا بد من مضي بعض الوقت قبل أن يتعلموا أن يعقدوا صلحاً بين الآراء السياسية المتضاربة ، والعمل بيد واحدة في القضايا القومية . وكما قال (روحانا) بالتأكيد : (لقد وصل العرب في إسرائيل الى مرحلة لم يعد بالإمكان تجاهلهم سواء من قبل الإسرائيليين أو الفلسطينيين) .

ربما ليس من الصعب أن نتخيل زمناً تتعلم فيه القوى السياسية المختلفة كيف تشترك سوية للعمل في القضايا القومية تماماً كما تفعل اللجنة الإقليمية لرؤساء المجالس العربية المحلية تجاه القضايا الاجتماعية والاقتصادية . عندئذٍ سيتمكنون ، بالاقتران مع بعض الأحزاب الإسرائيلية اليهودية ، من تشكيل قوة أكبر تكفي لدفعهم في طريق تغيير وضعهم كمواطنين في إسرائيل . وربما سيملكون أيضاً القوة لدفع مسيرة السلام من خلال الكنيست الأمر الذي سيؤدي الى تأسيس دولة فلسطينية ويضع نهاية لعذاب الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال وفي المنفى أيضاً . عندها فقط سيصبح فلسطينيو ٤٨ بحق حجر الزاوية في دولة كهذه من خلال كونهم مواطنين فعالين في إسرائيل ، وبقائهم كذلك حتى الآن .

* * *

الفصـــل الثـــاني

المحافظـة على الوجــود

(حان الوقت لاولئك الذين يرغبون ان يعيشوا في ســلام ان يكفتوا عن تعصبهم العنصري ولو قليلاً ، وان يمارسوا العدالـة ولو بعض الشيء .)

((جمعية عرب يافا))

فقد فلسطينيون ٤٨ الجزء الأكبر من اثمن ما كان لديهم ، الا وهي الأرض ، وذلك خلال الفترة التي كانت فيها المدن والقرى العربية تحت الحكم العسكري الإسرائيلي منذ عـام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٦ . وكما اشار (توما) عام ١٩٨٥ : (فقد وضعت إدارة الأرض الإسرائيلية يدها تدريجياً على اكثر من ميلون دونم من الأراضي التي يمتلكها المواطنون العرب في إسرائيل ، فانخفضت بذلك الملكية العربية للأرض الى حوالي دونم واحـد للشخص ، في حين كانت تبلغ حوالي ستة عشـر دونماً للشخص الواحد في فترة الانتداب البريطاني) وما تزال عملية اغتصاب الأراضي مستمرة حتى يومنا هذا ، ولكن ليس على ذلك النطاق الواسع، (والسبب ببساطة هو انه لم يعد بحوذة العرب الكثير من الأراضي) . وكانت عملية الاغتصاب تترافق مع اتخاذ إجراءات معينة تهدف الى تفريق التجمعات السكانية العربية وذلك ببناء مستوطنات يهوديـة في مناطق استراتيجية .

في العقدين الأوليين لم يكن بوسع العرب أن يفعلوا سوى القليل لإيقاف الاغتصاب الإجمالي لأراضيهم ، كما سنرى بعد قليل ، ولكن كما سيبدو لاحقاً في هذا الفصل ، بدأ العرب بعد عام ١٩٧٦ وبعد يوم الأرض بالنضال للمحافظة على النذر اليسير المتبقي .

لجأت الدولة اليهودية في اغتصابها للأراضي الفلسطينية الى استخدام سلسلة من القوانين ، بدءاً بقوانين الطوارىء البريطانية التي كانت سارية أثناء فترة الانتداب . ويعتبر (قانون ملكية الغائب) الصادر عام ١٩٥٠ من أكثر القوانين احتيالاً في هذا المجال ، إذْ تمّ بموجبه تحويل ملكية الغائبين الى القيّم . وتشمل « ملكية الغائب » الأملاك التي تعود الى ٧٠٠,٠٠٠ لاجىء فلسطيني أجبروا على الهرب أثناء حرب ١٩٤٨ عندما تحولت فلسطين الى إسرائيل ؛ بالإضافة الى أملاك تعود الى ٣٠,٠٠٠ شخص فرّوا من مكان الى آخر داخل إسرائيل . يستطيع القيّم بعد ذلك أن يبيع الأملاك الى (سلطة التنمية) التي أُسست عام ١٩٥٠ ، والتي كان يعود لها فقط الحق في تحويل تلك الأراضي الى الحكومة . وبحلول عام ١٩٥٣ تحولت جميع الأملاك المتبقية بحوزة القيم الى (سلطة التنمية) .

ولجأت السلطات أيضاً الى استخدام قانون يسمي المدن والقرى الفلسطينية (مناطق مغلقة) أو (أحزمة أمان) تحت الحكم العسكري ، الأمر الذي يعني حرمان المزارعين الفلسطينيين من الوصول الى أراضيهم وفلاحتها ؛ وكان مصير الآلاف الذين حاولوا خرق هذا القانون تحويلهم الى المحاكم وتكليفهم بالغرامات . وعندما تصبح الأرض مهجورة ، تضع الدولة يدها عليها وفق (قوانين الطوارىء ــ حراثة الأراضي البور) ، الصادر عام ١٩٤٨ .

كتب (نقارة) في دراسة تفصيلية :

(أسفرت هذه القوانين والأنظمة عن تحويل ممتلكات العرب الغائبين من قبل القيّم ، بالإضافة الى ممتلكات ما يسمى بالغائبين ــ

الحاضرين ، من مواطني الدولة الإسرائيلية ، الى سلطة التنمية . وقد تحول بهذه الطريقة أكثر من ٤٫٥٠٠٫٠٠٠ دونم من الأراضي المزروعة ، من أصل ١٦٫٣٢٤٫٠٠٠ دونم (تشمل القسم الأكبر من أراضي النجف) من املاك العرب المهجورة) .

فيما بعد أعلن وزير المالية بكل بساطة ، ووفق قانون اغتصاب الأرض لعام ١٩٥٣ ، أن أية (منطقة مغلقة) أو أرض (بور) ليست في حوزة مالكيها حتى تاريخ ١ نيسان عام ١٩٥٢ ، أو استعملت لأغراض تنمية أساسية فيما بين ١٤ أيار عام ١٩٤٨ و ١ نيسان عام ١٩٥٢ أصبحت حقاً مكتسباً (لسلطة التنمية) . قال (نقارة) : (أصدر وزير المالية ٤٦٥ شهادة في عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ يصادر بموجبها ١٧٤٫٢٢٥٫١ دونماً من أراضي العرب ، وتشمل عشرات القرى العربية التي تمّ إخلاؤها بسبب الأعمال العسكرية ، بالإضافة الى مساحات واسعة من أراضي قرى أخرى مأهولة بالسكان) .

اعترض العرب على تلك القوانين ، إلا أن اعتراضاتهم بقيت حبراً على أوراق مكدسة . فعلى سبيل المثال ، في عام ١٩٥٤ رفضت المحكمة العليا التماساً قدمه ملاّك عربي اعتراضاً على قانون « استملاك » ارضه من قبل سلطة التنمية الإسرائيلية . تعني هذه السابقة بأن قرارات وزير المالية لم تعد خاضعة اللجوء الى القضاء ، وانتقد يهود أيضاً في ذلك الوقت تلك القوانين بشدة . يقتبس (نقارة) حديث رئيس تحرير صحيفة (ماريف) الذي كتب في ٢٥ كانون أول عام ١٩٥٣ (ص ٢٤٠) :

(احتشد في الكنيست كل من اشترك في السرقة .. لقد اغتصبت الأرض .. من قبل إدارات الحكومة ، والمباي ، والمابام والأحزاب الدينية .. جميعهم اشتركوا في السرقة . اجتمعوا ليقولوا : (قد اعتدنا على هذه الارض ، ولا نريد أن تزعجنا المحاكم وتمنعنا من زراعتها ، تعالوا لنوجد قانوناً ..) ولن يكون القانون ساذجاً لينحني أمام (رغبات) العرب ، بل يبدل حقوقهم المشروعة في أملاكهم دون أن

يشركهم في الأمر ، ويذهب أكثر من ذلك فيمنح الملاكين العرب تعويضات لا تدخل جيوبهم) .

(من الجدير بالذكر أن اليهود أيضاً انتقدوا بشدة قوانين طوارىء عام ١٩٤٥ بعد أن أصدرها الانجليز وعندما تم تطبيقها على العربي واليهودي على حد سواء . صرح الدكتور (موشيه دنكلبوم) الذي أصبح فيما بعد قاضي المحكمة العليا في اسرائيل بما يلي : (تحد قوانين الطوارىء حقوق الفرد وتمنح الادارة سلطة غير محدودة) . وقال الدكتور (يعقوب شابيرا) الذي أصبح فيما بعد وزيراً للعدل : حتى في المانيا النازية (لم تكن توجد مثل تلك القوانين) . ولكن كل ذلك لم يمنع الحكومة اليهودية الجديدة من الإبقاء على مثل هذه القوانين نافذة ، ضد الفلسطينيين في إسرائيل بادىء الأمر ، ثم ضد الفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة .

لم تنحصر خسارة فلسطيني ٤٨ بفقدانهم الجزء الأكبر من أراضيهم فحسب ، بل إنهم لا يأملون في يوم من الأيام بشرائها أو حتى استئجارها ، على الرغم من أنهم مواطنون في دولة اسرائيل . فوفق قانون (الدولة الأساسي ، فقرة أراضي إسرائيل) : تعتبر الاملاك اليهودية غير قابلة للتحويل ، ولا يمكن أن تباع الا الى اليهود ، ولا يحق سوى العامل اليهودي أن يعمل فيها . ولكن في الستينات بدأ الجزء الثاني من تلك العقيدة يتعرض للاهمال ، وذلك عندما ظهرت الحاجة الى العامل العربي . ولكن الدولة بقيت دائما على حذر لمنع عودة الاراضي التي اكتسبتها الى أصحابها العرب . وذكر (زريق) إنه في منتصف الستينات أصبح واضحاً أن العديد من المستوطنيين أخذوا ينجذبون الى المراكز الحضرية ويؤجرون الاراضي للعرب ، مما حث السلطات على اصدار قانون الاستيطان الزراعي عام ١٩٦٧ للحد من خطر إعادة الأرض الى حوزة أصحابها العرب الفلسطينيين .

المعركة من أجل الجليل :

بقيت مرتفعات الجليل بشكل خاص مكتظة بالعرب الذين يشكلون حوالي نصف سكان المنطقة على الرغم من الاغتصاب الهائل للاراضي والتوجه المتزايد نحو الاستيطان ، الامر الذي أثار قلق الدولة اليهودية منذ البداية . قال رئيس بلدية الناصرة (توفيق زياد) عام ١٩٧٦ : (قام بن غوريون ، المؤسس الاول لدولة اسرائيل ، بجولة في الجليل وصرح بلهجة عنصرية غاضبة : كل من يتجول في الجليل ينتابه إحساس بأنها ليست جزءاً من اسرائيل) . لان اغلبية السكان من العرب .

نشرت صحيفة الفجر في ١٢ حزيران عام ١٩٨٨ رواية مختلفة عن تلك الحادثة :

(قام بن غوريون بجولة في الجليل ، بينما كان يعبر الطريق بين عكا وصفد مر بقرى عربية وسأل عن اسمائها ، وعندما قيل له إنها : مجد الكروم ، ومكير ، ودير أسد ورامة ، ذكر أنه اجاب : « أسافر داخل سورية »! وأصدر على الفور أوامره ببناء مستوطنة الكرمل في المنطقة) .

وتم فيما بعد تشجيع البرامج المختلفة الهادفة الى « تهويد » الجليل ، وكتب (جيريس) يشرح خطة اسرائيلية مبكرة :

(في البداية كان يدعى بمشروع « تهويد الجليل » ، ثم وُصف فيما بعد بمشروع « تطوير الجليل » . وكان الهدف تمزيق الكثافة المرتفعة لسكان العرب في تلك المنطقة وذلك لتسهيل الهيمنة عليها . وتمت مصادرة المزيد من الأراضي العربية لتنفيذ هذه الخطة ، وأشيدت ثلاث مدن جديدة ، الأولى : الناصرة العليا بجانب الناصرة ، والثانية : الكرمل ، وتقع على الطريق الرئيسي بين عكا وصفد . والثالثة : معالوت، بجانب ترشيحا في الجليل الغربي .

ومنذ عام ١٩٥٧ وحتى اندلاع حرب حزيران عام ١٩٦٧ بذلت السلطات الاسرائيلية جهودا جبارة لتقوية تلك المدن وزيادة عدد سكانها. إلا أن أهدافها في هذا المجال لم تتحقق الا قليلا ، واصبح واضحاً أن هذه المدن ، بدلا من ان تضفي السمة اليهودية على تلك المنطقة ، أصبحت نوعاً ما مراكز للسكان العرب ، وذلك بسبب توجه أعداد كبيرة من العرب للعمل فيها فسيطروا بذلك على قوة العمل المهنية) .

أولت الحكومة اليهودية مزيداً من الاهتمام الى (مشكلة) الوجود الفلسطيني الضخم ، وقد حثها على ذلك سيطرة الحزب الشيوعي على مجلس بلدية الناصرة عام ١٩٧٥ ، ومظاهرات يوم الاض عام ١٩٧٦. وظهر هذا التفكير واضحاً في مذكرة (كوينغ) عام ١٩٧٦ التي أوصت باجراءات عدة لاحتواء مشكلة السكان العرب ، ومن هذه الإجراءات الاسراع في استيطان الجليل . كان (اسرائيل كونيغ) حاكم المنطقة الشمالية لمدة ثلاثة عشر عاماً حيث يقطن حوالي نصف فلسطيني ٤٨ ؛ وكان على اطلاع جيد على الوضع في الجليل . كتب (الزياد)بلهجة غاضبة عام ١٩٧٦ :

(انها وثيقة عنصرية قدمهاكاتبها كبرنامج عملللسلطاتالاسرائيلية بخصوص السكان العرب ، ونورد فيما يلي عدداً من الافكار الرئيسية من هذه الوثيقة : ١ــ انها تصف العقلية العربية بأنها عقلية شرقية وسطحية ومتخلفة . ٢ ــ (توصي) بالتشدد في استعمال السيطرة القوية ضدهم عن طريق رجال الشرطة والجيش والمعتقلات . ٤ ــ تسعى لتأسيس جهاز مخابرات متخصص للتجسس على القادة . ٥ ــ تسعى الى فرض إجراءات صارمة ضد زعماء الطلبة ، واغلاق أبواب الجامعات في وجه الطلاب العرب ، لوضع العقبات في طريق حصولهم على الثقافة العامة ، وفي الوقت نفسه العمل على تسهيل هجرة الناشئة العرب من البلاد ومنع عودتهم اليها ... ٧ ــ تؤيد مبدأ فرض ضرائب وغرامات كبيرة على السكان العرب لتجريدهم من حريتهم المالية وسلبهم طاقتهم الاقتصادية التي تساعدهم على رفع مستواهم المعيشي ..) .

وفي الثمانينات استمرت النداءات المؤيدة لتهويد الجليل الامر الذي يدل على فشل الحكومة اليهودية في هذا الخصوص . فعلى سبيل المثال ، كتب (دافورا بن شاؤول) في مقال نشرته صحيفة (جيروزالم بوست) في عددها الصادر في ٢ حزيران عام ١٩٨٦ :

(تعتبر اسرائيل دولة يهودية ، ولكن في بعض المناطق الواسعة من البلاد يعد اليهود أقلية . ففي مرتفعات الجليل يشكل اليهود بالكاد ٢٠٪ من العدد الاجمالي ، أما في المنطقة الممتدة من وادي جيزريل الى الحدود اللبنانية فتصل النسبة الى ٥١٪ من عدد السكان ... فإذا لم تتلق الجليل معاملة تفضيلية من اجل الاستيطان اليهودي والجهد القومي ، من المحتمل أن نجد ، وبعد سنوات قليلة ، أن الغالبية العظمى من سكان المنطقة يطالبون « بحقوقهم » كفلسطينيين) .

اشارت (ياكوث فريدلر) في مقالة سابقة نشرت في ١٥ أيار عام ١٩٨٨ الى فشل المستوطنات التي انشئت في احتواء فلسطيني الجليل :
(كان الهدف من المستوطنات الثلاثين التي انشأت منذ عام ١٩٧٩ كنقاط مراقبة هو جلب المزيد من اليهود الى الجليل التي يتساوى فيها عدد السكان من اليهود والعرب على حد سواء ؛ بالاضافة الى أنها صممت لتكون مواقع مراقبة لليهود على العرب ولتشكل خطاً من المستوطنات لاحتواء توسع القرى العربية . الا أن مئات الآلاف من أشجار الزيتون ، التي زرعها القرويون هي التي تحتوي الآن مواقع المراقبة تلك) .

إن (الاهتمام) اليهودي « بالقنبلة السكانية » الفلسطينية أو « المعضلة السكانية » الناجمة عن التزايد السريع لعدد السكان العرب في إسرائيل يثير قلق فلسطيني ٤٨ ؛ وكذلك النداءات التي اطلقها (الحاخام مير كاهانا) وغيره والتي تدعو الى (نقلهم) طوعاً أو كرهاً من مكان الى آخر داخل إسرائيل ، أو خارجها ككل .

ويشعر العديد من العرب أن هذه الآراء هي سبب الادعاءات المتكررة بأن فلسطيني ٤٨ يشاركون بشكل متزايد في النشاطات المعادية للدولة ،

وخاصة منذ اندلاع الانتفاضة . فقد وجهت إليهم اتهامات بقذف الحجارة وقنابل البنزين ، ورفع العلم الفلسطيني ، والاضطلاع باندلاع الحرائق في الغابات الاسرائيلية في صيف عام ١٩٨٨ . نشرت صحيفة (نيويورك تايمز) في ١٨ حزيران عام ١٩٨٩ تعليقا لعبد الوهاب دراوشة يقول فيه : (إنهم يريدوننا أن نكون أكثر عنفاً ، ويساعدهم كل هذا الكلام على تبرير نظريتهم بأن العرب لا يمكن أن يكونوا موضع ثقة) .

وقبل ذلك ، في آذار عام ١٩٨٨ ذكرت الرسالة الاخبارية لصحيفة « الهدف » بأن القصص المنسوجة حول قيام الفلسطينيين برفع الأعلام وقذف قنابل البنزين وغيرها (مبالغ فيها الى حد كبير) :

(انظر الى المقالة التي نشرتها صحيفة « هآرتس » : لا يوجد في أم الفحم مكتبة لكي يرسم على جدارها العلم ، ولا يوجد أيضاً علم على مبنى البلدية . ولا تتعدى « الأعلام » الموجودة في المدينة ، بعض الرسوم البسيطة التي تتألف من ثلاثة خطوط سوداء أفقية ومثلث أسود رسمت دون عناية ــ دون أي أثر للون الأخضر او الأحمر . تحاول صحيفة « هآرتس » أن ترسم صورة قاسية عن سكان مدينة أم الفحم) .

تابعت الرسالة الاخبارية تقول :

(يسود إحساس قوي في أم الفحم بأن تلك التقارير المبالغ فيها تدل على أن السلطات تخطط لعمل ما في وادي آرا وترغب بتبريره مسبقاً أمام الشعب الاسرائيلي ، وذلك باقناعه بأن المدينة والقرى المحيطة بها ما هي إلا مناطق غير مجدية . ولا يمكننا أن نتجاهل إمكانية عزم الحكومة على التحضير لاعادة إدخال الحكم العسكري ، كما طلب في الكنيست في كانون الأول . في غضون ذلك ، أعلن كل من وزير الاسكان (ديفيد ليفي) ورئيس قسم الاستيطان (ماتي دربلز) عن انشاء ثلاث مستوطنات جديدة في منطقة وادي آرا ، الأولى : عند نقطة اتصال مجيدو في أعلى الوادي ، والمستوطنتين الأخريين بجانب مدينة أم الفحم . وتضاف هذه المستوطنات الثلاث الى سلسلة المستوطنات غير المكتظة التي تمتد على

طول الجبال على جانبي الوادي ، والمزودة بأجهزة هاتف كاملة ونظام مجارير وطرق معبدة حديثاً ــ على عكس التجمعات الفلسطينية التي تخضع دائما لمراقبتهم الصامتة) .

السيطرة من خلال التطور :

تواصلت أيضاً عملية سلخ العرب الفلسطينيين عن أرضهم عن طريق تطوير المناطق اليهودية والاعاقة المقصودة لتطوير المناطق العربية ، سواء في الجليل أو في أي مكان آخر . في عام ١٩٧٨ أشار كل من : الرزاق وأمين وادفيس : (بأنه لا يوجد قرية عربية واحدة في اسرائيل مصنفة كمستوطنة متطورة ، وبالتالي لا يحق لأية قرية عربية أن تحصل على الامتيازات الهائلة التي تمنحها الحكومة للمستثمرين الراغبين بتأسيس الشركات والمعامل في المنطقة ؛ بل يقتصر هذا الامتياز حصرا على المستوطنات اليهودية) .

وتابعوا حديثهم مستشهدين بمثال من الاتجاه الاستيطاني في الجليل :

(ويوجد في مناطق « دير الأسد » و « بينا » و « نحف » حالة نموذجية وثيقة الصلة بالموضوع ، فبين عامي ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ تمّ استملاك أراضي تلك القرى الثلاث بهدف تأسيس مدينة الكرمل اليهودية حصراً ، وصنفت هذه المدينة كمنطقة متطورة من الدرجة (آ) . وتعهدت الحكومة بتأسيس قاعدة صناعية متقدمة ورفيعة المستوى في الكرمل أطلق عليها اسم « ميدان الكرمل الصناعي » . ويحصل المستثمرون في الكرمل على دعم كبير لتأسيس شركاتهم ، وتمنح الشركات الكبرى اعانات سخية وتنازلات ضريبية لتشجيعهم على تحويل مصانعهم من المناطق الوسطى في السهل الساحلي من البلاد الى الكرمل . وتقدم الحكومة بشكل مشابه الى المستوطنين المرتقبين في المدينة قروضاً ومنحاً سخية وشققاً للبيع أو الايجار ، الخ .. وتقتصر هذه الامتيازات على الكرمل فقط ، أما القرى العربية المجاورة فلم تصنف بالطبع كمستوطنات

متطورة . بالاضافة الى ذلك ، لا يسمح لأي مستثمر عربي أن يؤسس معملا أو يشتري بيتاً في الكرمل . وعلى الرغم من أن عدد سكان تلك القرى الثلاث : دير الأسد وبينا ونحف ، يتجاوز عدد سكان الكرمل ، الا أنها لم تخدّم كهربائياً حتى الآن ، بعد ثلاثين عاما مضت على تأسيس الدولة اليهوية) .

قال الزياد معترضاً :

(لنلقي نظرة فا حصة على الحقائق المؤلمة : ما تزال المساحات الواسعة من الأراضي المغتصبة ، والتي كانت مزروعة حتى تاريخ اغتصابها ، دون فلاحة حتى الآن بسبب نقص الطاقة البشرية « اليهودية » . إذ يفضل إبقاؤها قاحلة على إعادتها الى أصحابها العرب . ولا يوجد في كافة المدنوالقرى العربية أي نوع من أنواع الصناعة على الاطلاق . فعلى سبيل المثال ، يبلغ عدد سكان الناصرة (٤٥٠٠٠) نسمة وتعتبر أكبر مدينة عربية في اسرائيل ، ولا يوجد فيها معمل واحد ؛ فخلال السنوات الأولى من تأسيس دولة إسرائيل تمت تصفية المعامل التي كانت موجودة في الناصرة أثناء فترة الانتداب البريطاني . أما في مدينة الناصرة العليا اليهودية حصراً ، والتي يبلغ عدد سكانها (١٦٠٠٠) نسمة ، يوجد عشرات المعامل ، يعتبر بعضها الأكبر في مجال إنتاجها : كصناعة النسيج . والأغذية ومعامل تجميع السيارات ، وتمّ اغتصاب الأراضي من عرب الناصرة لبناء مدينة يهودية ، فيتحول بذلك عرب الناصرة مع مرور الوقت الى القسم المهمل من المدينة اليهودية) .

لقد استبعد الفلسطينيون بالطبع من الاستفادة من مؤسسات التنمية الكبيرة كالصندوق القومي اليهودي الذي يستهدف فقط مساعدة اليهود . فتحول القسم الأكبر من العمال الفلسطينيين ، بعد أن جردّوا من الأراضي وحرموا من التطور ، الى عمال متنقلين لقاء أجر يومي . كتب (الزياد) حول ذلك :

(إن الوضع في القرى العربية أسوأ من ذلك . إذ يسافر حوالي ٦٠٫٠٠٠ عامل من أصل ٨٠٫٠٠٠ كل صباح من مدنهم وقراهم للعمل في المدن والمستوطنات اليهودية ، ويعودون مساء الى منازلهم . ويعتبر هؤلاء العمال أن مدنهم وقراهم ما هي سوى مكاناً للسكن ، وتنحصر « صناعتهم » المثمرة في خلق وتزويد الطاقة البشرية) .

بما أن القسم الأكبر من فلسطيني ٤٨ يعيشون في القرى ، فقد وصفت (مخول) وضعهم : (بالانتقال الى مرتبة العمال والاستغناء عن التمدن لأنهم أصبحوا عمالا صناعيين يتنقلون يومياً بين أماكن إقامتهم الريفية وأماكن عملهم في المدينة .) واستشهدت بدراسة شاملة جرت عام ١٩٧٤ لتظهر الوضع الذي كانت عليه (طبقة العمال) الفلسطينيين : هناك ٢٣٫١٠٠ شاب يعملون بكفاءة في الصناعة والبناء والنقل ، ٩١٫٧٪ منهم لا يعمل آباؤهم في المهن ذاتها ؛ ويعمل ٩٠٠٠ شاب في الزراعة ، ٨٠٪ منهم لا يعمل آباؤهم في الزراعة .

كتب (الخالدي) عام ١٩٨٤ يصف الصناعة الفلسطينية الموجودة :

(في عام ١٩٧٤ ، ووفق أفضل التقديرات ، كان هناك ٥٩ مؤسسة صناعية فقط في المناطق العربية ، يشارك العرب في قسم من ملكيتها ، ولا يتجاوز عدد العمال في كل منها ثلاثين عاملا ؛ بينما يصل في قليل منها الى ١٥٠ ـ ٢٠٠عامل ، يعملون في مجال الرخام والمعادن . وفي افضل الحالات لا نجد في هذه الشركات أكثر من خمس الصناعيين العرب . تقوم هذه المعامل غالبا بإنتاج الملابس والنسيج ، بالاضافة الى بعض التوسع الذي حصل مؤخراً في الصناعة الكيميائية البسيطة وصناعة الأغذية . وتعتبر هذه المعامل الموجودة في المناطق العربية بشكل عام فروعاً من مؤسسات صناعية إسرائيلية كبرى . يضاف الى ذلك انشغال القرى العربية ببعض الحرف المعينة : كالنجارة المحدودة ، والحدادة والخياطة واصلاح السيارات وبعض الورشات لصغيرة الأخرى) .

اقتصرت الكثير من العقود الفرعية اليهودية المبرمة في المناطق العربية على استخدام العامل الفقير الثابت ، فحصلت النساء الفلسطينيات

على الاولوية في هذا المجال . أضاف الخالدي يقول : (في عام ١٩٨٢ أجري بحث شامل لقائمة تضم ما ينوف على ٥٠٠٠ مشروع تجاري مسجل في اسرائيل ، وكانت النتيجة عدم الحصول على شركة واحـــدة تعود ملكيتها الى العرب أو تأسست في منطقة عربية) .

الخطوات الأولى على طريق الصمود :

كيف تمكن فلسطينيو ٤٨ من المحافظة على ما تبقى بين أيديهم من أساس ثرواتهم بعد ادراكهم لوضع شؤونهم الذي قطع فيه كما يبدو كل طريق يؤدي الى التطور الذي يعتمد على الذات ؟ بدؤوا في السبعينات يحشدون قواهم ببطء ولكن في الواقع لم تبدأ الجماعة بتشكيل قوة فعالة قبل بداية الثمانينات عندما بدأ الصراع بشكل جدي للمحافظة على شيء من السيطرة على الموارد المتبقية .

عند هذه النقطة ، شـــعر فلسطينيو ٤٨ بضرورة تحديد المشاكل التي تعترضهم وفق تقديراتهم الخاصة ، أي بالاعتماد على معلوماتهم الشخصية وتحليلهم للوضع بدلا من الاتكال على المصادر اليهودية . لذا بدؤا بعقد العديد من المؤتمرات التي تبحث في مواضيع مختلفة : في عام ١٩٨٤ عقد المؤتمر الاقليمي الأول حول الثقافة في القطاع العربي ، وفي عام ١٩٨٦ حول الصحة ، وفي عام ١٩٨٧ حول الأوضاع الاجتماعيـــة والاقتصادية ، وفي عام ١٩٨٨ حول الزراعة، وكانت تعقد هذه المؤتمرات عادة بدعوة من اللجنـــة الاقليمية لرؤســـاء المجالس العربية المحلية بالتنسيق مع واحدة أو أكثر من الجمعيات الطوعية . (يغطي هـــذا الفصل موضوع الأرض والممتلكات الأخرى ، بينما يركز الفصل الثالث حول المجموعات الفلسطينية الفعالة في المواضيع الاجتماعية) .

في تشرين أول عام ١٩٨٨ عقد في قرية (ايبلين) المؤتمر الأول حول الزراعة في القطاع العربي ، وتركزت مناقشاته على مشاكل الأرض والماء والمزارعين . وتطوع لتنظيم هذا المؤتمر (اللجنة الاقلمية للدفاع عـــن الأراضي العربية) التي تأسست عام ١٩٧٥ بمبادرة من اللجنة الاقليمية

لرؤساء المجالس العربية المحلية ، واتخذت مقرها في الناصرة ، ويعود اليها الفضل الكبير في تنظيم مظاهرات يوم السلام في آذار ١٩٧٦ . تابعت لجنة الدفاع عن الأرض ، بقيادة (رفد شحادة شحادة) ، عملها عدة سنوات وذلك لتشجيع القرويين على مقاومة تهديدات السلطات لهم ولأراضيهم ، وكلفت محامين للدفاع عن حقوقهم ، وحاربت ضد العنصرية (اذ شاركت في عدة مظاهرات لمنع المتطرف مير كاهان من الذهاب الى القرى العربية وحث السكان على الرحيل) .

تعاونت اللجنة ، في القيام بنشاطاتها ، مع عدد من القوى السياسية الفلسطينية ، ابتداء من الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة الى جمعية أبناء البلد ، فضلا عن عدد من الفئات المتطوعة الأخرى . من مهامها الرئيسية مراقبة وضع الأراضي في القطاع العربي، ويعتبر هذا بحد ذاته عملا يستغرق وقتا كاملا ، ووفق النشرة التي أصدرتها اللجنة في ايلول عام ١٩٨٧ ، توصلت الى اكتشاف أكثر من ثلاثين طريقة « قانونية » لاغتصاب الأراضي العربية .

أما فيما يتعلق بالمؤتمر الزراعي فقد نظمت اللجنة عدة دراسات، وتم تشكيل خمس لجان فرعية لتقوم بتغطية مجالات مختلفة منها : التبغ ، الزيتون ، الفواكه ، الخضار ، الابقار ، الدواجن ، الجمعيات التعاونية والاحصائيات . وسبق المؤتمر عدة اجتماعات عقدت في قرى مختلفة لإيقاظ الوعي بين السكان .

حضر المؤتمر الذي عقد في قرية (ايبلين) في تشرين الأول عام١٩٨٨ عدد كبير من المزارعين قدموا من ٤٣ قرية عربية ، بالاضافة الى رؤساء واعضاء المجالس المحلية المختلفة . اشار رئيس مجلس (راما) المحلي : (الياس قسيس) في كلمته التي القاها في المؤتمر بأن العرب في عام ١٩٤٨ كانوا يملكون ١٤٠,٠٠٠,٠٠٠ دونم من أصل ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ من الأراضي المزروعة بأشجار الزيتون ، وقد فقد الجزء الأكبر من الأرض بحجة أن ملكيتها تعود الى « غائبين » . هذا فضلا عن تدخل السلطات في شؤون الأراضي غير المغتصبة ، فقد اشتكى (قسيس) على سبيل

المثال من القيود المفروضة على نوع الزيتون الذي يجب زراعته : إذ لا يحق للمزارعين أن يزرعوا الزيتون السوري الذي يقدر انتاجه من الزيت بين ٢٥ – ٣٨ ٪ ، بل فرضوا عليهم زراعة الأنواع الأخرى التي تنتج ٧ – ٨ ٪ من الزيت فقط .

أشار (محمد منصور) من قرية (طيرة) بأن أخطر مشكلة تواجه مزارعي الفواكه والخضار هي استخدامهم المحدود لمياه الري . إذ يحق للمزارعين العرب أن يحصلوا فقط على ٥٠٠٠ متر مكعب من الماءسنويا لري خمسة دونمات ، بينما يحق للمزارعين اليهود أن يحصلو على ٨٠٠ – ١٢٠٠ متر مكعب للدونم الواحد ، دون تحديد لمساحة الأرض. وكذلك يحتاج المزارعون العرب الى ترخيص لزراعة البطاطا والجزر والبصل والفلفل ، ويدل عدم انتاج العرب للبطاطا على صعوبة الحصول على هذا الترخيص . ويشتكي مزارعو التبغ من انخفاض قيمة منتوجهم بسبب الاستيراد .

بالاضافة الى القيود المفروضة على زراعتهم ، بقي حق فلسطيني ٤٨ في ملكية اراضيهم معرضا للخطر . فقد أشار رئيس مجلس مجد الكروم (محمد مناع) أن المدن والقرى العربية تستمر بفقدان أراضيها بسبب اجراءات اعادة توزيع المناطق ، وأن السلطات اليهودية المحلية تملك الحق في استملاك الأراضي لأغراض المصلحة العامة ، دون حاجة منها لتعويض المالكين . ولتعزيز عمله ، شكل المؤتمر لجنة متابعة تعمل جنبا الى جنب مع اللجان التي حددتها المؤتمرات لمتابعة المواضيع الاجتماعية والاقتصادية الأخرى في القطاع العربي .

وكما هي الحال على الأرض ، كذلك الامر بالنسبة للبحر ، ففي الثمانينات بدأ الصيادون الفلسطينيون بتنظيم أنفسهم لمواجهة الخطر الفادح الذي يتهددهم وهو فقدان المدخل الصغير الوحيد المتبقي لهم على البحر الأبيض المتوسط . في تشرين الأول عام ١٩٨٦ ، وفي مدينة يافا العربية اليهودية المختلطة ، تحدد وجود الصيادين الفلسطينيين البالغ

عددهم ٢٧٠ صياداً بمساحة صغيرة تبلغ ربع مساحة الميناء ؛ وذلك بحجة أن السلطات الاسرائيلية ترغب « بتطوير » المساحة المتبقية ببناء رصيف خاص للسفن . ذكر أحد الصيادين من مدينة يافا لصحيفة الفجر في عددها الصادر في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩٨٦ : (في ذلك اليوم ، وبينما كنا في طريق عودتنا من الصيد ، أصابتنا الدهشة عندما رأينا عدداً كبيراً من رجال الشرطة الاسرائيليين وحرس الحدود. كانت القوات الاسرائيلية تتدفق من البر والبحر ، وكأنهم يحتلون المرفأ للمرة الثانية) . وحسب المعلومات التي نشرتها صحيفة الفجر ، فقد تمت العملية رغم حصول الصيادين على أمر من المحكمة العليا تمنع فيه ادارة المرفأ من القيام بأية تطويرات فيه .

ارتابت لجنة الصيادين العرب التي تشكلت حديثا بنوايا السلطات في السعي « لتطوير » العرب بعيدا عن يافا كلها ، لذا اشتكت من المساعدة التي تقدم الى الصيادين اليهود من قبل وزارة الزراعة لشراء القوارب والشبكات ، في حين لا يحصل العرب على شيء من هذا القبيل ، ورغم كل ذلك كان عدد الصيادين اليهود ينخفض باستمرار . ويعتقد العرب أن (السبب في ذلك هو توفر فرص عمل لليهود أكثر من تلك المتوفرة للعرب) . قال أحد الصيادين من يافا لصحيفة الفجر : (يعتقد الناس بأن الصيد هو مهنة جيدة وتدر مالا وفيرا ، ولكن الحقيقة عكس ذلك تماما ، فمهنة الصيد ملأى بالمخاطر والمصاعب) . وتحتاج القوارب الى الكثير من العمل اليدوي الذي لا غنى عنه والذي يتطلب لإنجازه مجموعات تتالف من اربعة الى ستة اشخاص وذلك بسبب نقص الامكانيات المتوفرة لشراء قوارب صيد حديثة . ويستاء ايضا الصيادون من الأسعار المنخفضة التي يحصلون عليها من الشركات الاسرائيلية وتجار غزة مقابل رزقهم .

تمكن الصيادون الفلسطينيون في مدينة عكا العربية ـ اليهودية من تنظيم انفسهم بشكل افضل من اخوانهم في يافا ، وذلك بعد أن شكلوا في عام ١٩٨٧ « جمعية صيادي عكا » للدفاع عن حقوقهم . يبلغ عدد الصيادين المرخصين في عكا حوالي ثمانين صيادا ، وربما يمارس المهنة

عدد أكبر دون ترخيص . ويعانون أيضا من حصرهم في منطقة من الميناء تزداد ضيقا يوما بعد يوم ، ولا يحق لهم ممارسة الصيد في المناطق المفتوحة من البحر لأسباب تتعلق بالأمن . وغالبا ما تفرض عليهم الغرامات لممارستهم الصيد في المناطق المحرمة ، ولكنهم يصرون على أن هذه المناطق غير محددة بشكل واضح . وكما حدث في يافا ، تخطط السلطات لتحويل المساحة المتبقية من المرفأ الى مرسى للسفن والتوفير التسهيلات الترفيهية للسفن الخاصة،لذا يخشى الصيادون أن يجبروا على الابتعاد بسبب وجود السياح الذين يتذمرون دائما من رائحة السمك . فقد تعرضت بعض منصاتهم للاحتراق ، واغلقت (شركة تطوير عكا) المخزن الذي يحفظون فيه شباكهم وأجهزتهم . تتضمن قائمة طلباتهم مايلي : منحهم حق الدخول الى المياه الجارية واستعمال مآخذ الكهرباء ، توسيع منطقة الميناء ، تخصيص قسم من منطقةالميناء من اجل اصلاح وصيانة الأجهزة ، الترخيص ببيع أسماكهم مباشرة ، وأخير ايجاد مكتب للجمعية .

في ١٢ ايلول عام ١٩٨٧ نشرت صحيفة الاتحاد مقالة بعنوان :(ياعرب عكا ، احذرو الخطر الجديد !) تتحدث فيه عن تصرفات السلطات ، وتربط بين المضايقاتالمستمرة للصيادين والتحركات ضدعرب عكابشكل عام ؛ مستنتجة بأن الهدف المنشود إخلاء عكا من سكانها العرب . واستشهدت بحديث لعضو (يهودي) في مجلس بلدية عكا يحذر فيه بأن العرب سيصبحون الغالبية العظمى في عكا خلال الثمانية أعوام القادمة ، الأمر الذي يحتم الاسراع بايقاف الهجرة اليهودية من المدينة .

مهما كان متواضعا :

في المدن العربية اليهودية المختلطة : كعكا ويافا وحيفا واللد والرملة، يبدو واضحا الى حد كبير تصميم فلسطيني ٤٨ على البقاء في أماكنهم لا يبرحونها . فقبل عام ١٩٤٨ كانت نسبة العرب في تلك المدن الخمسة ٥ر٦٢ ٪ من المجموع الاجمالي ، أما في نهاية عام ١٩٨٣ فقد بلغت النسبة ١ر٧٪ (أي حوالي ٤٧٠٠٠ نسمة) . على الرغم من انه انخفاض شديد

إلا أنه يبقى أفضل من لا شيء ؛ وأراد العرب المحافظة على هذه النسبة على الرغم من الجهود اليهودية الحثيثة لمحو وجودهم من تلك المدن التاريخية .

في المدن المختلطة عاش العرب في مساكن (يطلق عليها بعضهم الغيت) اهملت حتى وصلت الى درجة كبيرة من التلف فأصبحت تسبب أخطارا جسدية لقاطنيها ، بسبب حجم الأعطال الموجودة في الأبنية والشوارع والمرافق العامة، فضلا عن انتشار الأمراض الاجتماعية كجنوح الأحداث ، والبطالة وتعاطي المخدرات . وغالبا ما تلجأ السلطات الاسرائيلية الى الجدل بأن تلك المنازل غير صالحة وبالتالي يتوجب إخلاؤها من سكانها العرب . وكان الفلسطينيون يصرون على امكانية اصلاح منازلهم اذا توفر قليل من الوقت والجهد ، لذا قاموا بتشكيل لجان للقيام بالاصلاحات بأنفسهم بعد أن أخفقوا في اقناع مجالس البلديات بتقديم المساعدة اللازمة لهم .

بلغ عدد السكان العرب في عكا في الثمانينات أكثر من ١٠,٠٠٠ نسمة، أي بنسبة ٣٠ ٪ من العدد الاجمالي . ومنعت السلطات عن تغيير الشكل الخارجي للمباني في القسم القديم من المدينة بحجة المحافظة على « شخصيتها » ، فساءت الأوضاع الى حد كبير . وصفت صحيفة (الاتحاد) في عددها الصادر في ٩ حزيران عام ١٩٨٨ المشكلة السكانية لاحدى العائلات على لسان الزوجة التي قالت :

(كنت أجلس في المنزل مع بعض جاراتي نحتسي القهوة ، إذ أتين لمساعدتي في نقل الأثاث حتى نتمكن من تبييض المنزل قبل حلول عيد الفصح . وفجأة سقط حجر ، فصعقنا من الدهشة ، وبعد عدة دقائق سقط حجر آخر، فأسرعنا الى الغرفة الاخرى . وسمعنا جلبة مروّعة، وخلال ثوان سقط فقط كله فوق الأثاث وفوق كل شيء) .

شكل فلسطينيو ٤٨ في عكا لجانا عرفت باسم (لجان الأحياء) لمساعدة مثل تلك العائلات المتضررة ، وفي عام ١٩٨١ انضمت هذه اللجان

مع بعضها وشكلت (المجلس) . ويعود السبب في تشكيل أولى هذه اللجان الى انتشار وباء الكوليرا في الأردن ، فخشي سكان عكا أن يصل إليهم . وقام (المجلس) بحملة تنظيف للمساكن من الأوساخ والفئران وما الى ذلك ؛ وبسبب اهمال الحكومة لهذه الأمور ، كان لا بد من اللجوء الى العمل الذاتي ، لذا استمر (المجلس) بعقد اجتماعاته .

يتألف (المجلس) من حوالي ٣٥ ـ ٤٠ عضوا ، وقد بادروا الى ترميم بعض المنازل ، واعادة بناء الجدران ، وسد المسارب التي يستعملها متعاطوا المخدرات، وقاموا من ناحية ثانية بتنظيم محاضرات حول الصحة والهوية ، وعرض الأفلام في الأزقة . وتشمل مطالب (المجلس) إنهاء ترحيل العرب من عكا ، وتجديد المنازل القديمة ، وتوفير الكهرباء للمنازل المحرومة منها .

في الوقت نفسه ، تحدثت صحيفة (الاتحاد) في ١٢ ايلول عام ١٩٨٧ عن مناورات السلطات المستمرة (لالغاء الوجود العربي) من مدينة عكا القديمة . فقد نشرت نبأً قصيرا في رسالة اخبارية رسمية تحت عنوان (مأوى جديد من أجل سكان المدينة القدامى) ، تحدثت فيه عن خطط مجهولة حتى اليوم لايجاد مأوى جديد في المنطقة الشرقية المهجورة من عكا ، وتسمى منطقة (طانطور) السابقة . وذكر النبأ أنه سيعقد في وقت قريب اجتماع بين شركة (أميدار) : الشركة اليهودية المسؤولة عن شؤون التطوير في المدينة ، والوزراء المعنيين للتوصل الى خطة تخرج السكان في عكا القديمة من الأبنية التي تشكل خطرا على حياتهم . وناشدت صحيفة الاتحاد عرب عكا بمقاومة تلك المحاولات التي تسعى لترحيلهم من (طانطور) والاصرار على تأمين مساكن مناسبة لهم في المدينة ذاتها ، وخاطبت الصحيفة أيضا مجالس المدن الجديدة في (ماكير) و (جديدة) ـ التي أشيدت مسبقا لاستيعاب مواطني عكا ـ بأن يتمسكوا بأراضي (طانطور) .

يبلغ عدد السكان العرب في مدينة الرملة ١٠,٠٠٠ مواطن من أصل العدد الاجمالي البالغ ٥٥,٠٠٠ مواطن ، وتعتبر من أكثر المناطق العربية

تخلفا ، فحتى عام ١٩٧٤ لم يتخرج منها طالب جامعي واحد . وفي نهاية الثمانينات ، كانت نتائج التقديرات وجود ثلثي الشباب شبه أميين أو أميين تماما . في عام ١٩٨٧ قامت مجموعة صغيرة من المواطنين المهتمين بتشكيل ما يسمى « برابطة الجامعيين » ، وأخذوا يزورون المنازل لاعلام الناس عن الرابطة ، وتلقوا ردود أفعال مختلفة تتراوح بين الاهتمام وعدم الادراك . وحاولوا الاحتجاج على الأوضاع الاجتماعيةوالاقتصادية والرفع من مستوى النشاط الثقافي فلجأوا ، على سبيل المثال ، الى احضار فرقة مسرح الحكواتي الى الرملة . ولكنه كان نضالا شاقا ، إذ كان من العسير على الرابطة اقناع الناس بالخروج للتظاهر في (يوم السلام) في ٢١ كانون الأول عام ١٩٨٧ لأن معلوماتهم عما كان يجري في الضفة الغربية وغزة كانت محدودة جدا .

يعتبر (الدكتور عارف) من المؤسسين الرئيسيين للرابطة ، فقد انتقل والده الى الرملة بعد أن فقدوا منزلهم في يافا أثناء حرب ١٩٤٨ . ويعيش والد (الدكتور عارف) الآن في مساكن الفيتو العربية ، ويستعيد ذكرياته قائلا : (نحن أول عائلة عربية تنتقل الى هنا ، وكان جميع من حولنا من اليهود الذين اعتادوا على توجيه الاهانات إلينا . ثم انتقلوا الى شقق الجمعية ولم يتبق هنا الآن سوى العرب) . أما (الدكتور عارف) وعائلته فيعيشون في شقة في مبنى معظم قاطنيه من اليهود . قال (الدكتور عارف) :

(هنا في المشفى لا أواجه أية مشاكل مع زملائي من اليهود، ولكنني أجد صعوبة في التعامل مع المرضى اليهود . دخلت مرة لمعاينة مريضة يهودية ، فقال زوجها : « اطلب الطبيب » ، أجبته : « أنا الطبيب » ، ولكنه رفض أن المس زوجته . وعندما طلبت الطبيب اليهودي الذي سأل الرجل عن سبب موقفه فأخبره : « لأنه عربي » ؛ فما كان من زميلي إلا أن طلب منه مغادرة المشفى مع زوجته على الفور) .

في عام ١٩٨٠ كان عدد السكان العرب في يافا يتراوح بين ١٠٫٠٠٠ و ١٧٫٠٠٠ نسمة اي بنسبة ٣٪ من العدد الاجمالي . تأسس (حلف

عرب يافا) في عام ١٩٧٩ وفق القانون الخيري العثماني ، وأصبحت يافا جزءا من بلدية تل أبيب ، وخشي العرب من خطط (مدرون يافو) التي تهدف الى اعادة تطوير أجزاء من يافا ، ومنها المساكن العربية ، وتحويلها الى أبنية ترفيهية وتجمعات فندقية ، فيندثر بذلك أي أثر للعرب في يافا . في شهر آب من عام ١٩٨٠ أصدر الحلف نداء الى مواطني يافا يقول فيه : (اخواني وأخواتي ، حان الوقت الذي يجب أن يظهر فيه أولئك المسؤولين شيئا من التفهم لأوضاعنا ، وأن يمارسوا العدالة ولو بعض الشيء ؛ ومن يرغب في العيش بسلام عليه أن يتوقف عن ممارسات التمييز ولو بعض الشيء) .

في عام ١٩٨٥ بدأ الحلف بتطبيق برنامج نشط لمد يد العون الى العائلات لاصلاح وتحسين أوضاع المنازل في المناطق العربية القديمة في يافا كالعجمي وجباليا . فساعدهم على بناء المطابخ والحمامات ، وأصلاح الأرضيات والنوافذ والأبواب . وقدم الحلف بعض الأموال ، ولكن منعاً لخلق نوع من الاتكال ، أصر على أن تتحمل العائلات جزءا من التكاليف. وفي عام ١٩٨٧ تأسس المركز الثقافي العربي في يافا كفرع عن الحلف (راجع قصة أديب في الجزء الثاني من الكتاب) ، ومهمته معالجة المشاكل الاجتماعية المختلفة لسكان يافا .

اهتم الحلف أيضا بالأبنية العامة ، فقد خطط على سبيل المثال لتحويل برج مهجور لتخزين الماء ، يشرف على منظر جميل في الجزء العربي من المدينة ولكنه مليء بالنفايات ، الى مقهى للاهالي وللسواح . من ناحية ثانية ، لم يسمح لعرب يافا أن يرمموا ويجددوا ديرا قبطيا مغلقا ذا جمال آخاذ ، كانوا يرغبون باستعماله كمقر لاقامة الطلاب العرب .

ايقاف الصيانة :

ظهرت أيضا خلال الثمانينات حركة هدفها حماية الاماكن الدينية الاسلامية وتجديدها . ومن المجموعات الفعالة الطوعية في هذا المجال

الجمعية الاسلامية الاولى التي أتخذت مقرا لها في حيفا ، وعين (فتحي فوراني) أمينا للسر ، الذي أعد في ٤ ايلول عام ١٩٨٧ قائمة بأسماء الاماكن والمنشآت الدينية التي خسرتها الامة :

(تم ابرام عقود وصفقات بتمثيل كاذب (عن الامة) بهدف اضفاء الشرعية على تدمير المساجد والمدافن . فقد تم تسليم مدفن (تاسو) الذي تبلغ مساحته ٨١ دونما بموجب عقد مشابه . واستأجر (غيرشون بيريز) شقيق الوزير (شمعون بيريز) مسجد حسان بك لمدة تسع وتسعين عاما بهدف انشاء مركز سياحي في الموقع . وبُني في مكان مسجد (صحصاك) معمل للبلاستيك ومطعم على الطراز البلغاري وناد ليلي . وأشيد فندق الهيلتون على أنقاض مدفن عبد النبي . وبرزت بالطريقة نفسها جامعة تل ابيب على أنقاض مدفن شيخ مؤنس) .

كتب (فوراني) مقالات متعددة حول هذا الموضوع نشرت في كتاب صدر عام ١٩٨٤ باللغة العربية تحت عنوان (دفاعا عن الجذور) .

تلقى فلسطينيو ٤٨ ضربة قاسية عندما خسروا الكثير من الاوقاف الاسلامية (وهي أملاك شخصية يمنحها المسلمون لتستعمل في أغراض خيرية في سبيل الله) . [لمزيد من المعلومات عن املاك الاوقاف الواسعة راجع اطروحة (ميشيل دامبر) في جامعة لانكستر عام ١٩٨٣ تحت عنوان (الاوقاف الاسلامية الفلسطينية) ، دراسة في تحويل الرمز الديني] . فعلى سبيل المثال ، قبل عام ١٩٤٨ قدرت املاك الاوقاف من الاراضي الزراعية بنسبة ١٢ الى ١٨٪ ، بالاضافة الى ١٠٠٫٠٠٠ دونم من الاراضي في المدن الفلسطينية ، و ٩٠٪ من أراضي عكا كانت ملكا للاوقاف قبل عام ١٩٤٨ . وكان يخصص ايراد هذه الاملاك لبناء المدارس والمستوصفات ودور الايتام والحمامات العامة والمرافق الخدمية الأخرى ، بالاضافة الى ادارة النظام الخيري . بعد وجود دولة اسرائيل اعتبر الوقف « ملكية الغائب » ، ويعود السبب في ذلك الى

حد ما الى غياب أعضاء المجلس الاسلامي الاعلى . فاحتج العرب بأن هذه الاملاك هي في سبيل الله ولا يمكن اعتبار الله (غائبا) ، ولكن دون طائل . وتحولت معظم الاملاك،بطريقة أو بأخرى الى الملكية اليهودية .

كتب (فوراني) حول هذا الموضوع بسخرية لاذعة :

(في غضون ذلك يحرص علماء الاحصاء الحذرون على وجود سجلات دقيقة لحركتنا السكانية : معدل النمو السريع ومعدل الانخفاض البطيء . وبين الفينة والاخرى ، تنطلق صيحة شك تحذر من التزايد اللامحدود لهذه الاقلية البالغة الخصوبة ، يتبعها بشكل ثابت تحليل مطمئن يتضمن حقائق تثبت أن الامكانية غير موجودة وبالتالي لا مبرر لهذا الخوف ، ومع ذلك من الاسلم دائماً توخي الحذر والانتباه ، وحتى يتم ايجاد حل عملي يجب ابقاء الاقلية العربية ـــ اذا استعملنا هذا التصريح ـــ عند مسافة بعيدة آمنة ، عند طرف السياج. هذا يفسر سبب وجود مساكن الفيتو في بعض المدن مثل : حيفا ويافا واللد والرملة . ويفسر أيضا الحصار الاستراتيجي للناصرة وللعديد من القرى العربية التي ابتلعتها سلسلة قوية من المستوطنات تقوم بالقضاء على اقتصادها واعاقة نموها وكتم أنفاسها تماماً .)

هناك بعض القصص التي تدل على أعمال ناجحة ، ففي يافا قرر العرب التمسك بمسجد حسان بك الذي اهملته السلطات عمدا حتى انهارت مئذنته عام ١٩٨٣ . وردا على صيحات الاحتجاج التي انطلقت في مختلف أرجاء البلاد ، سمح للعرب بتجديد المسجد عام ١٩٨٤ ، وجمعت الاموال لهذا الغرض من قبل الجماعة الفلسطينية . ولكن التجديد لم يكن بالمهمة السهلة ، ففي عام ١٩٨٥ تلقى العرب تهديدات مخيفة بتخريب المسجد اذا استمرت اعمال التجديد فيه ، وفي ٧ تموز عام ١٩٨٥ ألقيت قنبلتان يدويتان على المسجد . وفي عام ١٩٨٦ اصر رئيس مجلس تل ابيب ـــ يافا على ايقاف العمل بحجة أن ارتفاع المئذنة يفوق التقديرات وفق رخصة البناء بمتر ونصف ، ولكن استؤنف العمل فيما بعد .

وكذلك الامر في يافا ، فقد انتخب بعض اعضاء الجماعة وللمرة الاولى في نيسان عام ١٩٨٨ جمعية اسلامية لتتحدى اللجنة التي شكلتها السلطات الاسرائيلية . واصرت هذه الجمعية على الاعتراف بها كممثلة حقيقية للجماعة الاسلامية في يافا ، وأن تكلف بمسؤولية الاوقاف . وذكرت بأن لجنة الاوقاف المكلفة من قبل الحكومة الاسرائيلية قامت مؤخرا بتوقيع عقد تبيع بموجبه مدفنا اسلاميا محليا الى مستثمري الاملاك وصرحت الجمعية (نحن لا نثق بلجنة القيمين هذه) .

وفي حيفا حاولت الجمعية الاسلامية التمهيدية في الثمانينات أن توقف عملية تدمير (المسجد الصغير) بهدف فتح طريق الى مكتب البريد ، وقدمت تقارير تثبت صلابة الاساس،وبالتالي وجوب المحافظة على البناء . وتم تحديد موعد لعقد اجتماع مع السلطات للاحتجاج على الخطة ، ولكن قبل الاجتماع بيوم واحد ارسلت البلدوزرات الى الموقع ودمرت نصف المسجد ، ولم تتوقف عن تدمير ما تبقى الا بأمر من المحكمة .

ونظمت ايضا الجمعية الاسلامية التمهيدية حملة تنظيف للمدفن الاسلامي في حيفا خلال شهر رمضان في ربيع عام ١٩٨٨ . وذكر بأنه شارك عدد كبير من الناس من مختلف الاديان في حيفا في الدفاع عن الوجود العربي التاريخي في المدينة . ومنذ ذلك الوقت لوحظ اهتمام متزايد من الشبان العرب للاعتناء بالمدافن الاسلامية وخدمتها .

القرى المقاتلة :

ليست المدن المختلفة بالمنطقةالوحيدة التي اصبح فيها الفلسطينيون منظمين وجازمين ، فقد تأسست اللجان أيضا في العديد من القرى لتقوم بنشاطات واسعة من بناء الشوارع وتنظيم المجارير الى انشاء رياض الاطفال . فعلى سبيل المثال ، في الثمانينات لم يكن في قرية (موسموس) مجلس محلي،وتقع هذه القرية في المثلث الشمالي (ويبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة) ، وكانت حجة السلطات الظاهرية أن

القرية صغيرة لدرجة لا تبرر وجود مجلس فيها ، لذا أسس سكان القرية في نهاية السبعينات (جمعية العمل التطوعية) ، وتعرض بعض أعضائها في بداية تأسيسها الى المضايقات والاعتقالات للقضاء على فكرة تأسيس هذه الجمعية ؛ ومع ذلك ، سجلت (جمعية العمل التطوعية) عام ١٩٨٤ كمنظمة غير حكومية .

تحول معظم العمال في قرية (موسموس) الى عمال بالأجرة ، بعد أن خسرت القرية جزءاً كبيراً من أراضيها ، وكانت القرية تفتقر الى تسهيلات صحية جيدة ، وطرق معبدة ، ونواد رياضية ، ورياض أطفال ، مع مرور السنين ، قام أعضاء جمعية العمل المتطوعين بتسوية عدد من الطرق ، ومن ضمنها الطريق الذي يؤدي الى المدفن . وكذلك قاموا بشراء تراكتور ، وبلدوزر ، وعربة مقطورة من أجل جمع القمامة ، وإفراغ المجارير . وكان الأهالي يستأجرون هذه الآلات بأسعار زهيدة . وعندما عثروا على مقلب لنفاياتهم خارج القرية ، منعتهم السلطات من استعماله بحجة أن الأرض ملك للدولة ، وهددت بسجن السائق .

وأشادت (جمعية العمل التطوعية) أيضاً روضتين للأطفال ، ومن أفضل إنجازاتها المكتبة العمومية ، التي تحوي حوالي ٢٥٠٠ كتاب . وذكرت التقارير أنه بلغ عدد زوار المكتبة في شهر نموذجي ٧٠٩ اشخاص، منهم ٥٤١ تلميذاً . وفي المجال الصحي قامت الجمعية بجمع التبرعات لتجهيز مستوصف ، فحتى ذلك الحين كانت تضطر الأمهات أن ينقلن أطفالهن الى المدن لإجراء الفحوص والحصول على الأدوية ، إذ لم يكن يوجد في القرية سوى طبيب واحد ولمدة ثلاث ساعات يومياً . من ناحية ثانية ، اهتم أهل القرية بحماية الإرث الحضاري (لموسموس)، فيعتبر البئر الواقع في وسط القرية الموقع التاريخي الرئيسي الباقي لهم ، لذا قاموا بإصلاحه وبناء حديقة صغيرة تحيط به بغية تجديد (الصلة بين البئر والجيل الجديد) .

واجهت القرى أيضاً تحديات رئيسية الصحة العامة كنظام مجارير ناقص أو بالأحرى معدوم . ففي بداية الثمانينات ، لم يكن يوجد نظام مجارير مركزي في أية قرية عربية أو أية تجمعات بدوية ، فكثيراً ما كانت العائلات المتجاورة تتخاصم بسبب مياه المجارير السائلة من حفر الترشيح . وفي أواخر السبعينات تفشى وباء التيفوئيد في قرية عرابا ، واكتسبت أم الفحم ــ التي كانت ما تزال مصنفة كقرية في ذلك الحين ــ شهرة سيئة بسبب ما عرف « بداء أم الفحم » ، وتجلت أعراضه بدوار وطفح جلدي نجم عن انعدام الشروط الصحية الجيدة ومياه المجارير التي تمر في مصارف مكشوفة عبر الشوارع . في الثمانينات ، تمكنت بعض القرى ، وبمساعدة «جمعية الجليل للبحوث والخدمات الصحية»، من إنجاز المهمة ونهجت بعض القرى الأخرى مسارها عن طريق قرض دائري (في الفصل الثالث توسعنا في دراسة الخدمات الصحية التي قدمتها الجمعية) . بحلول عام ١٩٨٧ تحولت شوارع أم الفحم الى مواقع بناء بعد أن كانت أقنية لمياه المجارير ، وذلك بعد إنجاز وتركيب اول شبكة للمجارير فيها تحت الأرض .

تجلى مفهوم الاعتماد على النفس بشكل واضح للتعويض عن نقص مساعدة الحكومة المركزية في معسكرات العمل التطوعية التي انتشرت بشكل واسع في المدن والقرى العربية في السبعينات والثمانينات . بدات بلدية الناصرة اتجاه العمل بـ ١٥٠٠ عامل متطوع (من العرب واليهود والزوار الأجانب) في معسكرها الأول عام ١٩٧٦ . وفي المعسكر الحادي عشر المقام عام ١٩٨٦ ارتفع العدد الى ٧٠٠٠ عامل ، في معسكر العمل الذي تم عام ١٩٧٦ ، أنجز ستة واربعون مشروعاً تبلغ كلفتها ٢٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني . وفي معسكر عام ١٩٨٦ انجز تسعون مشروعاً تبلغ كلفتها ٦٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني . وفي معسكر العمل عام ١٩٨٦ المقام في قرية (طيران) استمر العمل في المعسكر التطوعي الثالث مدة ٥٠٠ يوم ، واستعمل ٩٥٠ طن من المواد لتعبيد الطرق . وفي معسكر العمل في أم الفحم عام ١٩٨٦ قام ٦٠٠ متطوع ببناء ٢٥٠ متراً من الجدران ، وتعبيد ٤ كم من الطرقات ، وثلاثة ملاعب لكرة السلة ، بالإضافة الى

تمديد انابيب المياه في مدرستين ، وبعض الأعمال الزراعية في حديقـة مبنى البلدية التي تبلغ مساحتها خمسة دونمات .

قرى غير معترف بها ، ومنازل (غير شرعية) :

اكتشف فلسطينيو ٤٨ دون قصد منهم ، في نضالهم المستمر ، طريقة تحرك رعشات الاعتراف في العمـود الفقري الإسرائيلي : وهي خلـق الحقائق . فبعد أن اثبت الصهاينة وجودهم بشكل لا يقبـل الجدل ، أصبح من الصعب جداً تعرية الحقائق بعد ترسيخها . من ناحية ثانية ، تتألف الحقائق الفلسطينية ، التي ولدت نتيجـة لضرورة ماسة ، من آلاف المنازل التي بناها فلسطينيو ٤٨ دون رخص لاستحالة الحصول على هذه الرخص. تتألف بعض هذه المنازل (غير الشرعية) من مجموعات تشكل ستين قرية غير معترف بها ، وتنتشر المنازل الأخـرى في المدن والقرى العربية (المعترف بها) ، ومخيمات البدو . فقد تحولت تلك الاستجابة المرتجلة ، التي تمخضت بعـد سنوات عن الحاجة الملحـة للحصول على مكان للعيش فيه ، الى نضال منظم يجب الاستمرار به . وتعرض الفلسطينيون ، عبر هذا النضـال ، الى تدمير منازلهم ، ودفـع غرامات كبيرة وقضاء سنوات في السجن ؛ ولكن بقيت الغالبية العظمى من المنازل (غير الشرعية) في مكانها .

تعتبر (لجنة الأربعين) القوة المنظمة الأولى في هـذه المنطقة التي تأسست خلال عامي ١٩٨٧ــ١٩٨٨ لتمثيل مصالح تلك القرى والنواحي الصغيرة التي لم تعترف الحكومة بوجودها . وأطلق عليها هذا الاسم لأنها ضمت بشكل أولي ممثلين عن أربعين قرية (غير معترف بهـا) ، وحافظت على اسمها على الرغم من أنها اصبحت تمثل في عـام ١٩٩٠ حوالي ستين قرية .

تضم أصغر قرية من تلك القرى حوالي ثلاثين الى اربعين شخصاً ، بينما يأوي اكبرها حوالي ٤٠٠٠ شخص ، ويعتقد أن جميع هذه القرى

تضم حوالي ١٠,٠٠٠ شخص . وبما أن الحكومة لم تعترف بها ، لذا لا يوجد فيها مياه جارية أو كهرباء ، أو طرق معبدة ، أو مجارير مياه ؛ هذا إذا لم نأت على ذكر المدارس والمستوصفات . حاول البعض (تأمين) هذه التسهيلات من القرى اليهودية أو العربية المجاورة ، ويلجأ آخرون الى استعمال الصهاريج أو الحيوانات لنقل المياه . وفي معظم تلك الحالات ، بنيت تلك القرى فوق أراض زراعية يملكها أصحابها أنفسهم ، إلا أن القانون الإسرائيلي لا يسمح بالبناء فوق الأراضي الزراعية .

ومضت الشرارة الأولى التي تمخض عنها تشكيل « لجنة الأربعين » من قرية (عين هود أبو الهيجا) ، التي تضم ١٦٠ شخصاً يقطنون بين جدران سبعة وعشرين منزلاً . تقع قرية (عين هود) على المنحدرات الغربية لجبل الكرمل ، وتشرف على البحر ، وتعتبر قصة كيفية إيجاد قرية (عين هود) وسبب هذا الوجود تحليلاً جيداً للوضع .

وصف (محمد أبو الهيجا) ، أحد قادة لجنة الأربعين ، ملحمتهم لصحيفة الاتحاد في ١ تموز عام ١٩٨٨ :

(أصبح المواطنون الحاليون لـ (عين هود) لاجئين بعيداً عن منازلهم في قرية (عين هود) في عام ١٩٤٨ ، وتحولت القرية بعد ذلك الى مستعمرة للفنانين [اليهود الإسرائيليين] تحت اسم (عين هود) . وقد قدم السكان الأصليون الى هذا المكان حيث قاموا برعي مواشيهم ، وعاشوا في أكواخ على منحدرات الجبل المطل على مدينتهم السابقة) .

وُلد (محمد أبو الهيجا) في قرية عين هود الجديدة ، وتابع يقول :

(بعد فترة وجيزة من مجيئنا الى هذا المكان ، بدأت السلطات بممارسة الضغوط علينا وتشديد المضايقات لحثنا على الرحيل . وفي عام ١٩٥٨ قررت المحكمة أن الأرض التي نعيش عليها هي أملاك دولة ، وبدأت بعد ذلك المباحثات بين (سلطة الأرض الإسرائيلية) وسكان قرية

عين هود حول مصير هـذه الأرض . وخـلال هـذه المباحثات قدمت (السلطة) الى جدي ثلاثة اقتراحـات : إما أن نشتري الأرض التي نعيش عليها ، أو أن نرهنها ، او أن نستبدلها بقطعة ارض نملكها في منطقة عين هود الأصلية . رفض جدي عرضهم ، مؤكداً أن الأرض التي نعيش عليها ما هي إلا جزء من أملاكنا المغتصبة . واستمرت (سلطة الأرض الإسرائيلية) في محاولاتها لطردنا ، تاركة باب المناقشات مفتوحاً . وفي عام ١٩٦٢ ، اخبر جدي المسؤول في (السلطة) عن رغبته في شراء الأرض التي نعيش عليها ، بعد أن سأم من ضغوطهم وإزعاجاتهم ، ولكن (السلطة) رفضت البيع بحجة أن أملاك الدولة لا يمكن أن تباع الى العرب . ثم قامت باستملاك مئة دونم من أراضي القرويين ، ووضعت سياجاً حول منازل القرية ، وقامت بزراعة أشجار السرو بين بساتين الزيتون ، بغية عزل القرية ومحاصرتها ومنع أهلها من حراثة أراضيهم ، فخسرنا بذلك جزءاً رئيسياً من أسباب رزقنا . واستمرت السلطات في محاولاتها ، فقد صرحت في بداية السبعينات أن الأرض التي نعيش عليها هي حديقة وطنية . وبعد بضعة سنوات ـ عندما كان شارون وزيراً للزراعـة ـ صدرت الأوامر بأننا يجب أن نبيع مواشينا ، وبذلك فقدنا مصدر رزقنا الأخير ، ولم يعد أمامنا خيار سوى العمل بالأجرة خارج القرية ، والمعاناة من الجهد اليومي في التنقل) .

استمر (أبو الهيجا) يروي قصة قريته :

(في منتصف الخمسينات بدأنا بالانتقـال من الأكواخ الى مساكن حجرية ، وفي عام ١٩٦٤ كان هناك خمسة عشر منزلاً حجرياً . في ذلك الوقت لم يكن قد صدر بعد قانون نظام البناء الذي يستعمل الآن لإعطاء الأوامر بهدم المنازل . في عام ١٩٧٨ تأسست لجنة محلية في عين هود ، وبدأنا مفاوضاتنا مع مجلس (هوف هاكارميل) للحصول على بعض الخدمات . وفي عـام ١٩٨٠ تم رسم خريطة لمناطـق القرية ، ولكـن السلطات رفضتها . وفي عام ١٩٨٥ تأسست لجنة عربيـة ـ يهودية للدفاع عن عين هود . وفي تموز عام ١٩٨٦ صدرت الأوامر بتدمير ثلاثة

منازل في عين هود ، فنفذنا إضراباً لمدة خمسين يوماً ، قمنا خلالها بالاتصال بكافة المؤسسات الحكومية والشعبية لإيقاف التدمير، ونجحت مساعينا بفضل التأييد العربي ـ اليهودي الواسع) .

ومع ذلك صدرت فيما بعد سبعة أوامر تدمير ضد أصحاب المنازل في عين هود .

نجح أهالي قرية (عين هود) في توفير بعض الخدمات الأساسية لأنفسهم ، فأصبحت المنازل مجهزة بأنظمة طاقة شمسية ، ويعتمد الأهالي على نظام يشبه الجمعيات التعاونية اليهودية من أجل توفير الخدمات الصحية والبريدية . وقام سكان القرية ببناء مدرسة تتألف من غرفتين ، ويحصل المعلمون على رواتبهم من الحكومة ، ويواصل حالياً خمسة شبان من القرية دراستهم الجامعية .

هناك قصص مشابهة من القرى الأخرى مثل قرية (عرب قميرات) التي لم يسمح فيها بأي بناء جديد منذ عام ١٩٤٨ ، ويعيش في كل منزل من منازلها الأربع والعشرين ثلاث عائلات . ويذكر السكان أنهم يعيشون في هذه القرية منذ أيام الحكم العثماني ، وانهم بدؤوا ببناء المساكن الحجرية اثناء فترة الانتداب البريطاني . وتعتبر القرية باكملها مبنية بشكل (غير قانوني) على أرض زراعية ، وصدر أول أمر بالتدمير قبل خمسة وعشرين عاماً ، ولكن في الواقع تهدم منزل واحد فقط عام ١٩٨٥ .

نظمت لجنة الأربعين رحلات سياحية للصحفيين ولمن يهمهم الأمر ليقوموا بالدعاية لوضع القرى . وذكرت صحيفة الفجر في عددها الصادر في ١٢ حزيران عام ١٩٨٨ :

(اثناء رحلتنا الى القرى ، خشيت أنا واصحابي أن يكون دليلنا المهندس محمد أبو الهيجا قد ضل طريقه ، فاثناء مرورنا في الجزء الغربي لما يسمى (بالمنطقة التاسعة) لم نرَ سوى لوحات تشير إلى المستوطنات اليهودية ، وليس هناك مايدل على وجود قرى عربية . ثم فجأة وقبل

أن نصل إلى برج المراقبة في مستوطنة عشتار اليهودية ، استدار دليلنا، وسلك طريقاً صخرياً خطراً لايمكن أن تمر عليه السيارات . وقرر سائق التاكسي الذي كان يقل صحفياً يهودياً من مجموعتنا أن يعود أدراجه قائلاً بأنه لايرغب في المخاطرة بسيارته . رأينا أمامنا أكواخاً من الحديد المموج، التي تستعمل كمنازل للسكن ، وعندما اقتربنا رأينا اثنين من الصبية يحملان الماء على البعير . لقد وصلنا الى عرب (النعيم) ... يوضح لنا (نمر) أن القرية تعاني من كونها وضعت في المنطقة التاسعة ، فقد استملك قسم من الأراضي العربية الخصبة وخصصت لأعمال المناورات العسكرية . وكثيراً ما يضطر القرويون للجوء إلى الكهوف والاختباء خلف الأشجار هرباً من الرصاص المتناثر) .

استمرت لجنة الأربعين في نضالها إذ كلفت مهندسين مدنيين بإجراء دراسات اجتماعية واقتصادية للأوضاع ، والقيام برسم خريطة موحدة للمناطق من شأنها أن توحد القرى ضمن خطة التنمية الرسمية للبلد . وعقدت لجنة الأربعين أول اجتماع عام لها في ١٨ حزيران عام ١٩٨٨ في قرية شفا عمرو . وفي اليوم التالي ألغيت قرارات التدمير التي صدرت بحق سبعة منازل في عين هود . وتأمل أبو الهيجا بالتوصل إلى حل للمشكلة عبر المفاوضات .

الحقيقة ولو لمرة واحدة :

كما ذكرنا سابقاً ، في نهاية عام ١٩٨٦ قُدّر عدد المنازل (المخالفة) بـ ٤٥٠٠ منزل يقع قسم كبير منها في المدن والقرى العربية المعترف بها رسمياً ، حيث وضعت قوانين صارمة على موضوع الإسكان ، فلم يعد باستطاعة الشبان والشابات الزواج وتأسيس أسر ، وهناك العديد من القرى التي لا يوجد لها مخططات على الإطلاق،حتى في حال كانت العائلات تمتلك الأرض ، فلا يسمح لها بالبناء مالم تكن الأرض ضمن مخطط المنطقة . وخلال العشرين عاماً الماضية تحاول الكثير من المدن والقرى العربية ، المنظمة وفق مخططات رسمية ، أن تعدل من تلك القوانين لصالح التوسع السكاني ولكن دون جدوى .

وتتعرض المدن والقرى العربية إلى مزيد من الضغوط كالإجراءات التي اتخذت لمنع البناء بجانب طريق رئيسي . فعلى سبيل المثال ، لا يستطيع سكان قرية مجد الكروم العربية البناء ضمن مسافة تبعد مائة متر عن طريق عكا ــ صفد ، ومن ناحية ثانية ، يسمح لسكان القرية اليهودية المجاورة الكرميل بالبناء ضمن مسافة تبعد خمسة وعشرين متراً عن الطريق العام . لذا اضطرت كثير من العائلات الى البناء دون ترخيص ، بالرغم من تهديدات السلطات بفرض الغرامات ، والسجن والتدمير .

لاتتوقف السلطات الإسرائيلية عن محاولاتها المتكررة بتدمير المنازل « المخالفة » : ففي صيف ١٩٨٨ هدمت منزلين في قرية آرا ، وأربعة منازل العرب للتدمير الفوري ؟ » وعلقت صحيفة (جيروزالم بوست) : في هورا . وفي تشرين الثاني ١٩٨٨ دمرت خمسة عشر منزلاً في طيبة ــ آخر قرية عربية تحولت إلى مدينة ــ ويبلغ عدد سكانها عشرين ألف نسمة ، وارتفعت صيحات الاحتجاج ضد التدمير الذي حصل في طيبة حتى في الصحف الإسرائيلية ، فقد تساءلت صحيفة (هاميشمار) : (لماذا تقابل انتهاكات اليهود لقانون البناء بفرض الغرامات ، بينما تتعرض منازل العرب للتدمير الفوري ؟ » وعلقت صحيفة (جيروزالم بوست) : (تتركز نظرة وزارة الإسكان الجماعية بشكل رئيس على المنازل اليهودية، في حين لاتبذل جهداً كبيراً لتسهيل الصعوبات في القطاع العربي ... يمكن فقط أن تؤول الأمور إلى الأسوأ طالما أن مجرفة البلدوزر هي التي ترمز إلى سياسة الاسكان في القطاع العربي بدلا من رافعة البناء) .

على الرغم من ردود الافعال القوية هذه ، فقد أوقعت مشكلة البناء « المخالف » في القطاع العربي الحكومة اليهودية المبدعة في حيرة كبيرة ، فتشكلت عام ١٩٨٦ لجنة لتحديد تلك الصعوبات ودراسة المشكلة ، برئاسة نائب المدير العام في وزارة الداخلية (ياكوف ماركوفيتس) . فأصدرت اللجنة ما سمي آنذاك (بتقرير ماركوفيتس ، الذي هاجمه على الفور فلسطينيو ٤٨ بشدة ، فقد كانت لجنة (ماركوفيتس)

واحدة من لجان عديدة شكلت لدراسة مشكلة السكن المخالف في القطاع العربي ، على الرغم من وجود المشكلة ذاتها في القطاع اليهودي أيضا . في الواقع اعترف التقرير ، في مثال معبر عن المعايير المزدوجة ، بوجود المشكلة في القطاعين العربي واليهودي ، الا انه صرح بوقاحة : (ركزت اللجنة ، ضمن صلاحياتها ، على دراسة الوضع في القطاع الذي يضم الاقليات ، وهي بالتالي لم تتوجه الى دراسة الوضع السائد في القطاع اليهودي) . ووضحت اللجنة هذا الكلام بما يلي :

(لقد استأثر البناء المخالف في القطاع العربي باهتمام خاص ، ويبدو انه من الأسباب الرئيسية لذلك وجود بعض حالات البناء المخالف في هذا القطاع ، ليس لأنها تخل بالشروط الموضحة في الرخصة ، بل لأنها بنيت دون ترخيص على الاطلاق) .

أشار التقرير الى ٥٣٢ر٤ منزلاً عربياً ، تقع خارج مخططات التطوير ، وقد صدرت بحقهم قرارات التدمير في شمال ووسط منطقتي حيفا والقدس . وفي منطقة الجنوب ، التي تضم في معظمها قبائل البدو ، أشار التقرير الى ٩٤٤ر٥ بناءً مخالفاً : (١٦١ مبنى و ٧٨٣ر٥ كوخاً) بالإضافة الى ٨١٨ خيمة . وأوصى التقرير بادخال معظم الأبنية الواقعة في شمال ووسط منطقتي حيفا والقدس ضمن مخططات التطوير ، ومنع بضعة مئات من المنازل ، التي تم تهديمها ، من استعمال الطلاء الرمادي . وفي المنطقة الجنوبية ، أوصى التقرير برفع (التجميد المفروض) على البناء في مناطق البدو كهوريا ولاقية ، والموافقة على مخططات التطوير ، ثم تنفيذ قرارات التدمير وذلك بعد مضي أربع سنوات .

وضح التقرير بعض الأسباب التي دفعت الناس للبناء المخالف : (يملك عدد كبير من البدو تأكيدات خطيه من « سلطة الأرض الاسرائيلية » لشراء أراض لأغراض البناء ، الا أن « السلطة » غير قادرة على تحديد وتعيين قطع الأرض المشتراة لأغراض البناء . ونتيجة لذلك ، قام البدو بإشادة مبانٍ مؤقتة دون ترخيص) .

واعترف تقرير (ماركوفيتس) ضمناً بأن الحقائق قد تحددت : (لا يمكن إلغاء النتائج ، حيث أن آلالاف من قرارات التدمير التي لم تنفذ حتى الآن تبرهن على فشل السلطات بكبح جملة الانتهاكات التي تخرق القانون) . وصرح بأنه مما لا يدعو للعجب أن (التجربة أثبتت أن خارقي القانون لم ينفذوا أوامر المحكمة التي طلبت منهم القيام بعملية الهدم) . الى جانب ذلك (ينتهز خارقو القانون فرصة وجود دعاوى قانونية للحصول على الاعتراف بالحقائق الموجودة على أرض الواقع) .

قدم التقرير المزيد من الإيضاح على الشكل التالي :

(نشأ العجز في فرض القانون في هذا المجال بشكل جزئي عن نقص القوة البشرية الضرورية من أجل مراقبة البناء المخالف ومنعه ، ودعم هذا العجز الصعوبة العملية والعامة المتعلقة بعملية تهديم المبـاني . وتساهم هذه الصعوبة ، التي تظهر بوضوح في تلك الحالات التي ترافق فيها التهديم مع أعمال الشغب والعنف ، في تقييد السلطات المحلية ، وربما السلطات الحكومية أيضاً ، أثناء عملية تنفيذ قرارات التدمير) .

ويمكن تقديم توضيحاً مسهباً عن مثل هذه الحالات الجامعة ، اذا لزم الامر ، من الانتفاضة المصغرة التي اندلعت في طيبة عندما تم تدمير خمسة عشر منزلاً في تشرين الثاني عام ١٩٨٨ . فقد انتشرت أعمال شغب القيت فيها الحجارة والزجاجات على رجال الشرطة ، وجُرح على إثرها أربعون شخصاً .

قام شاهد عيان باستحضار المشهد بشكل حي في وصف نشرته صحيفة الهدف في رسالتها الاخبارية الصادرة في كانون الثاني عام ١٩٨٩ وذلك بعد بدء غارات التدمير :

(استيقظت في التاسعة صباحاً لأسمع أصواتاً مرتفعة في الشارع ، وشاهدت مئات الطلبة ينطلقون في الشارع وهم يرفعون الشعارات

ويرددون الأناشيد الوطنية الفلسطينية . حاولت الاتصال بالقدس ، إلا أن الخطوط كانت مقطوعة . كان منزل عمتي ، الذي تعيش فيه مع أولادها الثمانية ، أول منزل يتم تهديمه ، ولم تكف عن البكاء وهي تراهم يحيلون منزلها الى خراب ؛ وتجمع مئـات الطلاب في المنطقـة يصيحون في وجه الجنود : (انتم وحوش ضاربة ، وننتظر سقوط دولتكم بفارغ الصبر !) ثم ذهب الجنود لتدمير المنازل الثلاثة الأخرى ، وكانت منازل كبيرة ، ووقف فوق أسطحتها حوالي مائة طالب يحاولون إعاقة الجنود عن المضي في مهمتهم ، إلا أن جهودهم ذهبت أدراج الرياح ، إذ اندفع رجال الشرطة وحرس الحدود الى المنطقة وأجبروهم على التفرق مستعملين الغازات المسيلة للدموع . فشعرنا وكأن النار تحرق صدورنا ، وسقطنا على الأرض لا نعي شيئاً ... شكل الجنود طابوراً وقف في كل جانب ستة منهم ، وبدؤوا ينهالون بالضرب على رؤوس الفتيات ، فسالت الدماء على وجوههن) .

في اليوم التالي توقف كل شيء في طيبة عن الحركة والعمل تعبيرا على الاحتجاج ، ودعت « اللجنة الإقليمية لرؤساء المجالس العربيـة المحلية » الى إضراب عام في ١٥ تشرين الثاني عـام ١٩٨٨ . اشارت صحيفة الهدف الى تزامن هذا الإضراب مـع اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني الذي أعلن عن قيام دولة فلسطينية مستقلة . وعندما لفت نظر بعض قادة فلسطينيي ٤٨ إلى هذا الموضوع أجابوا بحدة : (لسنا نحن من لطخ الخط الأخضر ـ باحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ـ بل السلطات الإسرائيلية هي التي أبادت ما يسمى بالخط الأخضر ، بنقل أساليبهم القمعية من الأراضي المحتلة الى هنا) .

اعترض فلسطينيو ٤٨ على تقرير (ماركوفيتس) ككل ، مشيرين الى عدم وجود عربي واحد في اللجنة ، ومعترضين على وصفهم بخارقي القانون ، ويوجهون اللوم الى التأخير في الموافقة على مخططات التنظيم التي تحدد وضعهم . ويقولون أيضاً إن السلطات قد بدأت بتنفيذ البنود

المتعلقة بالتدمير ، ولكنها لم تنفذ الجوانب الأخرى من التقرير ، مثل توفير مخططات تطوير مناسبة .

تعود مسألة الأرض والملكية برمتها الى صميم الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي ، ويبدو واضحاً أن هذه المسألة ما تزال معقدة حتى الآن كما كانت عام ١٩٤٨ . ويبدو أن الأساس اليهودي غير آمن على الرغم من سيطرته على معظم الموارد الموجودة في القسم الفلسطيني الذي تحول الى دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ . وكما رأينا في الصفحات السابقة ، هناك ممانعة واضحة لقبول أي وجود عربي في إسرائيل (إذا لم نتطرق الى النمو العربي الطبيعي المطرد) . ومما لا يدعو للشك بأن الوجود الفلسطيني هو بحد ذاته يذكّر بأن البلد كان ، ومنذ أربعة عقود فقط ، فلسطين ؛ وأن اليهود كانوا ، ومنذ عهد قريب ، بحد ذاتهم أقلية . فضلاً عن ذلك يعتبر الوجود العربي تحدياً في وجه إسرائيل يحيا من أجل تحقيق مطاليبه بالديمقراطية ، والمعاملة العادلة لجميع المواطنين . والمعضلة التي تواجه الدولة اليهودية هي أنه حالما تصبح دولة ديمقراطية، مع الإجماع على افتراض ذلك مسبقاً ، فإنها لن تصبح بعد ذلك دولة يهودية .

من جانبهم ، لا يتمتع فلسطينيو ٤٨ برفاهية توفر المكان وراحة التسهيلات لكي يتسنى لهم التفكير في المواضيع المتعلقة بالوجود ، بل يجتهدون للمحافظة على القليل المتبقي بين أيديهم ، من خلال اللجان المتطوعة والجمعيات ، ويعملون كمجوعات أو أفراداً ضمن نظام يمارس ثقله عليهم بشدة . ولا يتسنى للمرء سوى أن يأمل ، كما أمل (محمد أبو الهيجا) من عين هود ، أن تسوّى المشكلة عن طريق المفاوضات لا القوة .

* * *



الفصـــل الثـــالث

الخـــدمـــة

(ينظر الى العرب الاسرائيليين كضحـايا سلبيين لصراعـات « النظام الاعلى » ، وحتى تتغير العـلاقات السياسـية بشكل مفاجىء ، يبقى المواطن الفرد عاجزا في وجه الصراع ... [نحن نصر] انه ، على النقيض تماما ، من الضروري ايجاد مؤسسـات مستقلة تكون قادرة على تقديم الخدمات الناسبة لمجتمعنا وتلبية متطلبـاته) .

(مربي من دار الطفل)

جهد فلسطينيو ٤٨ ايضا لتعزيز التطور الاقتصادي والاجتماعي داخل جماعتهم الى جانب نضالهم للمحافظة على مصدر رزقهم ، فقد تأسست عشرات الجمعيات المتطوعة خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة لخدمة الجماعة في شتى المجالات : كالثقافة والشباب والصحة . وفي نهاية الثمانينات قدر عـدد الجمعيات المتطوعة بحوالي ثمانين جمعيـة رئيسـية . ولفشلها في الحصـول على الأموال من الهيئات الحكوميـة الاسرائيلية ، ولكون الميزانية المخصصة للمجالس البلدية العربية ليست سوى جزء يسير من المبالغ المخصصة للمجالس اليهودية ؛ لذا عملت هذه الفئات على جمـع الأموال من الجماعة نفسـها ومن وكالات التنميـة والمؤسسات الخيرية في الخارج . ومن خلال جهدها في توليد الاحساس الفلسطيني بالاعتماد على النفس ، عملت أيضا على توليد احترام الذات وتعزيز الشـعور بالهويـة .

لقد تم توثيق سياسة التمييز التي واجهها فلسطينبو ٤٨ في المجال الاجتماعي ــ الاقتصادي بشكل جيد . فقد وصفت الأستاذة (إيللا ويستلاند) التي عملت مع فلسطيني ٤٨ عام ١٩٦٩ ، التغييرات التي طرات في العشرين عاما الأخيرة ونشرتها في صحيفة (ميدل إيست انترناشيونال) الصادرة في ١٩ كانون الثاني عام ١٩٩٠ . وذكرت بأنه يمكن تلخيص المزاج السائد بين فلسطيني ٤٨ في بداية العقد الجديد بكلمتين رئيسيتين هما : البقاء والصمود . ولكنها حذرت من امكانية شعورهم بالضجر من هذا الصراع الشاق ، وتطلعهم الى ولادة انتفاضة .

(لاحظت من خلال لقاءاتي مع عدد من الأشخاص أن مستوى الثقافة والطموح المؤثر على نحو متزايد لدى جيل ما بعد ١٩٦٧ من الطلاب العرب الذين تركوا مقاعد الدراسة ، لم يزل حاجزا واحدا من طريقهم إلا ليضعهم أمام الآخر . فقد انتشرت سياسة التمييز العنصري وخاصة في مجال العمل . فعلى سبيل المثال : يشتري (فريد) حانة من شخص يهودي باعتبارها مؤسسة تجارية ثم يكتشف حرمانه من الحصول على رخصة لاستمرار العمل . يكتب (نبيل) في مجلة الحزب الشيوعي ثم يكتشف أن المدرسة التي قدمت له العمل لا تستطيع أن تحصل على موافقة الحكومة الضرورية لاستخدامه . تحصل (ليلى) على عمل في مصرف ، ولكن بعد مضي عشرين عاما تكتشف بأن موضوع ترقيتها كان يهمل باستمرار . ولا يحق لأي فلسطيني ، مهما كانت مؤهلاته ، أن يجد عملا في مجال الأعمال الالكترونية ؛ فقد حرم الفلسطينيون من الأعمال التي تعتبر بالغة الدقة وذلك لأسباب أمنية) .

كان التمييز العنصري ضد فلسطيني ٤٨ موضوعا لدراسة جديدة كلف بها (المركز الدولي اليهودي الاسرائيلي للسلام في الشرق الأوسط) ومولته مؤسسة (فورد) ، وأطلق عليه العنوان التالي : (ظروف وأوضاع العرب في اسرائيل) . وأعلنت النتائج بشكل واسع وكشفت عن بعض الاحصائيات التالية : يقع ٤٠٪ من الأسر العربية تحت خط الفقر ، ويعيش حوالي ٢٦ر٤٪ من العائلات العربية في ظروف غير

مريحة على الاطلاق ، في مقابل ١ر١ ٪ من العائلات اليهودية التي تعيش في المستوى ذاته . يضاف الى ذلك تخلف المجالس العربية المحلية على الدوام عن نظيرتها اليهودية في جميع المجالات ، وخاصة مخصصات الميزانية .

وسعى الفلسطينيون أيضا الى تحليل مشاكلهم وتدعيمها بالوثائق في المجال الاجتماعي (راجع الفصل الثاني) . لهذا السبب عقدت مؤتمرات حول الثقافة عام ١٩٨٤ ، والصحة عام ١٩٨٦ ، والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية عام ١٩٨٧ . نجح مؤتمر عام ١٩٨٧ باثارة اهتمام واسع النطاق ، ومهد الطريق (ليوم المساواة) في حزيران ، وشارك في رعاية المؤتمر : « اتحاد خريجي الناصرة النشط » (الذي تأسس عام ١٩٧٣) ، « لجنة الدفاع عن الأرض العربية » ، و « اللجنة الاقليمية لرؤساء المجالس المحلية العربية » . وكما قال سكرتير اتحاد الخريجين الباحث الفرنسي (مروان دويري) : (يشعر الناس بأن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في القطاع العربي مؤلمة الى حد كبير) . وقامت اللجنة التنظيمية ، في اطار تحضيراتها للمؤتمر ، بعقد أربعين اجتماعا في القرى والمدن العربية ، الأمر الذي ساعد على تقييم الأوضاع في كل موقع على حدة .

وحضر المؤتمر عند انعقاده ٤٥٧ فلسطينياً (منهم ٣٩ شخصا من رؤساء واعضاء المجالس ، ٧٤ معلماً وباحثاً اجتماعياً ، و ٧٠ نقابياً واقتصادياً وطبيباً ومحامياً . وبلغت نسبة النساء الحاضرات حوالي ٣٢ ٪ من العدد الاجمالي) . قدّر المتحدثون في المؤتمر نسبة البطالة بأنها تتراوح ما بين ٢٠ ــ ٢٣ ٪ من قوة العمل العربية . وذكروا بأن ٥٠ ٪ من العمال العرب يتلقون اجور تنخفض عن الحد الأدنى ، ويبلغ مستوى الأجر العربي ٦٠ ٪ من الأجر اليهودي . أما مشكلة السكن فقد بلغت مرحلة التأزم : إذ أن ٢٤ ٪ من العائلات العربية يعيش ثلاثة أو أكثر من افرادها في غرفة واحدة وذلك بالمقارنة مع ١ ٪ من العائلات اليهودية . وفي حي « العجمي » في يافا كان يوجد ١٣ ٪ من رؤساء الأسر العربية في

السجن ، بالمقارنة مع٦٪ من رؤساء العائلات اليهودية . وبلغت نسبة متعاطي المخدرات ٣١٪ من العرب بالمقارنة مع ١٥٪ من اليهود . ويحتاج حوالي ٣٤٪ من العائلات العربية الى خدمات اجتماعية ، بالمقارنة مع ١٧٪ من العائلات اليهودية . وبلغت معدلات التخلف عن الدراسة نسبة عالية ، حتى أن حوالي ٥٠٪ من الطلاب العرب لا يصلون الى المدارس الثانويـــة .

التربية والتعليم من أجل التغيير :

في الثمانينات بلغت الولادة العربية الجديدة مداها الكامل ، وانصبت المزيد من الجهود في مجال التربية والتعليم بعد أن أحس العـــرب بأنه عنصر حاسم في التطور السياسي والاقتصادي للفرد وللمجموعة ككل ؛ وعلى أية حال ، كان من الضروري بذل المزيد من الجهد في هذا المجال . في مقالة نشرت فيمجلة (المواكب) في عددها الصادر في ٢ ــ ١١ كانون الأول عام ١٩٨٥ ، أشار المربي الفلسطيني الراحل الدكتور (ســـامي مرعي) الى أنه على الرغم من انخفاض معدل الأمية العربية الفعلية من ٦٤٪ في عام ١٩٦١ الى ٥ر٣٠٪ في عام ١٩٧٩ ، الا ان القطاع العربي كان متخماً بالصعوبات . في العام الدراسي ١٩٨١ ــ ١٩٨٢ اضطرت المدارس العربية لاستئجار ما يقارب ٥٠٠٠ غرفة لاستيعاب تلاميذها (بالمقارنة مع ١٠٠٠ غرفة في القطاع اليهودي) ؛ ومن أصل ٩٩٠ر١١ طالب عربي بدؤوا المرحلة الاعدادية عام ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ ، وصل فقط ٨٢٧ر٣ طالب الى الصف الثاني عشر ، نهاية المرحلة الثانوية .

في مقالة أخرى نشرتها صحيفة (دراسات فلسطينية) عام ١٩٨٥ ، عالج الدكتور مرعي مضمون التربية والتعليم الفلسطيني . فبالاضافة الى منهاج الدراســـة الذي يعكس الفـــكر الصهيوني ومعلوماتـــه ، تعرض الفلسطينيون الى مزيد من التجزيء بسبب إغلاق المدارس الاسلامية الخاصة بعد قيام دولة اسرائيل ، والسماح للمدارس المسيحية فقط بالاستمرار . وعلى الرغم من أن نصف الطلاب في المدارس المسيحية كانوا من المسلمين ، فقد ذكر الدكتور مرعي بأن :

(تركز هذه المدارس باستمرار على التجـربة الوجودية المتعلقـة بالفصل بين الطوائف المسيحية المختلفة ، إذ تحافظ كل منها على شبكتها الخاصة ، وكذلك الفصل بين المسيحيين وغير المسيحيين من مسلمين ودروز ، فيما يتعلق بالنظام التربوي العام للدولة . من ناحية أخرى ، صممت مدارس الدروز لتعزيز الطائفية باعتبار هذه المدارس منفصلة من الناحية التنظيمية . وفي الوقت نفسه ، تؤيد الهوية الدرزية ، وغير العربية ، وغير الفلسطينية ، بطريقة مباشرة من خلال منهاجها الدراسي وخطتها التعليميـة) .

واختتم (مـرعي) حديثـه بتوجيـه نداءٍ للوحـدة في الثقافـة الفلسطينية .

وفي مقابلة اجرتها صحيفة (جيروزالم بوست) في ٢ إيلول عـام ١٩٨٦ حول المشكلة ذاتها مع رئيس لجنة المتابعة للتربيـة والتعليم في القطاع العربي والأستاذ المحاضر في جامعة تل ابيب (ماجد الحـاج) ، اشتكى من ان المنهاج الدراسي كان يهودي الاتجاه الى حد كبير ، ومن تجنبه ذكر ما تعتبره المؤسسة (قضايا حساسة) مثل : الثقافة العربية، التاريخ الاجتماعي والقومية . واكد انه يتوجب على المربين العرب أن يقولوا اكثر مما يقولونه الآن اثناء صياغة منهاج التدريس) .

اما في القطاعات الأخرى فقد ابتدأ فلسطينيو ٤٨ بجمع المعلومات التي تفيدهم في شن معركتهم ، وبعقد عدة مؤتمرات حول التربية والتعليم العربيين . ثم بعد ذلك بدؤوا هجومهم : وأعلن عام ١٩٨٧ عام التربيـة والتعليم العربيين . وعقد أسبوع التربية والتعليم العربي في حزيران عام ١٩٨٧ ، وفي الأول من ايلول استهل العام الدراسي باعلان الاضراب ليوم واحد ، عندما احتج ٢٣٠,٠٠٠ طالب عربي على مستويات الخدمات والهيئة التعليمية ، وأغلقت المجالس العربية أبوابها أيضاً احتجاجاً على هذا الوضع . كان هذا الاضراب الخامس خلال هذا العام الذي نظمته المجالس المحلية بمشاركة المدارس احتجاجاً على الأوضاع السائدة .

طالبت المجالس المحلية العربية ـ أسست اللجنة الاقليمية لتلك المجالس لجنة المتابعة للتربية والتعليم العربيين ـ ببناء ٣٠٠ غرفة تدريس كل عام ولمدة خمس سنوات لكي تستوعب ٤٠٠٠ مدرس عربي اضافي . وتظاهر العرب ايضاً أمـام مبنى وزارة التربيـة والتعليم في القدس في ٩ ايلول ١٩٨٧ ، وهتفوا ببعض الشعارات مثل : (نرفض أن نكـون عمـالا نقطع الخشب ونسحب الماء) ، تلك هي الصـورة التي رسمها الصهاينة للفلسطينيين منذ الأزل وحتى يومنا هـذا .

ذكرت صحيفة (الهدف) في رسالتها الاخبارية الصادرة في عـدد ايلول عام ١٩٨٧ معلقة على الاحداث بأسلوب جاف : (لم يخل القطاع اليهودي تماما من الاضراب في اليوم الأول من العام الدراسي ، فقد منـع الأهالي في مدينة بيت شمن ، الواقعة شمال الضفة الغربية ، أطفالهم من الذهاب الى المدرسة احتجاجا على نقص مكيفات الهواء في غـرف التدريس . في مجتمعنا سنكون ممتنين لنعمة وجود غرف التدريس التي توضع فيها مكيفات الهواء) .

أخيرا قدمت الحكومة خطة خمسية لحل أزمة غرف التدريس في القطاع العربي ، ورحب (ماجد الحاج) بهذه الخطة ونسب تحـرك الحكومة الى نضال المواطنين العرب ، كما ذكر في حديث نشرته صحيفة الاتحاد في ايلول عام ١٩٨٧ :

(اعترفت الوزارة علنا بنقص ٤٠٠ غرفة تدريس فقط ، إلا ان لجنة المتابعة قامت بدراسة ميدانية مفصلة قدمت الى الوزارة في عدة اجتماعات في الصيف الماضي ... تظهر الحاجة الى أكثر من ١٤٠٠ غرفة تدريس ... وتعهدت الخطة الخمسية ببناء ٧٤٠ غرفة تدريس ، اي بمعدل ١٤٨ غرفة كل عام ، بالاضافة الى ذلك ، في السابق كان يكفي بناء أكثر من ١٠٠ غرفة تدريس لاستيعاب الزيادة الطبيعية . إذاً في نهاية السنوات الخمس سيصبح العدد الاجمالي ١٢٤٠ غرفة) .

لخص النضال من أجل التربية والتعليم النهج الذي اتبعه فلسطينيو ٤٨ ، فقد احتجوا وتظاهروا ، من ناحية ، من أجل الحقوق المتساوية التي قدمتها اسرائيل بشكل اسمي الى مواطنيها . ومن ناحية ثانية ، وكما سنرى لاحقا ، لم ينتظروا المعونات من الحكومة ، بل تبنوا سياسة الاعتماد على النفس من أجل توفير التسهيلات وتطويرها .

نشأت لجان الأهالي العرب في مختلف أنحاء البلاد ، ومارست ضغوطها على السلطات الحكومية المحلية كي تتحرك . فعلى سبيل المثال ، بذل الآباء العرب في يافا جهودا كبيرة للحصول على مدرسة حكومية جديدة في نهاية السبعينات . ففي عام ١٩٧٨ لم يكن لديهم سوى مدرسة حكومية واحدة واربع مدارس خاصة توفر الخدمات الثقافية للطلاب ، واضطرت المدارس الخاصة لرفض حوالي ٢٠٠ متقدم ، ونتيجة لذلك تم تحويل مبنى قديم الى مدرسة ابتدائية الحقت بالمدرسة الثانوية الشاملة . وفي عام ١٩٨٠ تم فصلها عن المدرسة الشاملة واطلق عليها اسم (مدرسة الأخوة) .

نشرت صحيفة الاتحاد في عددها الصادر في ٢٦ شباط ١٩٨٧ حديثا لمدير (مدرسة الأخوة) يصف التقدم الذي أحرزته مدرسته :

(في عام ١٩٨٠ ابتدأنا بـ ١٨٧ طالبا من الصف الأول وحتى السادس ، وذلك قبل أن ننفصل عن المدرسة الثانوية .... وعندما بدأ العام الدراسي ، نظم أهالي الطلاب اضرابا وطالبوا مجلس البلدية بنقل أطفالهم من البناء المتداعي . وفي نيسان عام ١٩٨١ ، أي من العام الدراسي ذاته ، انتقلنا الى هذا البناء ، الذي كان يستعمل كمدرسة يهودية ، كانت قد انتقلت بدورها الى بناء آخر . كان البناء متهدما ، لذا قمنا بتجديده وتحسينه ، وهدمنا مستودعا كان في وسط فناء المدرسة . وقمنا أيضا باصلاح الجدران ورصف جزء واسع من الفناء، وزرعنا حوالي خمسين شجرة ، بالاضافة الى زراعة الحديقة . وقدمت لجنة الأهالي المساعدة عن طريق تقديم مواد البناء والغراس من أجل الحديقة) .

ذكر مراسل صحيفة (الاتحاد) :

(ينسى الزائر لمدرسة الأخوة في يافا ، ولو لبرهة وجيزة ، الحالة المتهدمة للمدينة . انها حقا مدرسة جميلة ذات فناء نظيف وواسع . ولا تزين الصور الزيتية فقط جدران الفناء ، بل غرف التدريس وبيت السلم . وتشاهد في الزوايا والشقوق « معارض » صغيرة لوقائع فنية صنعتها أيدي الأطفال) .

بحلول عام ١٩٨٧ ، بلغ عدد طلاب المرحلة الابتدائية ٤٣٢ طالبا ، وغطى مجلس البلدية جزءا من ميزانية المدرسة ، إلا أن معظم المساعدات كانت تقدم من الأهالي والأوقاف .

وبشكل مشابه ، استوعبت احدى المدارس الابتدائية في مدينة رام الله العربية ـ اليهودية ٧٣٠ طالبا في عدة غرف مؤجرة انتشرت في انحاء المدينة . فقد تضرر بناءان بسبب انفجار خزانات المياه فوجب تدميرهما . فنظم الأهالي اضرابا لمدة ثلاثة أسابيع أثناء العام الدراسي ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ لاجبار مجلس البلدية على تنفيذ اتفاق يقضي بنقل الطلاب الى بناء كانت تشغله مدرسة يهودية . تقدم الأهالي فيما بعد بمساعدة من لجنة المتابعة ، بالتماس الى المحكمة العليا .

في مدرسة الأمل الابتدائية في المدينة العربية ـ اليهودية عكا ، حيث كان الطلاب يضطرون لحمل المظلات داخل غرف التدريس ، قدم مدير المدرسة استقالته احتجاجا على الأوضاع التعيسة وعلى عدم رغبة السلطات بالاستجابة الى مطاليبه باجراء الاصلاحات . ذكرت صحيفة (الاتحاد) في ٨ كانون الثاني عام ١٩٨٨ :

(تعتقد للوهلة الأولى بأنك تدخل الى معسكر للتدريب أو مبنى مهجور بسبب البرد ، إذ لا يوجد في المدرسة أي نوع من أنواع التدفئة . ويعانق أسقف غرف التدريس المطر الذي يتدفق عبر السقف ويشكل بركا صغيرة تحت أقدام التلاميذ . كان المدرسون يضطرون الى دفع

جميع المقاعد الى زاوية الغرفة ، حيث لا يرشح السقف . وكان أسوأ شيء هو رؤية الطلاب يرتعشون من البرد ، وخاصة أن احد الأبنية المدرسية يقع بجانب البحر) .

اخيرا ونتيجة للضغوط التي مارستها لجان الأهالي ، بدأ العمل ببعض الاصلاحات ، وعاد المدير الى عمله .

وفي (عرابا) بني دور إضافي في المدرسة على نفقة الأهالي ، الذين شاركوا ايضا في اعمال البناء . في الواقع ، ووفق معلومات لجنة المتابعة، خلال عقد الثمانينات تم بناء ٣٣٣ غرفة تدريس بتمويل من مصادر خاصة ، وقامت الحكومة ببناء ٣٨٣ غرفة خلال الفترة ذاتها .

وقامت لجان الأهالي بدور فعال ايضا في محاولتها تحديث التسهيلات المدرسية ، وذلك على سبيل المثال ، بشراء الحواسب الالكترونية من اجل مدارس اطفالهم ، والتي تعتبر أمرا جوهريا بالنسبة لمهنهم المستقبلية ، وكانت مدارسهم تفتقر الى التجهيزات بالمقارنة مع المدارس اليهودية . وقدر وقتها أن كل مدرسة تحتاج الى ما يقارب ٣٠,٠٠٠ دولار لشراء ما يكفيها من الحواسب الالكترونية . وعن طريق الهبات المحلية والدولية تمكن الأهالي من تجهيز ١٤ مدرسة عام ١٩٨٥ ، و ١٧ مدرسة اخرى عام ١٩٨٦ . وفي مدرسة الكرمل في حيفا، (وطيران) في الجليل الشرقي ، تبرع الأهالي بنتاج عملهم لبناء غرفة تدريس خاصة للتدريب على الحاسب الالكتروني .

وفضلا عن لجان الأهالي ، انتظمت لجان المعلمين بشكل تلقائي لتحاول الرفع من حماس الطلاب ومهاراتهم ولتشجع التفوق . ودلت النتائج على أن اي تقصير من قبل الطلاب العرب يعود سببه الى نقص الفرص اكثر منه الى نقص الحماس . في عام ١٩٨٦ قامت مجموعة من مدرسي الرياضيات بتنظيم مباريات على مستوى القطر للطلاب من الصف الرابع الى العاشر (راجع مجلة التنمية ، آذار ١٩٨٨) . كانت

الاجابة على المجموعة الأولى من أسئلة الرياضيات ساحقة ، إذ نجح في معرفة الحل ٢٧٠٠ طالب . وكما ذكر على لسان أحد أعضاء اللجنة: (لم نكن نتوقع مثل هذه الاستجابة من الطلاب ، وعلى الرغم من أن عملية تحضير الأسئلة ، وفحص الاجابات ، والرد على كل تلميذتستغرق وقتا طويلا ، إلا أن اللجنة تمكنت من القيام بمهمتها على أكمل وجه). وفي حزيران عام ١٩٨٧ اشترك ١٤٢٧ تلميذا في مباراة لمادة الرياضيات من أكثر من مئة مدرسة ، وكوفىء حوالي سبعون طالبا منهم بشهادات امتياز في احتفال أقيم في الناصرة ، وأرسلت شهادات امتياز الى ٣٥٠ طالب آخرين بواسطة البريد) .

ولاظهار دليل آخر على تعطش التلاميذ للمعرفة ، اسس عرب حيفا مجلة للأطفال تدعى (الحياة للأطفال) في عام ١٩٨٥ ، وسرعان ما تلقت حوالي ٣٠٠٠ رسالة اجابة على امتحاناتها الموجزة . وبدأ أيضامدرسوا العلوم في المدرسة الأرثوذكسية العربية في حيفا باصدار مجلة نصف شهرية تدعي (سيغما) عام ١٩٨٤ ، وفي كانون الثاني عام ١٩٨٤ بدأت مجلة نصف شهرية أخرى بالصدور أطلق عليها اسم (الأوربيتال) .

وقام الطلاب من جهتهم أيضا بتنظيم أنفسهم في لجان على المستويين الاقليمي والمحلي . فعلى سبيل المثال ، أسست (جمعية الطلاب العرب) في عكا في عام ١٩٨٣ في مبنى استأجر من الأوقاف ، وضمت حوالي ٦٠٠ عضو وقام الطلاب بجمع الكتب من الخريجين وبيعها لطلاب آخرين بسعر مخفض لا يتجاوز شيكلا واحدا ، وتم شراء كتب جديدة بالمبلغ المتوفر . وقاموا أيضا بتنظيم دروس تطوع بإلقائها خريجون جامعيون لرفع المستويات التعليمية لطلاب المدرسة الثانوية . وحاول الطلاب مد يد العون الى مدمني المخدرات وعائلاتهم ، وذلك عن طريق تعليمهم مهنة ما ، وتوزيع الكتب المجانية على أطفالهم . وفي الجانب الثقافي ، قاموا بتشكيل مجموعة فولكلور فلسطينية .

الانتقال الى اشياء اعلى :

ازداد يوما بعد يوم عدد الفلسطينيين المنتسبين الى الجامعة . فقد قدر (ماجد الحاج) بأن عدد الخريجين الجامعيين الفلسطينيين قد ارتفع من ٣٥٠ طالب عام ١٩٦٠ الى ١٠,٠٠٠ طالب عام ١٩٨٨ ، ٢٢٪ منهم من العنصر النسائي . ولكنهم اجبروا أيضا على الدراسة ضمن الاطار الصهيوني للمرجع ، دون الاقتراب من المواضيع (الدقيقة) مثل علم الالكترون ، واستمروا في مواجهة سياسة تمييز مقنعة ولكن فعالة حتى في بعض المواد كالطب على سبيل المثال .

قدم كل من الرازق وأمين ودافيش مثالا مبكرا على هذا الوضع عام ١٩٧٨ :

(في اعقاب حرب ١٩٧٣ قدمت أيضاً مدرسة الطب في جامعة القدس العبرية شرطا جديدا ينص على انه يتوجب على كل مرشح لم يخدم في الجيش الاسرائيلي — حيث لا يخدم العرب بشكل عام — وقبل انتسابه الى مدرسة الطب ان يتم عامين من « الخدمة الوطنية » المقبولة) .

وفي الوقت نفسه ، اشتكى الاطباء العرب الذين تجنبوا تلك القوانين بدراسة الطب في الخارج ، من المعاملة الجائرة التي يتلقونها نتيجة قرار اتخذ في اواخر عام ١٩٨٨ يقضي بانه يتوجب على الطلاب الذين درسوا في الخارج أن يجتازوا امتحانا في اسرائيل لكي يتسنى لهم ممارسة الطب ، وذكروا بأن ٤٪ فقط من الاطباء العرب اجتازوا ذلك الامتحان :

(لم ينجح احدمن الطلاب العرب الذين تخرجوا من الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا او هنغاريا ، بينما نجح حوالي ٨٥٪ من اليهود المهاجرين من تلك الدول . وطالبت اللجنة وزارة الصحة التي اعترفت بهذه الارقام ، بأن تلغي هذا الحكم الاستبدادي وتنتهج طريقة جديدة غير متحيزة لتدريب الاطباء العرب . (صحيفة الفجر ، ٢٣ كانون

الثاني ١٩٨٩) . وهناك المزيد من الحوادث فعلى سبيل المثال في أيار عام ١٩٨٧ اصدرت الحكومة قرارا يقضي بأنه يتوجب على طلاب الجامعة الذين لم يؤدوا الخدمة العسكرية أن يدفعوا مبلغا اضافيا من المال — وهي وسيلة خفية لفرض رسوم أعلى علىالعرب الذين لا يؤدون الخدمة العسكرية . فكان على الطالب العربي أن يدفع رسما مقداره ١٥٥٠ر١ دولارا ، في مقابل ١٠٥٠ر١ يدفعها الطالب اليهودي ، الامر الذي أثار صخبا بين العرب واليهود على حد سواء . وفي الحال أعلنت ثلاث جامعات : حيفا والقدس وبئر شبعا ، عن رفضها تنفيذ هذا النظام المزدوج للرسوم . ونقلت صحيفة الاتحاد في عددها الصادر في أيار عام ١٩٨٧ عن رئيس جامعة تل ابيب قوله : (ان الجامعة التي تحترم نفسها سترفض التقيد بالجهود التي تنوي تحويلها الى وسيلة لتنفيذ اجراء ينطوي على تمييز عنصري واضح) . وأرسلالعديد من اساتذة الجامعة اليهود برقيات احتجاج الى الحكومة ، ونقل عن لسان أستاذ في جامعة بئر شبعا قوله : (سوف القي اليوم محاضرة عن القوانين المتبعة في نورمبرغ ، انا مواطن صهيوني فخور بانتمائي هذا ، الا أنني اشعر بالخجل والاهانة من قرار الحكومة العنصري) . وبعد حوالي شهر تنازلت الحكومة عن مطلبها وقررت أن تحدد رسما تدره ١٣٥٠ر١ دولارا للطلاب كافة . عارضت السلطات الجهود الفلسطينية لاشادة جامعة عربية تجنب طلابها سياسة التمييز ، وذكر (مرعي) :

(ان الافتقار الى مثل هذه المؤسسة يحد من وصول العرب الفلسطينيين في اسرائيل الى مرتبة البحث والانتاجية العلمية ، وبالتالي يكبت معرفتهم الشخصية ودراستهم للقضايا الاجتماعة ، وكذلك يقلل من قدرتهم على التعرف ، ولو بطريقة علمية ، على المشاكل الاجتماعية للتغلب عليها بهدف تحضير الاسس الصحيحة في الحاضر للحصول على مستقبل مرتجى) .

١٩٨٥

الحصول على الحاجات التربوية والتعليمية الخاصة :

قام فلسطينيو ٤٨ بدور فعال أيضا في بعض القطاعات الخاصة المهملة كليا مثل تعليم رياض الاطفال وأساليب التربية والتعليم التكنولوجية . ففي مجال رياض الاطفال . كانت الهوة شاسعة بين القطاعين العربي واليهودي . اذ تدل الارقام الواردة باستمرار أن ١٠٪ فقط من الأطفال اليهود لم يلتحقوا برياض الاطفال ، في حين نجد انه حوالي ١٠٪ فقط من الاطفال العرب قد التحقوا بتلك الرياض . فضلا عن ذلك نجد أن الرياض الموجودة في القطاع العربي قد تم تأسيسها لهذا الغرض بالذات ، من قبل متبرعين أو كمشاريع تجارية استثمارية واعتمدت في الاغلب على هيئة تدريسية غير مؤهلة .

قدمت رياض الاطفال في القطاع العربي فرصة لعمل ريادي قادته مجموعة من النساء العربيات الجريئات تحت لواء (جمعية نساء عكا العربيات) أو AAWA برئاسة الدكتورة (مريم مرعي) . ثم تأسيس الجمعية عام ١٩٧٥ ، كما ورد في قسم المعلومات التابع لها : (باعتبارها منظمة مستقلة غير حزبية لتلبية حاجات النساء العربيات في مسيرتهن للتحول من تجمع تقليدي الى آخر معاصر ، دون فقدان هويتهن الثقافية والوطنية .

عند المستوى العملي ، واجهت الجمعية المشكلة التي تعاني منها نساء العالم اجمع ، فعندما يحين موعد الاجتماع ، لا تجد معظمهن مكانا لاطفالهن ، فقمن برعاية الاطفال بالتناوب بينما تحضر الاخريات الاجتماعات . لفت هذا الموضوع انتباههن الى غياب التسهيلات الضرورية للاهتمام بالطفل ، وذلك بالنظر الى التغييرات الحاصلة داخل العائلة العربية وفي دور المراة الاقتصادي بعد أن انتقلت من المنزل الى نظام الاجرة الاقتصادي . الا أن اعضاء (جمعية نساء عكا العربيات) اردن تحقيق المزيد ، فالبعض منهن مربيات ويدركن أن السنوات

الاولى من حياة الطفل هي الاكثر تأثيرا في التكوين ، في حين لا يتلقى اطفالهن الخدمات اللازمة لذلك . (راجع قصة سهام في الفصل الخامس) .

فقامت الجمعية بتأسيس مشروع رائد : (دار الطفل العربي في عكا) وذلك لتربية الطفولة المبكرة والعناية بالاطفال دون سن السادسة . يعتبر (دار الطفل العربي) مركزا اقليميا هاما يوفر التدريب اللازم للمعلمين والموجهين في رياض الاطفال ، بالاضافة الى أنه ورشة عمل لتصنيع وسائل الايضاح التربوية بتكاليف منخفضة ، ويقدم دورات توعية للاهالي ، ورياض أطفال نموذجية يمكن أن تختبر فيها الاساليب والمواد المقدمة . قام المركز في بداية الامر بفحص شامل للوضع ووجد أنه من أصل ٤٣ صفا في دور الحضانة ، جميعها تحت اشراف ٨٧ معلما هناك ٩٩٪ من المعلمين الذين يتعاملون مع اطفال دون الرابعة من العمر لا يملكون اية مؤهلات على الاطلاق ، وقد عبر جميع المعلمين عن رغبتهم الشديدة بتلقي دورات تدريبية .

استهلت الجمعية نشاطها بدورات تدريبية مكثفة امتدت ٤٠٠ ساعة لجميع المعلمين في رياض الاطفال شملت الـ ٣٠٠ ساعة الاولى اعطاء تعليمات في المركز ، والـ ١٠٠ ساعة الاخرى عبارة عن ملاحظات ميدانية شملت : الموسيقى والفنون والمسرح ، بالاضافة الى ملاحظات عن الصف ودراسة نفسية الطفل . وعند نهاية العام الاول تم تدريب ما يزيد عن مئة معلم ، وخلال السنوات الثلاث الاولى ، قام مركز دار الطفل العربي برفع رهن عن منزل قديم وجهزه لاستعماله الخاص ، فتم تأسيسه وتجهيزه بالمعدات المكتبية وكذلك أجهزة لورشات العمل التربوية ومن ضمنها : آلة تصفيح وجهاز تكبير ، وأجهزة تلفزيون واشرطة تسجيل وجهاز لتسليط الصور على الشاشة ، ومسجلة وماكينة للخياطة .

بالاضافة الى اعادة تأهيل المعلمين ، والعاب التطوير والموادالتربوية والتسهيلات الانشائية ، باشر مركز دار الطفل باقامة دورات للاهالي

امتدت ثلاثة اشهر . ولاقت ترحيبا كبيرا لدرجة أن الكثير من الاهالي طالب بتمديدها ثلاثة اشهر اضافية . وفي زيارة للروضة النموذجية في دار الطفل يمكنك أن ترى الاولاد والبنات يتعلمون طريقة عمل (فطائر البيتزا) العربية المغطاة بزيت الزيتون والزعتر ، اذ يدرك المربون أهمية مشاركة كلا الجنسين في مسؤولية ادارة المنزل .

وربما كان الجانب الاكثر تأثيرا في (جمعية نساء عكا العربيات) و (دار الطفل) هو ان الكثير من النساء المشاركات في العمل فيهما هن من المتطوعات ، والمنطق الذي يقودهن جميعا ، كما قالت احدى المربيات ، هو :

(انه ينظر الى العرب الاسرائيليين على أنهم ضحايا سلبيين لصراعات (النظام الاعلى) ، وحتى تتغير العلاقات السياسية بشكل مفاجيء ، سيبقى المواطن الفرد عاجزا في وجه الصراع . وقد رفضت (جمعية نساء عكا العربيات) هذه الخلاصة باستمرار ، مؤكدة انه ، على النقيض تماما ، من الضروري ايجاد مؤسسات مستقلة يمكنها أن تقدم الخدمات المناسبة لمجتمعنا ومتطلباته) .

وكانت المحاولة الهامة التالية في مجال التعليم الخاص تأسيس الصندوق المالي من اجل تنمية التربية المهنية والتقنية في القطاع العربي . نادى لهذه المحاولة الطوعية المربون العرب وعلى راسهم : (ابراهيم عودة) ، ودعمتها اللجنة الاقليمية لرؤساء المجالس العربية المحلية ذات الوجود الكلي . ففي المؤتمر التقويمي الذي عقد في ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٨٥ تم جمع حوالي ١٢٠,٠٠٠ دولارا . ولا سبيل للشك في حماس فلسطيني ٤٨ لفكرة الصندوق . فعلى سبيل المثال في ايلول عام ١٩٨٥ تحول عرس جرى في قرية (موشيه رفح) بجانب ام الفحم الى حدث عفوي لجمع الاموال لصالح صندوق التكنولوجيا بعد أن تحدث احد الشعراء عن نشاطات ذلك الصندوق . وللصندوق هدفان متكاملان ، الاول : تطوير الفلسطينيين على المستويين التربوي والتدريبي ،

والثاني : تطوير الصناعة التقنية الرفيعة ، فمن الواضح أن العرب تخلفوا كثيرا في هذا المجال ، إذ أعلن الصندوق أن ٦٠٪ من الطلاب الاسرائيليين في المدارس الثانوية يتلقون الدراسة التكنولوجية ، بينما تبلغ نسبة الطلاب العرب في هذا المجال ٦٪ فقط من العدد الاجمالي . اذ لا يوجد في القطاع العربي سوى مدرستين للدراسة التكنولوجية ، ومدرستين للدراسة الزراعية .

في نهاية دورة الحواجز ، اعطى (عدنان الرزاق) مثالا معبرا عن المصاعب التي واجهها العرب في مجال العمل بعد أن تمكنوا من التسجيل في دورات التكنولوجيا والتخرج منها :

(لتوضيح الوضع : منذ عامين تقريبا تم تأسيس لجنة خاصة بالتكنولوجيا برئاسة العميد السابق للطلاب ، « الاستاذ دوري » ، وذلك بهدف تسهيل تعيين الخريجين التقنيين العرب في مجال الهندسة في المعامل والشركات الصناعية الاسرائيلية . عملت اللجنة بجد لمدة ستة أشهر دون أن تنجح في تعيين خريج تقني عربي واحد في مجال الهندسة في أي عمل مناسب في مصنع اسرائيلي ، لذا انحلت تلك اللجنة) لذا لا تدهشنا التقديرات الصادرة في منتصف الثمانينات والتي تفيد بان ٤٢٪ من المهندسين العرب لم تسنح لهم الفرصة للعمل ، أو يعملون في مجالات لا تمت لاختصاصاتهم بصلة .

وفي عام ١٩٨٦ قدم الصندوق قروضاً بفائدة مخفضة الى ٢٣ مدرسة عليا من أجل تحسين مستوى التسهيلات المتوفرة لديهم في مجال العلوم والتكنولوجيا . وفي عام ١٩٨٨ قدم الصندوق المساعدة الى عشر مدارس في عشر قرى لتأسيس اقسام كهربائية والكترونية . وتلقت المدارس الابتدائية في قريتي جسر الزرقا وكفر قنا مبلغ ٢٠٠٠٠٠ دولاراً من المانيا الغربية ، عن طريق الصندوق ، لشراء أجهزة لاقسام الخياطة وورشات المعادن . فضلاً عن ذلك ، أرسل الصندوق ١٦ مديراً من مدراء المدارس الثانوية الى المانيا الغربية لدراسة المناهج والطرق المتعلقة بالتعليم التقني .

لم يكن الصندوق قادراً في ذلك الوقت على بذل المـزيد لتحسين الصناعة التقنية العالية ، على الرغم من وجود إدراك شديد بأن هـذه الصناعة يمكن أن تكون سبيلاً للتعويض عن خسارة الأرض الزراعيـة ، والتخفيف من مشكلة البطالة العربية الخطـيرة . وكما ورد في عـدد (الاتحاد) الصادر في ١٨ حزيران عام ١٩٨٦ ، كان الكثير من الرأسماليين العرب على استعداد لتأسيس عدد من الأعمال الصناعية في حال توفر تسهيلات مشجعة ومناطق تطور ، كما هو الحال في القطاع اليهودي .

ولكن في الثمانينات ، لم يكن هناك سوى معملين كبيرين يعودان الملكية عربية ، الأول لأعمال الحديد والفولاذ تملكه عائلة (قضماني) ، ويقـع في قرية الجليل في يرقة ويضم ١٥٠ عاملاً . والثاني : معمل للرخام تملكه عائلة (بولس) ويضم ٦٥ عاملاً في مدينة الكرمل . وذكرت الصحيفة أن عائلة (بولس) كانت ترغب بتأسيس مقلع للحجارة بجانب قريتهم ، ولكنها لم تتمكن من ذلك لأن المنطقة لم تكن منطقة تطوير ، لذا لا تتمتع بالشروط التشجيعية في مجـال الضرائب ، والتمويل والتسهيلات ، الميزات التي لم تحرم منها مدينة الكرمل اليهودية . وواجهت عائلـة (بولس) صعوبات كبيرة في مدينة الكرمل ، إذ كان يحرم على العرب دخول المدن اليهودية ، ولكنها تمكنت في النهاية من شراء قطعة ارض وبناء معمل في منطقة التطوير . كانت الحكومة في بعض الأحيان تدعم مثل هذه المواقف لتظهر بأنها لا تتحيز ضد الصناعيين العرب . على اية حال ، يبقى هذا الموقف استثنائياً وليس قاعدة (انظر ايضاً الفصل الثانـي) .

البطالة ، المخدرات والشباب :

لقد ادى تدهور الوضع الاقتصادي في القطـاع العـربي الى تفشي مشكلة البطالة القاسية بين فلسطيني ٤٨ ، وقد قام مراسل صحيفـة (الاتحاد) بجولة في الناصرة وفي المناطق المحيطة بها (في ٢ آذار ١٩٨٦) ، وذكر بأن منطقة النشاط الرئيسية تقع أمام مكاتب العمل ، حيث تمتد

طوابير الشبان في الشوارع . قال (فخري) عامل من قرية « مشهد » يبلغ الأربعين من عمره (ولكن يبدو وقد تجاوز الخمسين) ، بأنه قد طُرد من عمله في عيد رأس السنة لعام ١٩٨٥ :

(أتقدم للتسجيل للعمل ثلاث مرات في الأسبوع الواحد ، مرة في كفر قنا ، ومرتين في الناصرة ؛ وأدفع اجرة المواصلات من جيبي ، وحتى الآن لم احصل على وظيفة . أعيش بالدين من الحوانيت ، وأترك الباقي على الله . نريد انا وزملائي عملاً ، أي نوع من العمل ؛ لا نريد أن نبقى على هذه الحالة من المعاناة والبطالة) .

ولدى سؤال عامل آخر عاطل عن العمل عن الطريقة التي يدبر فيها معيشته صاح : (من قال لك إننا نعيش ؟ فأنا أخجل أن اواجه صاحب الحانوت الذي أستدين منه ، وأخجل من مواجهة أطفالي) . (صحيفة الاتحاد في عددها الصادر في ٢٤ شباط ١٩٨٦) . وقد بلغ الحزن بأحد العمال الى درجة دفعته لمحاولة إضرام النار في مكتب البطالة .

تفشت البطالة في جميع فئات العمال ، فقد علقت مجلة (البيادر السياسية) حول خريجي الجامعات العاطلين عن العمل : (أتم الشاب حنا غريب من مدينة الناصرة دراسته وحصل على امتياز في هندسة الطيران لدى معهد الهندسة التقنية التطبيقية في حيفا . ولكنه لم يحصل على عمل في مجال دراسته ، لذا فتح حانوتاً لبيع أنابيب الألمنيوم في مسقط رأسه .... تخرج الطالب (محمد أبو سمرة) من مدينة بئر القصور وحصل على شهادة متقدمة في علم السياسة من الجامعة العبرية، واضطر بعد فشله في الحصول على عمل في مجال اختصاصه ، الى العمل في فندق في القدس ، ويتابع في الوقت نفسه دراسته للحصول على درجة الماجستير على أمل أن هذا سيحسن فرص حصوله على وظيفة مناسبة .... حصل الطالب (عبد الله غارا) من قرية جيت في المثلث على شهادة الدكتوراه في علم الأحياء من جامعة تل أبيب ، وبعد أن فشل في الحصول على عمل مناسب ، اتجه لدراسة الطب) .

(٢٩ آب ١٩٨٧)

تعتبر البطالة عاملاً مساهماً في مشكلة المخدرات (اقرأ قصة أديب في الجزء الثاني) التي تحولت الى مشكلة خطيرة جداً في السنوات الأخيرة حتى تأثرت بها القرى الصغيرة ايضاً . والعامل الآخر الذي ادى ايضاً الى تفاقم هـذه المشكلة انحلال القيم التقليدية نتيجـة الاحتكاك مع الحضارات الأخرى ، ومع ثقافة مدينة ذات طابع استهلاكي . فاتسعت الفجوة بين الأجيال مما ادى الى نشوء الخلافات العائلية ، ويُرجع عدد كبير من الفلسطينيين سبب التغيير الاجتماعي السـريع الى خسارتهم لأرضهم . فعندما كانوا يعملون في الزراعة ، كان الوالد هو كبير العائلة دون منازع والمسيطر على املاكها الرئيسية . اما الآن وبعد أن تحول معظم العمال الفلسطينيين الى عمال بالأجرة ، ويلتزمون يومياً بالتواجد في مكان عملهم ، فقـدوا بذلك الوقت الذي يجب أن يخصص للحيـاة العائلية ، لذا ضعفت السلطة الأبوية ، ولم يعد بالتالي احترام الكبـير قاعدة سلوكية متبعة . وعبر ذلك احد الفلسطينيين بقوله : (إن التطور التدريجي والطبيعي كان افضل الى حد كبير واقل تخريباً من التغييرات المفاجئة التي خلقت نزاعات حادة ضمن العائلة) .

ويعتبر جيل الشباب ، الذي يشكل الهاجس الرئيسي لفلسطيني ٤٨ ، الفئة الأكثر تأثراً بهذه المشاكل .

إذ تبدأ مشاكل الشباب عند النظام التربوي ، وكما رأينا سابقاً ، كانت التسهيلات المتوفرة لهم غير وافية على الإطلاق ، وبالتالي ارتفعت نسبة المتخلفين عن الدراسة . وقد ورد في تقرير من أم الفحم بأن (١٠٠٧) طالباً (٥١٦ فتى ، و ٤٩١ فتاة) لم يلتحقوا بنظام المدرسة الرسمي ، وذلك من اصل العدد الإجمالي البالغ ٦٢٠٠ طالب تتراوح اعمارهم بين ١٢ و ١٨ عاماً . اما فرص العمل الجيدة المتوفرة للشبان الفلسطينيين فهي قليلة جـداً ، وهم أول من يعاني من ظروف الأزمـة الاقتصادية السيئة . والذين ينهارون نتيجة الضغط الشديد ، لا يجدون ملجأً لهم سوى سبعة مراكز إصلاحية ، لذا ينتهي عدد كبير من الشبان الآثمين الذين يتعاطون المخدرات في السجن .

في عام ١٩٨٨ بدأ فلسطينيو ٤٨ بالتحرك ، فتم تأسيس (جمعية الهلال لمكافحة المخدرات في القطاع العربي) ، وأنشيء خط سريع لمعالجة مدمني المخدرات . والتقت الجمعية التي اتخذت مقرها في القدس مع اللجنة الإقليمية لرؤساء المجالس العربية المحلية لمناقشة خطة العمل . وقد اكد عضو الكنيست آنئذٍ (توفيق طوبي) في اجتماع لأعضاء الكنيست أنه يجب تضمين (جمعية الهلال) كواحدة من ٤٣ جمعية معترف بها في البلاد باعتبارها سلطة تحارب انتشار المخدرات .

وشهد المستوى المحلي أيضاً جهوداً لابأس بها ، ففي ١ نيسان عام ١٩٨٨ أنشأ (مركز للمعالجة من استعمال المخدرات) في قرية (طيرة) ، وذكرت التقديرات انه استوعب حوالي ٥٠٠ الى ٦٠٠ مدمن ، وذلك تحت إشراف طبيب وباحث اجتماعي ، ويستهدف مدمني الكوكائين بشكل خاص . أعتمدت المعالجة على نظام الوحدات التي بلغت حوالي الخمسة ، وانضم للمركز آنذاك اثنا عشر مدمناً للمعالجة . وقد تحملت وزارة العمل ٧٥٪ من التكاليف ، أما النسبة الباقية والبالغة ٢٥٪ فقد تحملها المجلس المحلي الذي بذل نشاطاً ملحوظاً في هذا الموضوع . فقد قدم البناء ، واعطى مكافآت تشجيعية للشبان ، منها اشتراكات مجانية في بركة السباحة ، وتحمل ٥٠ ٪ من نفقات رحلة الى مصر لعشرة مدمنين تحت المعالجة . ولكن واجه المركز مشكلة وهي ان ١١٠ من المدمنين الذين حصلوا على شهادات إدمان ، تمنحهم الحق بالعلاج بالإضافة الى (راتب) شهري ، خافوا من فقدانهم لتلك المكافآت بعد تماثلهم للشفاء ، إلا أن المركز تعهد بمساعدتهم للحصول على عمل مناسب فيما بعد .

وقام فلسطينيو ٤٨ في العقد الأخير ، وكجزء من رد فعلهم تجاه الأزمة الناشئة بين الشبان ، بتنظيم مراكز شبيبية وثقافية في مختلف أنحاء مدنهم وقراهم . وكان هدفهم الرئيسي اجتذاب الشبان لانتزاعهم من الشوارع ومنحهم الاحترام الذاتي ومساعدتهم على تعزيز هويتهم .

ويعتبر مركز (لهدف) نموذجاً جيداً للمركز الثقافي النشط ، فقد تأسس ما بين عامي ١٩٨٤ ــ ١٩٨٥ في أم الفحم ، حيث ارتفعت نسبة البطالة الى حد كبير ، وبدأ العديد من الشبان باللجوء الى المخدرات وتشكيل العصابات .

قدم مركز (الهدف) الشبان نشاطات متنوعة الى حد كبير ، فقد وجه دعوة لبعض المخرجين السينمائيين الفلسطينيين أمثال (ميشيل خليفي) لعقد ندوات (حضرها ٢٠٠ شخص في شباط ١٩٨٦) ، وكذلك دعا بعض الموسيقيين مثل (مصطفى كرد) لإقامة حفلات موسيقية (حضرها ٣٥٠ شخصاً في عام ١٩٨٦) وقدم دروساً في الموسيقا . ولا تنسى النجاح الكبير الذي حققته دورات الكمبيوتر ، إذ قدم المركز خدمات فائقة عندما حول سبعة اجهزة الكترونية الى المدارس العليا في القرى المجاورة . فضلاً عن ذلك ، قام بتنظيم رحلات يومية عام ١٩٨٧، منها رحلة ضمت ٥٨ طالباً من طلاب دورات الكمبيوتر الى مرتفعات الجولان المحتلة . وقدم بعض المتطوعين البريطانيين لإعطاء دورات باللغة الإنجليزية ، شملت ايضاً ثمانية قرى مجاورة .

وبدأ المركز بتنظيم نشاطات تهم النساء بشكل خاص ، تشمل دورات لمحو الأمية للبالغات ، ودروس في المحاسبة ، والخياطة ، بالإضافة الى بعض المحاضرات والمناقشات . ثم اتجه بعد ذلك للعمل حول موضوع إثارة الوعي بين النساء تجاه حقوقهن . فعلى سبيل المثال ، نظم في نهاية عام ١٩٨٩ سلسلة من المناقشات حول موضوعي الزواج والعائلة ، وتم التاكيد على ضرورة وصول النساء (الى درجة من الكفاءة والشعور بالمسؤولية) داخل العائلة طالما ان العائلة تشكل مفتاح المجتمع ، ورد في الإخبارية الصادرة عن مركز (الهدف) في شباط ــ آذار ١٩٨٩ ما يلي : (اشار احد المتحدثين انه ازداد في الوقت الحاضر عدد النساء في أم الفحم اللواتي يستمعن الى الأخبار من وسائل الإعلام المختلفة . ورغم ضآلة اهمية هذا الأمر بحد ذاته ، إلا انه يدل على أن الإدراك السياسي المتعمق

للمجتمع الفلسطيني ككل يولد نتائج خاصة وحتمية بالنسبة للعنصر النسائي الفلسطيني) . وبذل متطوعون من مركز الهدف ما بوسعهم لإنشاء دار حضانة ، حيث يمكن للأمهات ان يتركن أطفالهن ، وشعروا بسعادة غامرة عندما تحققت الفكرة عام ١٩٨٨ ، وضمت الدار ٢٤ طفلاً. وقد ورد في الرسالة الإخبارية : (يدفع كل طفل ١٥٠ شيكلاً شهرياً ، ويحصل على ثلاث وجبات يشرف على تحديدها اخصائي في التغذية . ولا تتضمن الوجبة اللحوم بسبب ارتفاع اسعارها ، ولكننا نعتزم إدراج هذه المادة في الوجبة عندما ترتفع الميزانية) .

بدأ أيضاً مركز (الهــدف) يعمل على محــور وثائقي ، واستهل نشاطاته بتقديم مجموعة من الصور الجوية أخذت لفلسطين عام ١٩١٨ من قبل القوات الجوية الألمانية ، فأرسل بطلبها من المانيا . ولكن يعتبر بناء أول مكتبة عمومية في أم الفحم اضخم إنجاز يبعث على الفخر حققه مركز (الهدف) ؛ وتضم هذه المكتبة ١٠،٠٠٠ كتاب ، وذكروا بانها اكبر مكتبة في القطاع العربي ، ولم تكن المهمة سهلة على الإطلاق .

(كما كان مخططاً ، سافر ممثلان عن مركز الهدف الى مصر لشراء كتب من معرض الكتاب في القاهرة لتجهيز المكتبة . استلمنا بادىء الأمر إجازة استيراد بمبلغ ٢٠،٠٠٠ دولار لشراء الكتب ، ولكن بسبب عدم استقرار الوضع السياسي الراهن قررنا انه يجب في المرتبة الأولى أن نحضر أكبر قدر ممكن من الكتب من مصر طالما الفرصة سانحة لذلك . لذا حصلنا على إجازة استيراد لمبلغ إضافي وهو ١٠،٠٠٠ دولاراً ، وقمنا بابتياع ١١،٠٠٠ كتاب ، ويتوجب الآن تسليمها الى سلطات مراقبة المطبوعات المصرية والإسرائيلية) .

(الرسالة الإخبارية من مركز الهدف ـ آذار ١٩٨٨) .

ذكرت الرسالة الإخبارية الصادرة في تموز عن مركز الهدف ما يلي :

(وصلت اخيراً الى مطار اللد منذ ثلاثة اسابيع الكتب التي ابتعناها في كانون الثاني من مصر لتجهيز مكتبتنا ، بعد أن امضت فترة إقامة مؤقتة طويلة لدى السلطات الدينية المصرية في الأزهر ، التي قامت بمراقبتها والبحث فيها عن طرق غير مناسبة لعرض الإسلام ، وذلك قبل السماح بتصديرها ، ولحسن الحظ لم يجد شيوخ الأزهر اية طرق غير مناسبة لعرض الإسلام في مختاراتنا ووصلت جميع مشترياتنا الى مكان إقامتها الجديد في أم الفحم . ثم جاء دور سلطات المراقبة الإسرائيلية التي رغبت في إلقاء نظرة على مشترياتنا ، فهم أيضاً يحبون القراءة .

وفي الواقع لاقت مختاراتنا إعجاب السلطات الإسرائيلية حتى أنها احتفظت بـ ٥١ كتاباً منها . ولاحظنا أن اهتمام سلطات المراقبة قد انحصر في انواع محددة ، فعلى سبيل المثال ، أبدوا اهتماماً شديداً بالكتب التي تتحدث عن التاريخ وعلم السياسة الفلسطيني . ونأمل بأن يستمتعوا بمعرفة المزيد عن الحضارة وعلم السياسة الفلسطينيين من الكتب الـ ٥١ التي (استلفوها) . لقد انتهينا تقريباً من تحضير البناء الذي سنستعمله للمكتبة ، ونأمل أن يقرأ جميع الناس ، الى جانب السلطات المصرية والإسرائيلية ، تلك الكتب عند بدء العام الدراسي) .

من المواضيع الاجتماعية والصحية الأخرى التي اقلقت فلسطينيي ٤٨ قضية المسنين . نتيجة للتغييرات التي اثرت على العائلة الواسعة ، التي اعتادت الاعتناء بأفرادها المسنين او المرضى ، ظهرت الحاجة لوجود تسهيلات جديدة . وبما أن المسنين أصبحوا يحصلون على رواتب تقاعدية ، لذا فهم ليسوا بحاجة للاعتماد على أولادهم كما كانت حالهم من قبل . ومع ذلك ، فالتسهيلات المتوفرة لأولئك المسنين قليلة جداً ، وكان موضوع دخول العرب الى دور المسنين اليهودية امراً أشبه بالمستحيل . لذلك قامت مدينة الناصرة ، ومن خلال جهود تطوعية ، ببناء دار للمسنين فوق ارض تملكها الأوقاف الإسلامية بجانب مسجد

السلام ، تم جمع المساهمات من رواد المساجد ومن مصادر أخرى ، وبوشر البناء عندما توفرت الإمكانيات المالية) . (انظر مجلة التنمية ، عدد آذار ١٩٨٧) .

وفي مدينة (طيبة) انشأ نادٍ للمسنين اطلق عليه (بيت الرازي لجمعية المسنين) يستوعب ١٥٠ شخصاً من أصل ٩٠٠ مسن في المدينة . وتقوم حافلة صغيرة بنقل المشتركين الى النادي ، حيث تقدم لهم التسهيلات التي تشمل : الاستشارات ، العناية الطبية ، وجبات جاهزة ، خدمات التنظيف ، ورشات للمهن اليدوية ، نزهات ، محاضرات واحتفالات . وأسس أيضاً المجلس المحلي في عجلون نادٍ للمسنين عام ١٩٨٠ ، كان معظم أعضائه (١٤٠ رجلاً وامرأة) من العمال المتقاعدين الذين قاموا أنفسهم بتأسيس هذا النادي ليجدوا مكاناً بعد تقاعدهم يجتمعون فيه مع أصدقائهم ويتبادلون العلاقات الاجتماعية ويملؤون أوقات فراغهم . تضمنت نشاطاتهم تنظيم محاضرات حول برامج التقاعد ، والقيام برحلات ترفيهية الى الضفة الغربية والى مناطقهم الخاصة ، والمشاركة في بعض ضروب التسلية كالورق والنرد ، ومتابعة برامج الرائي والمذياع .

وهناك قطاع آخر من المجتمع العربي لقي اهتماماً واضحاً هو السجناء ، الذين يعتبر معظمهم ، في نظر الفلسطينيين ، سجناء سياسيين . ففي عام ١٩٨٤ قام أحد مؤسسي حركة الأرض (منصور قردوش) بتأسيس ما سمي (بجمعية أصدقاء السجناء) التي ضمت ١٨٥ عضواً حتى نهاية عام ١٩٨٨ . حاولت الجمعية تحسين أوضاع السجناء ، ومساعدة عائلاتهم مادياً واجتماعياً ، وخاصة الزوجات غير العاملات ، والعائلات التي تضم عدداً كبيراً من الأطفال . واجتمع اعضاء الجمعية مع الزوجات الراغبات بالانفصال عن أزواجهن المحكومين لفترات طويلة ، وحاولوا إقناعهن بأن أسباب السجن هي النضال من اجل العدالة وحقوق الشعب الفلسطيني ؛ فإذا تخلت الزوجة عن زوجها

السجين ، فسيعاني من خيبة أمل أشد مرارة من التي يعيشها الآن .
كانت الجمعية تنفق كل ثلاثة أشهر خمسين دولاراً على معالجة وإطعام ولباس كل سجين ، وأسس أيضاً صندوقاً دورياً لمساعدة السجناء وإعادة تأهيلهم عند إطلاق سراحهم للعودة الى أعمالهم . إلا أن الخلافات الداخلية أدت الى انقسام المؤسسين وحلت الجمعية في نهاية الثمانينات؛ فقام (قردوش) بتأسيس (جمعية حقوق الإنسان) و (جمعية التنمية) .
وإدراكاً لأهمية الدعم المادي من وكالات التنمية في ما وراء البحار ،سعت (جمعية التنمية) وحسب ما ورد في سجل معلوماتها (لوضع حد للعرف السائد الذي يؤدي الى شل الكثير من الجمعيات الصغيرة هنا بسبب مطالبة المنظمات الواهبة بتقديم عروض تفصيلية ومن ثم الانتظار فترات طويلة لوصول الدعم المادي) .

وفي بداية الثمانينات ، قام مؤسس آخر من حركة الأرض (صالح برانصي) بتأسيس (مركز البحوث للتراث العربي) في (طيبة) ، وقام هذا المركز بتنظيم عدد من الاحتفالات عن الموسيقا الفلسطينية والرقص الشعبي ، بالإضافة الى بعض النشاطات الثقافية الأخرى . وفي آب من عام ١٩٨٧ نظم المركز (المؤتمر الدولي الأول) عن التراث الفلسطيني ، الذي عقد في مدينة القدس ، وحضره عدد كبير من الفلسطينيين من مناطق ٤٨ ، والضفة الغربية وقطاع غزة . وقد أشار العالم الفلسطيني الشهير الدكتور (اسحق موسى الحسيني) : (المرة الأخيرة التي شهدت فيها القدس هذه الحشود الكبيرة كانت في يوم جنازة جمال عبد الناصر) . حضر المؤتمر أيضاً بعض الزوار من الخارج وألقوا مقالات مختلفة منها : مقالة عن التجربة الأمريكية الهندية ؛ إلا أن الفلسطينيين لبسوا بحاجة لمن يحثهم على رؤية أوجه التشابه .

وقام (برانصي) أيضاً بعقد مؤتمر في الناصرة عام ١٩٨٨ حول المجتمع الفلسطيني (بعد مضي اربعين عاماً على النكبة وعشرين عاماً على احتلال الضفة الغربية وغزة) . فوضع نتيجة لذلك تحت الحجز الاداري (سجن دون محاكمة) لعدة أشهر .

العمل على الجبهــة الصحية :

عــلاوة على النشـاط الفعــال في مجالي الشـباب والثقافــة ، عالج فلسطينيو ٤٨ أيضــا بعض القضــايا الاجتماعيــة المهملة الأخرى مثل الصحة . وتعتبر (جمعية الجليل للبحوث والخدمات الصحية) ، التي تأسســت عام ١٩٨١ كمنظمة غير رابحة ، من أكثر المنظمات فعالية في هذا المجال . وكما ورد في كتيب المنظمة ، لقد تأسست (نتيجة التوافق التلقائي بين أفكار أربعة من الأطبــاء الذين يقيمون ويعملون في منــاطق الجليل الريفيـة ، ومع مرور الوقت وسعت هذه الجمعية دائرة أعضائها لتشمل أساتذة الصحة المحليين المهتمين بالقضايا الصحية المتعلقة بحياتهم اليومية . وهكذا يستجيب أعضــاء الجمعية الأخصائيين في الكيميــاء الحيوية وطب الأسنان والطب البشري وعلم النفس والصحة العــامة والأعمال الاجتماعية والهندسية ، لادراكهم الحسي للمشاكل الصحية الفريدة والملحة في المناطق الريفية المجاورة ، وذلك بتخصيص أوقاتهم ومهاراتهم ، وبشكل طوعي ، للمســاعدة في ايجــاد الحلول المناســبة وتطويرهــا) .

أحرز ثانية تقدم هائل بهدف جمع المزيد من الحقائق ، فقد قام كل من جمعية الجليــل ، وحلف خريجي الناصرة ، واللجنة الاقليميــة لرؤســاء المجالس العربيــة المحلية برعايــة المؤتمر الأول حول القضايا الصحية في القطاع العربي ، وذلك في شهر نيسـان عام ١٩٨٦ ؛ وشارك فيه حوالي ٤٢٠ شخصاً : (٢٠ رئيساً من رؤساء المجالس المحلية ، ١٧٠ طبيباً ، ٤٩ صيدلانياً ، ٢٩ ممرضة ، و ٦٣ مربياً وباحثاً اجتماعياً) .

وهاجم المشـاركون تدهور الشروط الصحية في القطاع العربي ، وأشار الدكتور (حاتم كنانة) ، رئيس جمعية الجليل ، الى أن معــدل وفيات الأطفال في القطاع العربي بلغ ضعف مثيله في القطاع اليهودي ؛ وأن عدد الوفيات (لأسباب مجهولة) في القطاع العربي بلغ ثلاثة اضعاف

نظيره في القطاع اليهودي . وقام أيضاً الدكتور (عماد مخول) بدراسة الوضع الصحي لمستوطنة عربية وأخرى يهودية في (وادي تمرة) واستخلص بأن : ٣٩٪ من الأطفال العرب عانوا من التهابات معوية في مقابل ٦ر١٤٪ من أطفال اليهود . واشار المهندس (رامز جرايسي) الى أن حصة القطاع العربي من ميزانية الخدمات الصحية بلغت ٢٪ فقط ، على الرغم من أن العرب يشكلون ١٣٪ من السكان . وذكر الدكتور (نبيل جرايسي) بأن العرب يشكلون ٧ر١٣٪ من أعضاء اتحاد تجار هيستادروت ، ومع ذلك فإن نسبة المستوصفات التي يمولها صندوق مرضى الهستادروت ، والتي توفر لهم الخدمات الطبية بلغ ٩ر٧٪ فقط من العدد الاجمالي . إذ انه هناك طبيب واحد لكل ٢٩٠٠ عضو في القطاع العربي ، في مقابل طبيب واحد لكل ١٨٠٠ عضو في القطاع اليهودي (راجع مجلة التنمية ، عدد حزيران ، عام ١٩٨٦) .

وخلال الثمانينات قام الأعضاء المتطوعون في جمعية الجليل بتقدم ملحوظ في الأوضاع الصحية في القطاع العربي . فقد ركزوا اهتمامهم على الطب الوقائي وكذلك العلاجي ، وعلى الشروط البيئية ؛ مولين اهتماما خاصاً الى اربعة أطراف تحتاج الى رعاية ملحة وهي : البدو ، الأطفال ، المسنين ، والمعاقين .

فعلى سبيل المثال ، عملت الجمعية على توفير مستوصف متنقل لجماعات البدو في الجليل التي تعاني ، كما ورد في كتيب الجمعية ، من ظروف صحية أشد سوءاً من الأقلية العربية الباقية : (هناك القليل من المعلومات المنشورة التي تؤكد صحة هذه المقولة الأخيرة ، إلا أن ملاحظاتنا الشخصية ، الى جانب الفحص الأولي الذي قامت به جمعية الجليل ، تجعلنا نؤمن بصدق هذه المقولة تماماً) . فقد وجدت الجمعية أن الشخص في حال مرضه عليه أن ينقل :

(مسافات كبيرة بواسطة الجرار او سيارة جيب أو ربما على ظهر حيوان ما ، ثم ينقل الى سيارة خاصة أو بواسطة حافلة الى أقرب وسيلة

نقل ، التي يمكن أن تكون على بعد عدة دقائق أو ربما ساعة ؛ حسب نوع الاهتمام المنشود . بشكل مشابه، من أجل الوصول الى أقرب مستوصف يعتني بصحة الأم أو الوليد ، لمعرفة وزن رضيع أو امرأة حامل ، أو لتلقيح طفل ، تستعمل نفس أنواع وسائل النقل المرتجلة ؛ أو يلجأ عادة الى السير عبر طرق صخرية ، قبل التطفل على احدى وسائل النقل للركوب مجاناً والوصول الى القرية التي يوجد فيها مستوصف) .

ثم وصلت أخيراً العربة المخصصة للمستوصف المتنقل بعد تأجيلات طويلة الأمد من الموردين والجمارك ومكاتب الترخيص ؛ فتمكنت أخيراً جمعية الجليل من إعلان ما يلي :

(مع اقتراب يوم الاثنين الواقع في ٢٨ آذار ١٩٨٨ ، ترددت المخاوف بأن الشتاء الطويل سيستمر بأمطاره وكآبته ، ولكنه كان في الواقع يوماً ربيعياً جميلا في الجليل ، وذلك من حسن حظ جميع الذين حضروا مراسم افتتاح المستوصف الطبي المتنقل لخدمة الجماعات البدوية ... وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر انضم أعضاء هيئة الادارة لجمعية الجليل الى الآخرين لتشكيل قافلة والتوجه بعد ذلك الى جماعة البدو في الحسينية ، إحدى الجماعات السبعة التي سيخدمها المستوصف المتنقل . وعلى الرغم من أن الطريق كان جافاً وسالكاً الى حد مقبول ، فقد بدا واضحاً للجميع أن سيارة الطوارىء ذات الأربع عجلات هي حاجة ماسة على مدار العام ... وخاصة أثناء فصل الشتاء . رحب « أبو زاهر » ، مختار جماعة الحسينية ، بأعضاء القافلة ودعاهم الى منزله حيث قدمت لهم المرطبات والفواكه والجوز والقهوة السوداء الشهيرة) . **(تقرير شهر أيار ١٩٨٨)**

أما بالنسبة للمعاقين ، فلا يوجد في منطقة الجليل الريفية العربية سوى معهدين للمتخلفين عقلياً ، يقدمان الخدمات اللازمة لاربعين شاباً . لذا قامت جمعية الجليل بدعم مبادرة رائدة بدأ بها مجلس (سخنين)

المحلي لتأسيس روضة أطفال نموذجية لتقديم العناية اللازمة لأطفال أربع قرى تبعد كل واحدة عن الأخرى خمسة كم وهي سخنين وعرابا ودير حنا وكوكب .

وكان لجمعية الجليل الدور الفعال بشكل خاص في موضوع المصارف الصحية للمدن والقرى العربية ، إذ ساعدت المجالس المحلية بقرض دوري لتغطية كلفة الخطط الرئيسية للمجلس المحلي في كل قرية. وحتى اليوم لا تزال القرى العربية تعاني من وضع حرج للغاية (فقرة ٢٢): إذ دعت الضرورة لوجود المخطط قبل أن تتمكن المجالس المحلية من الحصول على حق جمع الضرائب أو استدانة الأموال اللازمة لأعمال البناء . ولم يتمكنوا من الاستمرار في العمل لأن تكاليف المخطط تبلغ ٥٥٫٠٠٠ دولاراً ، ولا يملكون الأموال اللازمة لتغطية هذه الكلفة . وعندما تم وضع المخططات والموافقة عليها ، باشرت الجمعية اتصالاتها مع منظمات التنمية العالمية لتأمين الأموال اللازمة لأعمال البناء .

وبحلول عام ١٩٨٧ ، تم توزيع القروض على احدى عشر قرية ، وبدأت الجمعية تستلم الدفعات الأولى ؛ ولكن كان هناك عدد من الصعوبات التي تواجه القروض الدورية : فقد منعت وزارة الداخلية المجالس المحلية من استلام قروض من مصادر لا تقع تحت سيطرتها المباشرة ــ علماً بأنها لم تقم بتوفير الأموال اللازمة لمساعدة المجالس المحلية . وأخيراً ، وكما ورد في التقرير السنوي للجمعية الصادر في عام ١٩٨٦ :

(استلم ثمانية من المجالس المحلية من أصل احدى عشر ، تمت الموافقة على طلباتهم ، قروضهم بشكل فعلي ، وذلك بعد تدخل اللجنة القومية لرؤساء البلديات العرب ، وبعد التهديد باللجوء الى المحكمة العليا لاصدار إنذار يجبر وزارة الداخلية على السماح للمجالس باستلام تلك القروض) .

اقليات ضمن أقليات :

تشير إسرائيل الى (عربها) ، بالأقلية ، وقد تم تقسيمها فيما بعد إلى أربع فئات : العرب (مسلمين ومسيحيين) ، الدروز ، البدو والجركس . وتم تجنيد الدروز في الجيش عام ١٩٥٦ ، وكذلك الجماعة الجركسية الضئيلة عام ١٩٥٧ . أما بالنسبة لجماعة البدو فقد « سُمح » لهم بالخدمة في الجيش منذ عام ١٩٤٨ ، بينما لا يخضع العرب من مسلمين ومسيحيين للخدمة العسكرية . ويتمتع المجندون في الجيش بعدد من الميزات لاتتوفر لغيرهم من الذين لا يُطبق عليهم قانون الخدمة الإلزامية . ومع ذلك تحتج شرائح كبيرة ومتزايدة من جماعات الدروز والبدو على إبعادهم عن إخوانهم العرب الفلسطينيين ، رغم (الميزات) التي يتمتعون بها ، وبدؤوا فعلا بتنظيم أنفسهم ضد سياسة التمييز هذه ، فقد ادعت تلك الجماعات بأنهم يعاملون أيضاً معاملة غير عادلة بالمقارنة مع جماعات اليهود المساوية لهم .

يقدر عدد البدو بـ ٦٠,٠٠٠ نسمة تقريباً في منطقة النجف ، و ٣٥,٠٠٠ نسمة في الجليل (أي حوالي ١٢٪ من فلسطيني ٤٨) . كان عدد البدو في منطقة النجف حوالي ١٥٠,٠٠٠ شخص حتى عام ١٩٤٨ ، ولكن أثناء حرب ١٩٤٨ بين العرب واسرائيل وبعدها ، انخفض عددهم إلى ١٢,٠٠٠ نسمة ، بعد أن اجبر الآلاف منهم على الهرب إلى غزة والضفة الغربية ، وإلى المدن التي كانت ستصبح إسرائيلية . وبعكس جماعات البدو الأخرى الشرق اوسطية ، أُجبرت جماعات البدو الفلسطينية على الإقامة عند نشوء دولة إسرائيل ، وتحول معظم أفرادها إلى مزارعين . وكما حصل مع فلسطيني ٤٨ ، فقدت هذه الجماعات أجزاء كبيرة من أراضيها إلى الدولة الإسرائيلية ، وواجهت منذ البداية سياسات التبديد وأُجبرت على العودة إلى الاستقرار .

كتب الدكتور (غازي فلاح) ، عالم جغرافيا بدوي ، وهو من القلائل الذين حصلوا على شهادة الدكتوراه :

(يعتبر بدو النجف القسم المهمل من الفلسطينيين ، ويواجهون المصاعب لأنهم عرب قبل كل شيء ، وثانياً لأنهم بدو) . وذكر (د. فلاح) عام ١٩٨٩ بأن الحكومة قد نفذت سياستها تجـاه بدو النجف علـى مرحلتين : فمنذ أوائل الخمسينات وحتى منتصف الستينات ، أجبرت كثير من القبائل على الانتقال إلى شمال ووسط النجف ، حيث عاشت تحت الحكم العسكري الإسرائيلي ، ومنعت من مغادرة مناطقها دون تصريح . ومنذ منتصف الستينات حتى الآن ، جرت محاولة (لحشد) البدو في مناطق جديدة بنيت لهذا الغرض مثل : تل شيفا ، راحات ، قصيفي وعرارا ، وأجبروا هنا على أن يصبحوا بشكل فعلي عمال مياومة بلا ارض في المناطق الإسرائيلية ، إذ لا يحق لهم الاقتراب من الأراضي القابلة للحراثة ، ولا يوجد ايضاً اي نوع من الصناعة في تلك المناطق ، وفي عام ١٩٨٦ قدرت صحيفة الفجر في عددها الصادر في ١٢ ايلـول : ان نسبة البطالة في اكبر مدينـة : (راحات) ، والتي يبلغ عدد سكانهـا ١٦٠٠٠ نسمة ، تتراوح بين ٣٠ـ٥٠٪ .

رفض حوالي ثلثا البدو الانتقال الى المناطق الجديدة ، ومازالوا يعيشون في مستوطنات (بدائية) ـ منتشرة في ٢٠ قرية وناحية صغيرة غير معترف بها رسمياً (راجع تقرير ماركوفيتس ، الفصل الثاني) . فهم يرفضون مغادرة مكانهم ليس بسبب الظروف السيئة في المناطق الجديدة فحسب ، بل لأن انتقالهم سيؤدي حتماً إلى التنـازل عن مطالبتهـم بأرضهم ، إذ مايزال عدد كبير منهم يطالبون بالأراضي التي كانوا يملكونها عام ١٩٤٨ . وذكر د. فـلاح ان الخـلافات تشمل ٢٫٤ مليون دونم من أراضي البدو ، وفي عام ١٩٧٩ اشارت إحصائيات (ادارة استيطان الأراضي) الى ٧٧٦٫٨٥٦ دونم ، وهي المساحة التي تعود ملكيتها الى (٢١) مجموعـة مـن البـدو بموجب إيصـالات رسـمية مصـنفة موجودة بحوذتهم .

ذكر د. فلاح عام ١٩٨٩ :

(لم تستثن الدولة عملياً ، في نطاق رغبتها لاكتساب اراضي البدو ، اية عائلة بدوية من بعض اشكال المواجهة مع السلطات . وتتحدث الإحصائيات الرسمية عن نفسها : ففي عام ١٩٧٩ سجلت ٣٢٢٠ حالة نزاع حول الأرض بين البدو ودولة إسرائيل . ووفق التقرير الرسمي الصادر عام ١٩٨٦ ، اعتبر ٥٩٤٤ منزلا للبدو في منطقة النجف منازل غير نظامية ، واخضعت للتدمير في الوقت الذي تحدده السلطات . وتذكر تلك الإحصائيات أن واحداً من كل ثمانية عشر بدوياً نجفياً يواجه مشكلة مع السلطات بخصوص الارض ، وواحداً من كل عشرة من البدو يواجه مشكلة تتعلق بالسكن) .

تخلف البدو عن غيرهم من العرب في المجال التربوي والخدمات الاخرى ، ومما يدعو للسخرية أن الخدمات التربوية قبل عام ١٩٤٨ في مدينة بئر شبعا ـ العربية آنئذ ـ كانت ، كما قال البعض ، افضل من الخدمات الموجودة في المناطق الاخرى من البلاد . وقد ورد في مجلة (البيدر السياسي) الصادرة في ٣٠ آب ١٩٨٦ أن اول مدرسة للفتيان وجدت عام ١٩٠٨ (في زمن الحكم العثماني) ، وبنيت مدرسة اخرى للفتيات اثناء فترة الانتداب البريطاني .

وفي عام ١٩٤٨ وصل عدد المدارس في منطقة النجف الى ٣٦ مدرسة ومع ذلك لم تكن تستوعب جميع الراغبين في طلب العلم . ولكن بعد عام ١٩٤٨ (اختفى) التعليم الثانوي من منطقة النجف ، وتحولت مدرسة بئر شبعا الثانوية الى مراكز قيادة عسكرية اسرائيلية عام ١٩٥٠ . وفي الستينات فقط افتتح ثانية صف لطلاب الثانوية العرب في المنطقة، وفي الثمانينات انخفض عدد المدارس عما كان عليه قبل عام ١٩٤٨ بـ ٢٧ مدرسة ، وكانت بعض المدارس عبارة عن اكواخ خشبية كانت قد استعملت كأماكن اقامة مؤقتة للمهاجرين اليهود . وكانت المستويات التعليمية منخفضة جداً ، فعلى سبيل المثال ، في عام ١٩٨٥ تقدم ٢١٠ طالباً من (راحات) لامتحانات القبول بالجامعة ، نجح منهم

خمسة طلاب فقط . لذا حاول العديد من طلاب البدو التماس العلم في المدارس العربية في الجليل والمثلث ، الأمر الذي يعتبر استنزافاً لموارد المنطقة قدره د. فلاح بنصف مليون دولار سنوياً .

في عام ١٩٧٩ تأسست في بئر شبعا (جمعية لدعم حقوق البدو والدفاع عنها) في اسرائيل ، وصل عدد اعضائها عام ١٩٨٦ الى ٣٠٠ عضو ، واستهلت اعمالها بمحاولة اكتساب تأييد الهيئة التشريعية لاعادة ملكية الارض الى البدو والحصول على خدمات أفضل . تمكنت الجمعية من تأسيس ثلاث رياض للاطفال ، وقدمت دورات تعليمية خاصة للطلاب الذين يجابهون بعض الصعوبات في المدارس ، فضلا عن توفير منح دراسية لبعض طلاب الجامعة . ومن ناحية اخرى ، قامت الجمعية بشراء الزيتون من مالكي الاراضي مقابل خمسة شيكللات وبيعها الى الفقراء مقابل شيكل واحد فقط . وعندما اندلعت الانتفاضة ، جمعت الاموال النقدية والسلع المختلفةمنأجل فلسطيني غزة والضفة الغربية.

في منتصف الثمانينات ، حاولت الجمعية استعادة مسجد في بئر شبعا كانت السلطات الاسرائيلية قد حولته الى متحف وطني (يهودي) ؛ ويلاحظ الزائرون لهذا المسجد رسماً بيانياً زمنياً ممتعاً فوق الجدران حيث يتوقف فيه التاريخ في القرن السابع بعد الميلاد (اي عند دخول المسلمين الى فلسطين) ، ويعود للاستمرار في القرن العشرين فقط (مبتدءاً بالعهد الصهيوني) .

حثت الجمعية الناس على الذهاب لأداء فريضة الصلاة في المسجد كشكل من اشكال الاحتجاج ، وذلك في محاولة واحدة لاعادة التأكيد على ارتباط البدو بمسجدهم ، وفي تلك المناسبة ، قام أفراد الشرطة بجمع الأحذية التي خلعها البدو خارج المسجد / المتحف (وهو امر يتوجب فعله قبل الدخول الى مكان ديني مقدس للصلاة) ، ونقلوا تلك الأحذية الى قسم الشرطة . فضحك البدو كثيراً من قيام الشرطة بالقبض على الأحذية) . وفي محاولة ثانية ، في كانون الأول عام ١٩٨٦،

تمكنت اللجنة الاسلامية في النجف من استصدار امر قضائي بايقاف بلدية بئر شبعا عن تدمير الجدار المحيط بالمسجد / المتحف .

وكثيراً ما كانت الجمعية تحتج على محاولات الاستيلاء على أملاك البدو ، فقد صرحت في مؤتمر صحفي عقد في ١٢ شباط ١٩٨٦ :

(في فجر يوم الأربعاء الموافق الرابع من شباط عام ١٩٨٦ قام عمال من « ادارة الأراضي الاسرائيلية » باستئصال اشجار زيتون من بستان يقع على بعد عشرة كيلو متر تقريباً شمال بئر شبعا ... وتعود ملكية هذا البستان الى رجل يدعى البحري سلمان ، يبلغ الستين من عمره ، وقد ورث الأرض عن والده ، وكانت في حوذته ويعمل بها قبل وجود دولة اسرائيل وبعده دون انقطاع ... وفي اليوم التالي لاستئصال اشجار الزيتون ، توجه البحري الى قسم شرطة بئر شبعا ليكتب شكوى ضد عمال ادارة الأراضي . ولكنهم لم يستطيعوا مساعدته وارسلوه الى قسم الشرطة المحلية في تل شيفا ، وهناك قيل له : (اذهب الى مكتب إدارة الأراضي الاسرائيلية) . وعندما اجاب بأنه تقدم لكتابة شكوى حول الخسارة التي أصابته على أيدي عمال ادارة الأراضي ، أجيب بأنهم لا يستلمون شكاوى . ولم توافق الشرطة على استلام الشكوى من البحري إلا بعد أن تدخلت الجمعية في الموضوع في ٦ شباط عام ١٩٨٦) .

والأمر الآخر الذي يثير قلق البدو هو بشكل خاص نشاطات (الخفر الخضر) كما يطلقون على انفسهم دون وجه حق ؛ وهم وحدة تأسست ضمن وزارة الزراعة ، وتزعم أنها من الشرطة ، وتحمي اراضي الدولة والبيئة . وصدر بيان عن الجمعية في ٢٧ تشرين الأول عام ١٩٨٧ هاجم فيه (الخفر الخضر) لقيامهم بعمليات استئصال الأشجار :

(قامت الجرارات ، بناء على أمر من « الخفر الخضر » ، بتدمير بساتين زيتون تعود ملكيتها الى ٣٥ عائلة من قبيلة النصاصرة في اللاقية ... ومزارع خضار زرعتها تلك العائلات ، وكذلك مساحات

صغيرة مزروعة بالباذنجان والفلفل الأخضر تقع ضمن ساحات المنازل . تمت مصادرة أشجار الزيتون بعد استئصالها ، وأعيدت زراعة قسم منهـا في مستعمرة (بتح تيكفـا) وغيرها من المـدن ..,. كانت قبيلة النصاصرة الفرعيـة ، والتي كانت تعتبر فرعـا من قبيلة (جديرات السنا) ، قد طردت عام ١٩٥٢ من أرض أجدادها واجبرت على الانتقال بالقوة الى (تل عراد) حيث عاش افرادها حتى عام ١٩٧٤ . ثم قررت السلطات للمرة الثانيـة ، أن « تنظف » منطقة (تل عراد) وتنقل منهـا قبائل البدو . واقترحت عليهم الحكومة العودة الى أراضيهم — التي تمت مصادرتها دون وجه حق وفق قانون ملكية الأراضي الصادر عـام ١٩٥٣ ، بزعم أن المالكين كانوا « متغيبين » ولا يعيشون عليها آنذاك . وذلك علما بأن قبيلة النصاصرة تمتلك وثائق تثبت ملكيتها لتلك الأراضي يعود تاريخها الى اكثر من ثمانين عاماً ، ولديهم طلبات بهذا الخصوص مسجلة لدى محكمة الأراضي . وحتى هذا التاريخ ، لم تتم معالجة طلب واحد مقدم من البدو أو اتخاذ قرار بشأنه ضمن إطار اجراءات تسجيل الأراضي) .

٣١ تشرين أول ١٩٨٧

وفي بيـان آخر « غير مؤرخ » حول الأوضاع في النجف حـذرت الجمعية من هـدم المنـازل .

(تنفذ على الأغلب قرارات الهدم على المنازل التي تم بناؤها بدون ترخيصات رسمية ، علماً أن هذه الترخيصات الرسمية لا تمنح الى العرب سكان النجف الا اذا رغبوا في البناء داخل المناطق الجديدة التي خصصتها لهم الحكومة . أما أولئك الذين يرفضون الانتقال الى تلك المناطق فلا يمكنهم شرعياً بناء مبانٍ دائمة فوق الأرض التي يعيشون عليها .

وفي ١٨ نيسان عام ١٩٨٧ عقد اجتماع يهودي — بدوي مشـترك كبير في قرية لاقية الصغيرة الواقعة شمالي النجف احتجاجا علـى سياسة تدمير المنازل . ويخشى ان اكثر من ٨٠٠٠ منزل للعائـلات البدوية قد حكم عليها بالهدم الفوري من قبل (الخفر الخضر) في حال

تنفيذ توصيات تقرير ماركوفيتش الحكومي ، ونادى المتحدثون في هذا الاجتماع الذي اعتبر من أكبر الاجتماعات التي عقدت في النجف على الاطلاق ، الى اجراء تحقيق حكومي دقيق عن المفاسد التي يرتكبها (الخفر الخضر) .

لخصت الجمعية مطاليبها على الشكل التالي : انهاء سياسة اغتصاب الاراضي ، انهاء برنامج « مناطق الاعتقال » ، تسوية مشكلة ملكية الاراضي ، (تقديم المساعدة الحكومية والمخصصات المائيةبشكل متساو الى كل المزارعين البدو واليهود على حد سواء ، بغض النظر عن المنشأ الديني العرقي ، اجراء تحقيق دقيق حول نشاطات الخفر الخضر ، وأخيرا اعادة مسجد بئر شبعا تحت تصرف الجماعة الاسلامية.

ومن المجموعات البدوية الأخرى التي اتبعت أسلوب الاعتماد على الذات مجموعة (ابناء لاقية) التي تأسست عام ١٩٨١ ، واستهلت نشاطها عام ١٩٨٢ بتأسيس ناد صغير (انظر قصة عامر في القسم الثاني) . وفي شهر أيار من عام ١٩٨٦ حصلت منطقة (راحات) على حقها في انتخاب ممثليها للمجلس البلدي بعد دعوى قضائية رفعها احد المواطنين ، بعد أن كان يحكم المدينة في السابق مجلس عينته السلطات الاسرائيلية .

في عام ١٩٨٨ بدأت مجلة عربية اسبوعية تدعى (اخبار النقب) ـ أخبار النجف ـ بالصدور بشكل نصف شهري ، ولم تدلمنشوراتها على أي نوع من التحيز السياسي الحزبي ، بل كانت تنشر باسلوب لبق اعلانات لجميع الاحزاب العربية خلال فترة انتخابات عام ١٩٨٨ ، بالاضافة الى حزب « حقوق المواطنين اليهود » ، و « حزب الاصوليين المسلمين » ، ولكنها كانت تناصر بشدة حقوق المجموعات البدوية . فقد كتبت في احدى مقالاتها ضد عمليات تهديم المنازل :

(منذ اسبوعين اتجهت البلدوزرات نحو هدفين اثنين ..... الاول في الجنوب حيث قامت السلطات بهدم ثلاثين منزلا تعود جميعها لعائلة

(ابو كوش) ، والثاني حيث (قامت السلطات بهدم) ثلاثة منازل لعائلة الزبارقة في طيبة في المثلث . وعلى الرغم من المسافة الشاسعة بين المثلث والنجف ، الا أن البلدوزر لا يعترف بالبعد ، بل يتذكر بأنه استأصل عائلتي ابو كوش والزبارقة من موطنهما الاصلي في تل الملح . وما أن بدأت هاتان العائلتان تبرآن من الجراح الناجمة عن ماض مأساوي حتى عاد البلدوزر يلاحقهما ليبرهن بأن هذه السياسة لا تميز بين المثلث والنجف) .

(١٦ تشرين الاول ١٩٨٨)

ويعتبر الدروز الجماعة الرئيسية الاخرى التي تسمى (أقلية داخل اقلية) ، وتقدر بحوالي ٦٠.٠٠٠ نسمة ، يعيش معظم أفرادها في منطقة الجليل . وفي عام ١٩٧٢ تأسست اللجنة التمهيدية الدرزية الصغيرة لتحمي جماعتها وتعزز هويتها العربية الفلسطينية ، واعتبرت هذه اللجنة أن جماعة الدرروز هي اكثر الجماعات التي تتلقى (معاملة غير عادلة) في البلاد : (فقد فرضت علينا الخدمة الالزامية بشكل اجباري مع ما يرافقها من مآس وصعوبات ، بالاضافة الى مصادرة القسم الاكبر من اراضينا ، والمعاناة التي نواجهها من تفشي البطالة وظروف المعيشة المكتظة) . وقدرت اللجنة بأن حوالي ٧٠٪ من أراضي جماعة الدروز قد فقدت منذ انشاء دولة اسرائيل .علاوة على ذلك ، (لا يوجد أية مشاريع تنمة ، او صناعات ، أو نواد ، أو مجارير صحية ، او طرق جيدة، أو مخططات للمدينة، أو أساليب زراعية حديثة) . وادعت اللجنة ايضا ان ميزانية قرية الدروز تعادل ١/٧ ميزانية القرى اليهودية المجاورة ، وذكرت ايضا أن المكاسب التعليمية للجماعة في المستوى الجامعي كانت منخفضة حتى انها اقل من المستويات الموجودة في البرازيل : (حيث يوجد ١٢ تلميذا في كل ١٠٠٠ نسمة ، بينما يتراوح لدينا عدد التلاميذ بين ٤ ـ ٦ في ١٠٠٠ نسمة) .

افتتحت اللجنة مركزها الرئيسي (بيت المبادرة) في نيسان عام ١٩٨٧ في قرية يرقة ، حيث قصده مئات الاشخاص من جميع أنحاء المنطقة . وذكرت مقالة نشرت في صحيفة اللجنة التي تصدر بين الحين والآخر ما يلي : (قمنا بشراء مبنى ونعمل الآن على تجهيزه لكي يصبح شوكة في حلق كل من يبتلع حقوقنا) .

(نسخة نيسان عام ١٩٨٧)

وكان للجنة دور فعال في موضوع الخدمة العسكرية الالزامية التي فرضت على جماعة الدروز ، فقد اشارت في احدى كراساتها بأنه عندما صدر قانون تجنيد الدروز عام ١٩٥٦ ـ والذي وصف بأنه « مأساة » قام ١٠٧٤ شخصا درزيا بتوقيع عريضة احتجاج على هذا القانون ، ولكن وافق عليه ستة عشر شخصا من قادة الجماعة ، فأصبح ساري المفعول . وبدأت اللجنة ما بوسعها لاقناع شبان الدروز بأن يتخلفوا عن الخدمة . وفي مقابلة مع صحيفة (الراية) في ٣ حزيران عام ١٩٨٨ ذكر رئيس اللجنة (شيخ جمال الماضي) بأنه بلغ عدد السنوات التي قضاها الدروز في السجن ٣٠٠٠٠ سنة بتهمة تخلفهم عن الخدمة العسكرية ، اذ يوجد في السجن دائما من ٦٠ ـ ٧٠ شخصا في اي وقت من الاوقات ، وصرح بما يلي :

(تحاول سلطات الاحتلال الاسرائيلية (في الضفة الغربية وغزة) على الدوام أن تشوه سمعة جماعة الدروز ، وذلك بتسليط الضوء على الجنود الدروز ، كما لو انهم وحدهم المسؤولون عن مجابهة الانتفاضة ولكن يمكن في الحال أن تنكشف تلك المحاولات ، اذ يبلغ العدد الاجمالي من حراس الحدود من جماعة الدروز ١٥٠ شخصا ، موزعين في لبنان والضفة الغربية وغزة ، بالاضافة الى الجنود الموجودين داخل اسرائيل . إذاً كيف يمكنهم أن يكونوا مسؤولين عن كل ذلك ؟ هناك عدد كبير من الجنود اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية ويدعون بأنهم من الدروز ، وذلك لكي يلطخوا سمعتنا) .

وفي مقابلة مع صحيفة (المواقف) في عددها الصادر في ٢٢ آذار ١٩٨٦ ، اعترف (الشيخ جمال) بأنهم لم يكتسبوا بعد تأييد غالبية جماعة الدروز البالغة ٦٠,٠٠٠ نسمة ، ولكنه أضاف بأن مفهوم النضال ضد التجنيد العسكري كان يحرز تقدماً ملحوظاً . وكان هناك ثمة محاولة قام بها عضو الكنيست (توفيق طوبي) لالغاء قانون الخدمة العسكرية الالزامي . وقدم عريضة الى الكنيست تتضمن ٧٠٠٠ توقيع وقامت اللجنة ايضا بتشكيل لجنة فرعية تشمل كل من يعارض الخدمة العسكرية .

من المحاولات الأخرى التي قامت بها جماعة الدروز لمقاومة سياسة التمييز : اعلان المجلس البلدي في قرية بيت جن في الجليل عن اضراب مفتوح في ١٣ نيسان عام ١٩٨٧ احتجاجا على القيود المفروضة على استخدام أراضي القرية (التي كانت قد اعلنت منطقة محمية بيئياً) وعلى التمييز في تخصيص الميزانيات ، وتبع ذلك اضراب جميع المدارس في ٢٨ نيسان من العام ذاته . استمر اضراب بيت جن لمدة ١١٠ أيام ، وتحول الى مادة خصبة للاساطير بين فلسطين ٤٨ . وفي شهر تموز تم القبض على عدد كبير من القرويين في « معركة » قاموا بها دفاعا عن أراضيهم في منطقة الزبود . وفي الشهر ذاته اصدر وزير الزراعة قوانين خاصة تجيز لاهالي قرية بيت جن زراعة أراضيهم . وعلى الرغم من الغاء الاضراب ، الا أن القرويين ذكروا بأن ذلك ليس كافيا : فهم يريدون قانونا يعيد الاراضي الى ماليكها . وضمانا يكفل لهم حقوقهم في تلك الاراضي ــ وليس أحكاما وزارية يمكن الغاؤها فيما بعد .

ومن ناحية أخرى اعترض أفراد جماعة الدروز على مناهج التدريس التي تعلم في مدارسهم ، وفضلوا استخدام البرنامج العربي على (البرنامج الدرزي) الذي قدمته السلطات عام ١٩٧٥ ويتضمن تاريخ وحضارة الدروز . وفي عام ١٩٨١ أعلن رئيس مجلس « موغار المحلي » ، وهو عضو في الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة ، ان قريته أصبحت قرية عربية (يشكل الدروز ٦٠٪ من سكانها) ، وستلجأ

المدارس من الآن فصاعدا الى تطبيق البرنامج العربي وليس (البرنامج الدرزي) الموصى به من قبل السلطات قطرد نتيجة لذلك ، الا أن الاعتراضات استمرت ضد البرنامج ، فعلى سبيل المثال في عام ١٩٨٦ اعترضت عليه « لجنة خريجي المدارس » في دالية الكرمل .

ان الممارسات العنصرية ضد جماعات البدو والدروز ــ التي تخدم في الجيش ــ تدحض أكاذيب المدافعين الرسميين الذين يعزون المعاملة السيئة التي يتلقاها فلسطينيو ٤٨ الى (خيانتهم) للدولة . يمكن وصف هذه المعاملة بقلة التبصر في حال اعتقد المرء بأن هدف الدولة كان خلق مجتمع اسرائيلي متماسك . ولكي نجد أن سياسة التمييز تتخلل كافة قطاعات المجتمع الفلسطيني ، حتى أنها تعتبر سياسة عنصرية . ولا يسع المرء الا أن يفترض بأن هدف الدولة البعيد الامد هو ابقاء أولئك المواطنين في عزلة ، على أمل أن يقتنعوا يوما ما بأن مستقبلهم لا ينتظرهم في اسرائيل .

لقد أعتمد رد فعل فلسطيني ٤٨ ، كما رأينا في الفصل الثاني والثالث ، على المقدمة المنطقية التي تؤكد بأن مستقبلهم (يقبع) في اسرائيل ، حيث وطنهم الام . لذا عملوا على مستوين اثنين ، الاول : الضغط على السلطات لتفي بمسؤولياتها نحوهم كمواطنين مكلفين بدفع الضرائب ، والثاني : العمل على تطوير اعتمادهم الذاتي اقتصاديا واجتماعيا . وعلى الرغم من أن الطريق لا تزال طويلة أمامهم ، الا انهم حققوا نجاحا ملحوظا ، حتى أن الدولة اليهودية لجأت كما سنرى في الفصل الرابع ، الى ابتكار أساليب جديدة لاعاقة مسيرتهم .

* * *

الفصل الرابع

العد العكسي ؟

(هذا يعني إغلاق المنفذ الاخير في وجهنا . فالحكومة لا تعطينا المال لندعم مجالسنا المحلية ، وإذا لجانا الى الوكالة اليهودية يقولون لنا : « هذا المال اتى من الشعب اليهودي لمساعدة الشعب اليهودي » . اما الدول العربية فهي تعتبر دولاً معادية ، وإذا حاولنا الاتصال مع الفلسطينيين في الخارج ، فهذا يعني باننا إرهابيون بالمعنى الذي تعرف به الحكومة الاشياء) .

(عضو الجمعية العامة للثقافة والفنون في إيبلين)

لقد حقق النضال الذي قاده فلسطينيو ٤٨ ضد سلب الأملاك والتمييز تقدماً هائلاً في السنوات الخمسة عشر الأخيرة . وكما رأينا في الفصول الثلاث السابقة ، لقد اتخذ هذا النضال شكل النشاط في المجال السياسي من خلال الأحزاب المنظمة ، بالإضافة الى المبادرات الطوعية العفوية المعتمدة على ذاتها على مستوى المدينة أو القرية ، والتي يمكن أن يكون لها لونها السياسي تعهد بتوفير حقوق متساوية وهوية فلسطينية عربية محددة وواضحة .

في صميم دافع فلسطيني ٤٨ لتنظيم صفوفهم حول القضايا الاجتماعية كان هناك تصميم على البقاء وحماية هويتهم العربية الفلسطينية المتميزة . وإذا قامت منظمة خاصة بمعالجة اية مشكلة عادية كشبكات المجارير على سبيل المثال ، فإن الجهد المبذول لتنفيذ

هذا الموضوع سيتخذ معانٍ إضافية للهوية الثقافية . وبدأ واضحاً أن فشل الدولة اليهودية في توفير مثل تلك اللياقات كان أكثر من مجرد إهمال بسيط ، بل انطوى على ممارسة الضغط على فلسطيني ٤٨ ليرحلوا ، ويتخلوا عن أراضيهم وجذورهم . ليس من الغريب إذاً أن يشرّب فلسطينيو ٤٨ إجراءاتهم الانتقامية بجدول اعمال مضادٍ ، وتصميم على البقاء والمحافظة على حضارتهم الخاصة .

كتب (روحانا) عام ١٩٨٩ يقول :

(هناك ثلاثة دوافع رئيسة كانت تكمن وراء السعي من أجل التنظيم على مستوى الجماعة ، ويختلف التأكيد عليها من منظمة الى اخرى : ـ الاستجابة الى بعض المطاليب والحاجات المعينة لقطاع من السكان تهمل السلطات المعنية اهتماماته أو لا توليها العناية الكافية ؛ ـ المشاركة في الجهد العام الذي يبذله السكان العرب للحصول على المساواة ؛ ـ ودعم نضال الشعب الفلسطيني لتقرير المصير والاستقلال . في كثير من الحالات كانت المنظمة تبدأ بالهدفين الأوليين ، أو الهدف الأول فقط ؛ ولكن في نهاية الأمر تحيط بالأهداف الثلاثة معاً) .

كانت أساليب العمل المتنوعة التي طورها فلسطينيو ٤٨ تتشابه مع الأساليب التي اتبعها إخوانهم في الضفة الغربية وغزة قبل الانتفاضة ، الذين قاموا بتأسيس عشرات المؤسسات والمنظمات الطوعية واللجان في مختلف المجالات : كالعناية الطبية ، والتربية والتعليم ، والزراعة ، والثقافة ؛ وذلك لمواصلة تقدمهم الاجتماعي بشكل مستقل عن بنى الاحتلال الإسرائيلية . والفارق الوحيد هو أن فلسطيني ٤٨ يناضلون ، حتى الآن ، ليس من أجل الاستقلال بل من أجل المساواة .

لقد اكتسب الفلسطينيون الى حد ما خبرة جيدة باستعمال لغة اليهود الإسرائيليين الخاصة ضدهم وتحديهم بأساليبهم الخاصة ، مما يؤدي الى خلق شعور عميق بالقلق لديهم . وقد سجل (خليل نخلة)

مثالاً عن هذا القلق في إحدى مقالاته : (نقد للكتابة السوسيولوجية عن الفلسطينيين داخل إسرائيل) التي نشرت في صحيفة دراسات فلسطينية عـام ١٩٧٧ :

(بعد أن ألقيت جزءاً من مناقشاتي الحالية في المنتدى الإداري في الجامعة العبرية في القدس ، وذلك في كانون أول عام ١٩٧٥ ، انتقـد بعض الزملاء اليهود المهتمين بعلم الإنسان آرائي الهجومية . واتسم ردّ الفعل العام لزملائي الجامعيين في جامعتي حيفا والقدس ، حيث قدمت بعض تلك الآراء ، بالاشمئزاز والإنكار . وأتت إحدى التعليقات كما يلي : « لقد صُدمت بحديثك وشعرت بخيبة أمـل كبيرة ؛ لماذا أشعر كلما تحدثت مع فلاح عربي بسيط في القرى بأمل كبير بأننا يمكن أن نعيش سوية بسلام ، وعندما أستمع الى حديثك يا زميلي أفقد ذلك الأمل ؟!) .

تمكن فلسطينيو ٤٨ بكافة فئاتهم ، من « الفـلاح البسيط » الى المفكـر المثقف ، من تفهم النظام والاستفادة منـه لتنفيذ أهدافهم . فالأحزاب السياسية ، والنوادي الثقافية ، ومعسكرات العمل الطوعية، ولجان الأهالي في المدارس ، ورياض الأطفال ، وعمليات جمع الأموال لخدمـة الجماعـة ، ومحاولة اكتساب تأييد الكنيست ، والحمـلات الإعلامية ، والدراسات الميدانيـة ، والإضرابات والمظاهرات ، كلهـا نشاطات مشروعة تحتمي في ظل نظام ديمقراطي .

وبما أن نضال فلسطيني ٤٨ هو نضال مشروع ، فإن الدولة اليهودية تبحث ، باستمرار ، عن طرق (مشروعة) لتقف في وجه هذا النضـال . فعلى سبيل المثال ، عندما اشتد عود الحزب الشيوعي وأصبح قادراً على كسب رئاسة المجلس البلدي في الناصرة عـام ١٩٧٥ ، أصدرت الحكومة (تقرير كوينغ) الذي أوصى ، كما ذكرنا في الفصل الثاني ، بعدة قرارات مضادة من شأنها أن تدعّم الوجود اليهودي في الجليل .

وفي منتصف الثمانينات ، ظهرت على مسرح الأحداث قوى اجتماعية

وسياسية عربية جديدة ، وبدأ النضال من أجل تحقيق تطور اجتماعي ـ اقتصادي ذاتي. وأتى ردّ فعل الحكومة مستتراً وراء (تقرير آرينز)، الذي تسربت تفاصيله ونشرت في صحيفة (هآرتس) الإسرائيلية اليومية في تشرين الأول عام ١٩٨٦ . وذكر بأن تقرير « آرينز » (الذي أصدره عضو الكنيست في حزب الليكود « موشيه آرينز » عندما كان وزيراً للشؤون العربية) قد حذر بأنه من المتوقع أن تصل نسبة (الأقليات في إسرائيل) الى ٢٩ ٪ من مجموع السكان بحلول عام ٢٠٠٠ . وأوصى التقرير بتحريم وجود أي حزب سياسي مستقل يتصل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، ومنع قيام أية هيئات تعمل من أجل إيجاد حكم ذاتي للعرب داخل إسرائيل . وكذلك أوصى التقرير بمنع تحويل أية أموال أجنبية الى الهيئات العربية إلا بإذن مسبق من هيئة نظامية أو وفق قانون جديد يضمن عدم دخول الأموال من مصادر لا توافق عليها الدولة ، بالإضافة الى ذلك أوصى التقرير بضرورة دمج الهيئات العربية المحلية داخل المؤسسات الحكومية الرسمية ، وإلا عدم الاعتراف بها كلياً . وأخيراً تخصيص بعض البرامج التي تشجع (الأقليات) على التطوع للخدمة في جيش الدفاع الإسرائيلي .

(مقتبس عن الرسالة الإخبارية التي نشرت في صحيفة الهدف في تشرين الثاني ١٩٨٧) .

واجهت المنظمات والتجمعات التي أسسها فلسطينيو ٤٨ أخطر تهديد لها حتى الآن ، وتحية خفية للنجاح الذي حققته وذلك بسبب إحدى التوصيات التي وردت في تقرير (آرينز) وهي : القيود المفروضة على الأموال الأجنبية . وفي عام ١٩٨٩ ، اقترح إصدار تعديل خطير (لقانون الإرهاب) الذي صدر عام ١٩٤٨ ، بهدف فسح المجال للسلطات الإسرائيلية لمصادرة الممتلكات والقيام بحملات اعتقال واسعة النطاق وإغلاق المؤسسات ؛ كل هذا بحجة الاشتباه بأنهم تلقوا أموالاً من منظمات « إرهابية » ، أو يمكن أن يفعلوا ذلك في المستقبل .

أعتبرت المذكرة الصادرة في ٢٢ أيار عام ١٩٨٩ (التعديل ٣ لقانون منع الإرهاب ـــ ١٩٤٨) تأديبياً ، إذ عرفت الملكية على أنها : (قطعة ارض ، أو ملكية متنقلة ، أو عملة متداولة ، أو حقوق من أي نوع ، وكذلك تشمل الأملاك التي تم شراؤها مقابل أملاك أخرى أو بالتبادل معهــا) . وذكر في القانون إنه في حال (اشتبه ضابط شرطة ، من رتبة مفوض ثاني فما فوق ، بأن هذه الملكية قد أتت من منظمة إرهابيــة ، يحق له أن يستصدر أمراً خفياً بوضع اليد عليها بهدف مصادرتها) . فضلاً عن ذلك ، يحق لضابط الشرطة الذي ينفذ أوامر المصادرة أن (يلجأ الى استعمال الإجراء الذي يراه مناسباً وضرورياً لتنفيذ تلك الأوامر ولمنع قيام أعمال شغب اثناء تنفيذه لمهمته ؛ وفي هذه الحالة ، يحق له دخول المباني ، ومنها المنازل واماكن العمل) . ويحق أيضــاً للمحكمة أن تصادر (أية أملاك أخرى تخص الشخص الذي صدر بحقه امر المصادرة) . ويمكن أن يرفض طلب الهيئات بالتسجيل في حــال الاشتباه بوجود أية علاقة لها مع (الإرهاب) ؛ والأسوأ من هذا ، يمكن تصفية الهيئات القائمة إذا كان لها علاقات مشبوهة . علاوة على ذلك ، وكما كان العرف السائد في كثير من القضايا الموجهة ضد فلسطيني ٤٨ الذين عانوا من القوانين العرفية الموروثة عن الانتداب البريطاني :

(يمكن لهيئة المحكمة ان تقبل اي دليل يقدم في غياب صاحب العلاقة الذي تأثرت مصالحه أو في غياب وكيله القانوني ، ويحق لها أن تخفي عنهما ماهية هذا الدليل ... إذا اقتنعت هيئة المحكمة أن كشف الدليل لصاحب العلاقة أو لوكيله القانوني يمكن أن يلحق الضرر بالحالة الأمنية للدولة أو المصلحة العامة) .

(لا بد من التنويه هنا أن التعديل الثاني لقانون منع الإرهاب عام ١٩٨٦ حرم الاتصال مع أعضاء أو ممثلي حركة التحرير الفلسطينية ، وقد استخدم هذا القانون ضد اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين على حــد ســواء) .

احتجت صحيفة (الهدف) ، والمطبوعات الفلسطينية الأخرى ، بلهجة حادة على هذا القانون في شكله التمهيدي :

(كشف توضيح وزير العدل ، أمام لجنة العدل والدستور في الكنيست ، لضرورة وجود هذا القانون الملحق ، عن المعنى المخيف المستتر وراءه . إذ يشتكي من عجز العناصر الأمنية عن الحصول على نتائج مرضية بموجب القانون السائد حالياً لأن القوانين الإجرائية تقيدهم ويضطرون للاعتماد على حسن تمييز المحكمة ! فعلى سبيل المثال ، من الضروري الكشف عن الدليل وتوضيحه وإحضار الشهود امام المحكمة واستجوابهم بدقة . ومن المؤكد أن عناصر الأمن في كثير من الدول سيطيب لها أن تغتنم مثل تلك الفرصة وتلغي تلك الإجراءات (المتعبة) ، ولكن في أنظمة الحكم الديمقراطية تعتبر قاعدة القانون ، التي تشمل النظام القضائي القادر على حماية الحقوق والحريات المدنية الأساسية . مثل : حق معرفة القضية الموجهة ضدك والإجابة عليها ، مقدسة) .

(تموز ـ آب ١٩٨٩)

أشارت لجنة الحقوقيين الدوليين في تموز عام ١٩٨٩ بأن عبء إثبات [بأن الملكية أتت من منظمة إرهابية أمر" ضروري في القانون المدني (أي اعتماداً على توازن الاحتمالات) وليس وفق القانون الجنائي (أي بعيداً عن الشك المقبول)] . كما أشير الى ما يلي :

(عندما أثيرت مثل تلك القضايا في مواضيع أخرى أمام المحاكم الإسرائيلية ، قبلت المحكمة شهادة سلطات الأمن بأنهم يعلمون ان هذا الفرد أو المنظمة تعمل لصالح منظمة محظرة أو تتصل بها ، ولكن لأسباب أمنية لا تستطيع تلك السلطات الكشف عن مصدر المعلومات . إذا تبعت المحكمة مثل هذا الإجراء في تلك القضايا ، ستجد الأطراف الأخرى في الدعاوى القضائية نفسها عاجزة عن دحض مثل هذه الادعاءات) .

عندما انتشر خبر القانون المقترح ، تحركت اللجان الطوعية العربية ، واجتمع عدد منها في ٣٠ نسان عام ١٩٨٩ وشكلوا (لجنة الدفـاع عن للعمل الطوعي) ، واتفقوا على (رفع الاعتراضات على أي تعديل للقانون للبحوث والخدمات الصحية ، جمعية حقوق الإنسان ،و جمعية المتاحف للعمل الطوعي) ، واتفقوا على (رفع الاعتراضات على اي تعديل للقانون يهدف الى ايقاف المساهمات المالية التي تصل إلى المؤسسات الطوعية في القطاع العربي من الجمعيات الاجنبية التي تم تسجيلها في بلادها بشكل قانوني) . واكدوا على (حق تلك المؤسسات في الحصول على مساهمات مالية لتتمكن من تحقيق أهدافها المسجلة كما تفعل مئات المؤسسات الطوعية اليهودية. وحتى الآن يعاني القطاع العربي ضمن الخط الأخضر من إجراءات الحكومة العنصرية ، ولا يتلقى الدعم المادي من الحكومة من أجل تطوير أوضاعه) .

بعد التلاوة الأولى (من أصل ثلاثة) للقانون في الكنيست في ٢٣ ايار عام ١٩٨٩ ، قامت خمس وخمسون وكالة طوعية وهيئة تهتم بالشؤون المحلية وتخدم الفلسطينيين في اسرائيل باصدار مناشدة دولية، وجمعت آراءً مختلفة ضمت الاحزاب اليسارية واليمينية ، وكذلك آراء الأصدقاء والاعداء في « الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة » ، و « أبناء البلد » ، و « الحلف الإسلامي » في أم الفحم ، و « القائمة التقدمية للسلام » ، و « والحزب الديمقراطي العربي » . إذ يشكل هذا التعديل تهديداً لجميع الأطراف قاطبة ، ونصت المناشدة على مايلي : (على الرغم من ان الهدف الظاهري لهذا التعديل المقترح مكافحة الارهاب ... إلا انه سيعطي بشكل فعلي جهازي الشرطة والامن في اسرائيل قوى مطلقة لاغلاق المنظمات المحسنة ومصادرة موجوداتها والقبض على العناصر الفعالة) .

اتت مذكرة التعديل هذه نتيجة اقتراح تقدم به وزير العدل (دان مريدور) ، ونشرت صحيفة (جيروزالم بوست) المناقشة التالية التي دارت في الكنيست ، إذ قال عضو الكنيست (محمد معياري) من القائمة

التقدمية للسلام ، والذي صوت ضد القرار : (يهدف هذا القانون الى غرض معين وهو توجيه ضربة قاسية لعرب اسرائيل) . فأجابه (مريدور) بأنه : (لا علاقة ليهود اسرائيل بخلق الوضع الذي استوجب اصدار مثل هذا القرار) . واوردت الصحيفة تقديرات المحامي (حسين ابو حسن) التي قال فيها بأن هناك ثمانون جمعية طوعية عربية ، تتلقى ٩٠ ٪ من مخصصاتها المالية من الخارج ، وأن هذا التعديل سيدمر عملها تماماً . ونشرت الصحيفة أيضاً ماذكره عضو في « الجمعية العامة للحضارة والفنون » ، وهي جمعية في « ايبللين » تعمل على مبدأ الاعتماد الذاتي :

(هذا يعني اغلاق المنفذ الاخير لنا ، فالحكومة لاتقدم لنا المال لدعم مجالسنا المحلية ، واذا لجأنا الى الوكالة اليهودية ، فانهم يقولون لنا : « لقد أتى هذا المال من اليهود لمساعدة اخوانهم اليهود » . اما الدول العربية فتعتبر دولا معادية ، واذا حاولنا الاتصال مع الفلسطينيين في الخارج ، هذا يعني بأننا ارهابيون حسب اللغة التي تعرف بها الحكومة الأشياء) .

وفي صيف عام ١٩٨٩ قامت وكالة تنمية اوربية تعمل على مساعدة الفلسطينيين بارسال نداء استغاثة الى الاصدقاء والزملاء تقول فيه :

(الأمر الذي يثير القلق في المسودة المقترحة هو التعريف الشامل والغامض لما تسميه المسودة (بالمنظمة غير الشرعية) ، وكذلك حرية التصرف الواسعة التي أعطت الى الهيئات الادارية ، وتغيير عبء الإثبات والتقليل من اهميته . علاوة على ذلك، تمنح المسودة سلطات واسعة الى الشرطة لمصادرة الممتلكات قبل ان يتسنى للسلطة القضائية أن تقرر فيما اذا كانت تلك الاملاك تعود فعلا الى هيئة غير شرعية أم لا) .

وتوقعت هيئات كثيرة أنه حالما تتحول المذكرة الى قانون ، فإن سلطات الاحتلال العسكرية الاسرائيلية في الضفة الغربية وغزة سوف تصدر على الفور أمراً عسكرياً يقضي بأن تتعامل المناطق المحتلة الممتدة

على الخطوط ذاتها مع القطاع الطوعي الرازح تحت الاحتلال والـذي يتعرض دائما لانتهاكات وحشية .

في أواخر عام ١٩٨٩ قدمت عدة منظمات عربية ويهودية مجتمعـة اعتراضاً على القانون المقترح ، وعقد اجتماع في ٥ تشرين الثاني في تل أبيب حضره اكثر من ١٥٠ شخصاً ، ونظمته لجنة الجمعيات الطوعية العربية بالاشتراك مع المركز الدولي للسلام في الشرق الاوسط . وذكر رئيس « اللجنة الاقليمية للمجالس المحلية العربية (ابراهيم نمـر حسين) بأن : (هذا القانون سيلحق اضراراً لاتحصى بالمشـاريع التـي تعتبر على درجة كبيرة من الحيوية للجماعات الفلسطينية هنا ، وذلك بسبب نقص الدعم المادي الحكومي) . وأضـاف (حسين) بأنه (عندما طلب الفلسطينيون الدعم المادي من الحكومة لمشاريع التطوير أجيبوا بأن الأموال المخصصة لهذا الغرض تأتي من المحسنين اليهود في الخارج ، وأن عليهم أيضاً أن يحذو حذوهم ويبحثوا عن المال من الخارج ـ ولكن الآن ، وبعد أن أخذ العرب يطبقون ذلك بالفعل ، بدأت الحكومة تحاول إعاقة حركتهم) .

(الرسالة الاخبارية المنشورة في صحيفة

الهدف عدد رقم ٢ ،١، بلا تاريخ)

وعندما بدأ مجلس النواب بالتحضير لاستئناف المناقشات حول هذا الموضوع ، قام ائتلاف يضم ١٠٢ مجموعة عربية ويهودية بالاعتراض على هذا الاجراء . ونشرت صحيفة (نيويورك تايمز) في عددها الصادر في ١٢ تشرين الثاني عام١٩٨٩ مقتبساتمن حديث الدكتور(حاتم كنانة) من جمعية الجليل للخدمات الصحية والبحوث : (يهدف هذا القانون إلى إعاقة تطوير القطاع العربي لنبقى معتمدين كلياً علـى الحكومـة والأحزاب السياسية الرئيسية) .

وعلقت صحيفة (نيويورك تايمز) على الحدث بقولها :

(يدل الاقتراح الاسرائيلي على القلق من احتمال ازدياد الاعتمادات المالية لمنظمة التحرير الفلسطينية لتشمل عرب اسرائيل . ويظهر أيضاً عدم الثقة التي يشعر بها العديد من الزعماء اليهود تجاه الـ ٧٠٠,٠٠٠ مواطن عربي الموجودين في اسرائيل . وتدرك السلطات الاسرائيلية بأن الاعتمادات الحكومية المخصصة للخدمات الاجتماعية في المدن العربية اقل بكثير من تلك المخصصة لمثيلاتها من المدن اليهودية) .

ضغط لا يلين :

في نهاية الثمانينات ، واجه فلسطينيو ٤٨ تحدياً جديداً مع الأنباء الواردة من الاتحاد السوفياتي والتي تفيد برفع القيود التي كانت مفروضة على الهجرة اليهودية . في السابق كان معظم اليهود الروس الذين يُسمح لهم بمغادرة الاتحاد السوفياتي يتوجهون مباشرة إلى الولايات المتحدة الامريكية ، ولكن بعد تسهيل عملية الهجرة من الاتحاد السوفياتي ، اقترحت الولايات المتحدة بأن اليهود لن يعتبروا بعد اليوم جماعة مضطهدة تستحق معاملة خاصة ، وعليهم منذ الآن ان يقفوا في طابور طويل مع كل شخص يرغب في دخول الولايات المتحدة . لذلك سيحول معظم المهاجرين اليهود السوفيات وجهتهم نحو اسرائيل (ولكن حالما يصلونها ، سيحاول الكثيرون منهم تقديم طلبات لدخول الولايات المتحدة).وفي كانون الثاني عام ١٩٩٠ قدرت صحيفة (نيويورك تايمز) نسبة اليهود السوفيات الوافدين إلى إسرائيل بأكثر من ١٠٠٠ شخص اسبوعياً .

سيؤدي طوفان المهاجرين هذا الى مزيد من الضغط على اكثر الموارد قيمة الا وهي الأرض ، وكذلك على أموال التنمية الواردة من الخارج . لا مجال للشك بأن فلسطيني ٤٨ ، الذين يكابدون الآن الوان العذاب في تلك المناطق ، سيواجهون مزيداً من الضغوط ؛ ولا مخرج لهم من ورطتهم تلك إلا بتحقيق تسوية سلمية بين العرب واسرائيل وتأسيس دولة فلسطينية ــ الأمر الذي سيضع نهاية لآمال الليكود بتوطين اليهود

في الضفة الغربية وغزة . ويجب أن تأوي الدولة الفلسطينية المرتقبة أكبر عدد من اللاجئين الفلسطينيين العائدين من لبنان والاقطار الأخرى. ولكن ، على أية حال لا يرغب فلسطينيو٤٨ بالانتقال الى دولة فلسطينية، لأن مدنهم وقراهم في اسرائيل هي موطنهم ، وهم مصممون على البقاء فيها .

من المحتمل نشوب مواجهة بين الفلسطينيين واليهود داخل إسرائيل ، ويتوقع أن تكون مواجهة دامية ، ولكن حتماً لن يكون الفلسطينيون هم أول من يلجأ الى استخدام العنف . فباستثناء العقد، أو نحو ذلك ، الذي تلى نشوء دولة اسرائيل ، لم يكن (الكفاح المسلح) عملا مألوفاً بين فلسطيني ٤٨ ، وشهد العقدان الأخيران استخداماً رفيعاً متزايداً للأساليب الديمقراطية للتوصل الى التغيير ، وعلى اية حال ، إذا أغلق اليهود الاسرائيليون جميع المعابر الديمقراطية ، ولجأوا الى استخدام القوة ضد الفلسطينيين ، سيكون الناتج العنف .

المخرج الوحيد من الأزمة هو أن يواجه يهود اسرائيل التناقض الأساسي في كون إسرائيل دولة يهودية وديمقراطية في آن واحد . فعند المستوى القاعدي ، يجب أن تتحول اسرائيل من « مأوى » لليهود المضطهدين الى دولة طبيعية حيث تنطبق ، كما يقترح الروائي (انطون شماس) ، معايير الهجرة ذاتها على الجميع ، وعلى اساس عدد الوافدين الجدد الذي تستطيع الدولة استيعابه ، مع استمرارها بتقديم فرص متساوية لمواطنيها المقيمين . ويجب حتماً التخلي عن استخدام مبدأ اللاسامية (المعاداة اليهود) كحجة لوجود إسرائيل . وسيستمر المواطنون اليهود في دول أخرى بمحاربة اللاسامية لوضع حد لأي تميز في المعاملة يمكن أن يواجههم في تلك الدول . ويجب أن تكون الروابط التي تشد اليهود الى اسرائيل روابط دينية ، كتلك التي تربط الكاثوليك بالفاتيكان؛ او روابط عاطفية ، كالتي تربط الأمريكيين « بالوطن الأم » . ويجب أن لا ينظر الى دولة إسرائيل على أنها وطن بديل ــ الوضع الذي يعرض اليهود المقيمين في الدول الأخرى الى اتهامهم بالولاء المزدوج .

وحالما تكف اسرائيل عن كونهـا مأوى يهودي ودولة يهوديـة ، ستنتقل الى فترة ما بعد الصهيونية . لذا فالجواب على مشكلة المساواة والتعايش السلمي بين اليهود الاسرائيليين والعرب هو دولة إسرائيل (الخالية من الصهيونية) . وطالما ان غالبية اليهود الاسرائيليين ما يزالون بعيدين عن رؤية الأمور بهذه الطريقة ، يبدو أن العقد التالي يحمل بين طيـاته مأسـاة .

وعلى اية حال ، يؤمن الآن كثير من الفلسطينيين بإمكانية نجاح هذا الحل ، فقد مرت مسيرة تطور الكفاح الفلسطيني عبر ثلاث مراحل . المرحلة الأولى وهي : (النضال المسلح) الذي قاده الفلسطينيون في المنفى كرد فعل على قيام إسرائيل بطردهم من وطنهم ، وأدى هذا النضال الى إبقاء الأمور جارية بنشاط ولكنه لم يحل المعضلة. اما المرحلة الثانية فهي : التنظيم المدني ومقاومة التوسع الاسرائيلي في الضفة الغربية وغزة، وبلغت ذروة هذه المرحلة باندلاع الانتفاضة . أما المرحلة الثالثة ، والتي هي قيد التبلور ، فتعود الى فلسطيني ٤٨ الذين يناضلون على المدى الطويل للوصول الى دولة إسرائيل الخالية من الصهيونية ؛ وإنشاء دولة تعمل ، ووفق ديمقراطية حقيقية ، من أجل صالح كافة مواطنيها .

في الوقت الحالي ، يتركز اهتمام فلسطيني ٤٨ على السبل الكفيلة بانهاء سياسة التمييز وتحقيق الاعتراف بهويتهم كعرب فلسطينيين . في القسم الثاني من الكتاب نلتقي بعدد كبير من المواطنين العرب الفلسطينيين في إسرائيل لنستمع الى المشاكل التي يواجهونها ، والى الحلول التي يبتكرونها . ويروون لنا قصصهم بكلمات واقعية تكفي لوصف شؤون حياتهم اليومية ، وعاطفية لرسم حلم المستقبل .

* * *

القسم الثاني

صورة عن بناة المؤسسات

(مذ حوالي خمس سنوات) أو نحو ذلك ، اتخذت قراراً جازماً ألا أستعمل كلمة عبرية واحدة أثناء تكلمي العربية . وفي إحدى المناسبات كنا في اجتماع مع بعض اليهود اليساريين ، الذين يتكلمون العبرية فقط ، لذا قررنا ان نلجأ الى شخص يترجم لنا اللغة العبرية الى العربية ، على الرغم من أننا نتحدث جميعاً العبرية بطلاقة . ثم ، وبعد انتهاء الاجتماع ، ذكر احدنا كلمة باللغة العبرية فصعق اليهود من الدهشة ، وصاحوا محتجين : (عجباً ، إنكم عربنا نحن برغم كل شيء !)

مروان – ١٩٨٩



الفصل الخامس

المستشارة : سهام في عكا

(لقد سألتهم : هل تعترضون على وجود مؤسسة تربوية ، ام مؤسسة عربية تربوية ؟)

((سهام))

قال احد المواطنين وهو يحدق في البحر وفي الشمس التي تستعد للرحيل : (لا يوجد مشهد غروب أجمل من مشهد الغروب في عكا) .

يبلغ عدد سكان مدينة عكا ٤٥،٠٠٠ نسمة ، منهم حوالي ١٥،٠٠٠ عربي ، يعيش ١٠،٠٠٠ عربي في عكا القديمة ، وهي منطقة جميلة تشرف للأسف على الانهيار . ولكن على الرغم من حالتها المضطهدة ، إلا أن هالة من الجلال تحيط بها وكأنها تقول : (كان لي يوماً ما ماض مجيد) .

ويؤمن المواطنون العرب بأن مجلس البلدية يترك المنطقة تنهار بهذا الشكل حتى يضطر السكان للرحيل ؛ عندئذ يمكن أن تتحول المنطقة الى مكان يجتذب السياح ، ومناطق اقامة لليهود ؛ خاصة أن العديد من يهود تل أبيب يودون الانتقال الى عكا .

وقامت السلطات بالفعل باقناع بعض الفلسطينيين بالانتقال الى مدينة يطلق عليها (ماكير) ، ونجحت في التأثير على العائلات المعدمة التي

تقطن في منازل منهارة ، وكذلك الشباب الذين يرغبون بتأسيس أسر جديدة ، بأنها قد بنت لهم شققاً جديدة وفخمة . وعندما أصبحوا في مدينة (ماكير) ، وجدوا انفسهم يعيشون في شقق صغيرة تشبه علب الكبريت ، وذلك فضلا عن الاستياء الذي قابلهم به السكان العرب المحليين الذين شبهوهم باليهود الذين استوطنوا الأراضي العربية بدون دعوة من أصحابها . لذا يتشوق الكثيرون من الفلسطينيين الذين انتقلوا الى (ماكير) للعودة الى ديارهم القديمة .

فسر احد المواطنين بلهجة غاضبة : (تقوم السلطات بمصادرة عكا القديمة شيئاً فشيئاً ، فعلى سبيل المثال ، كان الشاطىء العربي منطقة عامة ترتادها العائلات للتنزه والرحلات . أما الآن فقد صادره اليهود ، وبنوا عليه المطاعم والنوادي الليلية ، وأشادوا حوله سياجاً يمنع السكان المحليين من الاقتراب ويمنع الدخول الا لمن يدفع أربعة شيكلات) .

وتحاول السلطات اليهودية الاسرائيلية أيضاً نقل الصيادين ، ولكنهم يبذون مقاومة شديدة (تفوق ، على ما يبدو ، مقاومة صيادي يافا) ، لذلك لجأت السلطات الى ممارسة ضغوط أخرى كتحويل المنطقة الى مكان سياحي وتخصيص مرسى للسفن والمراكب الشراعية ؛ الأمر الذي حصر المناطق المخصصة لارساء قوارب الصيادين ، وأبقى لهم مكاناً محدوداً لشباكهم ، فضلا عن ذلك ، فرضت السلطات قيوداً صارمة على أمكنة بيع الأسماك .

خارج الجدران المطلة على البحر ، يعيش بعض الفلسطينيين في منازل قديمة عربية الطراز ، والبعض يعيش في فيلات فخمة ؛ ويعيش آخرون في شقق للجمعيات كانت تقطنها في السابق عائلات يهودية انتقلت الى مكان آخر ، ويسكن عدد قليل أيضاً في شقق سكنية مستقلة .

تبلغ (سهام) الثانية والأربعين من عمرها ، وتعمل مستشارة في (دار الطفل) ، وعضواً في (اتحاد نساء عكا العربيات) ؛ وهي الى جانب

ذلك تعمل مدرسة في مدرسة ثانويــة ومحاضرة في جامعة حيفا . تبدأ (سهام) يومها في الثامنة صباحاً ، وغالباً ما ينتهي في الحادية عشرة ليــلا . إنها سيدة طويلة القامــة ، وقورة ، ولا ينقصها حرارة وعبث الفتيات ؛ وتقطن في شقة سكنية مع ولديها : (أحمد) في العشرين من عمره ، و (عليا) في الخامسة عشر من عمرها . يضم المبنى الذي تقطن فيه ٣٢ شقة ، يشغل سبع منها عائلات عربية ، والباقي تشغله عائلات يهودية . وتتألف شقة (سهام) من ثلاث غرف نوم ، ومكتب ، وغرفة جلوس واسعة ، ومطبخ وحمام .

تختلف شقتها الى حد كبير عن المنزل الذي نشأت فيه ، حيث ما تزال والدتها وشقيقتها الكبرى العزباء (لميس) تعيشان فيه . يتألف منزلهمــا ، ذو الطراز العربي ، من ست غرف فسيحة وحديقــة كبيرة شهدت أياماً أفضل من هذه الأيام . ويحرس المنزل كلب الزاسي ضخم ، يبقى مقيــداً طوال النهار الى احدى الأشجــار ، ولا يكف عن ترويض أطرافه الممتلئة في دورات حول نفسه بقدر ما يسمح له قيده ، ويطلق في الليل ليتجول في الحديقة . ولا يسمح له بدخول المنزل في النهار أو في الليل لأن الكلاب ، وفق التقاليد ، حيوانات غير طاهرة .

تقوم (سهام) يومياً بزيارة شقيقتها ووالدتها العجوز البالغة من العمر ٨٤ عاماً ، وهي سيدة عاجزة عن الحركة ولكنها تملك ذهناً حاداً وروحاً مرحة . أما (لميس) فهي في بداية العقد الخامس من عمرها ، وهي مسلمة ملتزمة ولكنها ليست أصولية ؛ إنها امرأة لطيفة وترحب دائماً بالزوار الذين لا يتوقفون عن التدفق طوال اليوم من أقاب وجيران واصدقاء .

وصلت (سهام) بعد الظهر الى منزل والدتها قادمة من (دار الطفل) ، كان الجو حاراً ومشبعا بالرطوبة ، قبلت والدتها وشقيقتها ، ثم القت بنفسها في كرسي ، وقد بدا عليها التعب والجوع .

قالت ليس : (سأسخن الطعام) .

قالت سهام مبتسمة : (في الواقع لا أملك الوقت الكافي لطهي الطعام بسبب مواعيدي المزدحمة ، لذا عقدت اتفاقاً مع ليس : إذ أشارك في نفقات الطعام ، وهي تحضر كمية كبيرة تكفيني أنا وولدي . وأتناول كل يوم طعامي هنا ، ولكن لا يحضر أحياناً ولداي . لذا آخذ حصتيهما معي الى المنزل ، وفي بعض الأحيان يحضر (أحمد) لنفسه وجبة بسيطة بالطبـع) .

سألتها والدتها اذا كان ولداها سيحضران لتناول الطعام .

اجابت سهام : (لا ، ما يزال احمد يدرس من أجل الامتحانات ، وقدمت (عليا) اليوم آخر امتحاناتها وخرجت للقاء صديقاتها قبل أن تسافر الى أمريكا لقضاء عطلة الصيف) .

حدقت (سهام) في لوحة كبيرة على الحائط تمثل صورة رجل عجوز ذي وجه وسيم ، ثم قالت :

(إنه والدي ، كان رجلا طيبا وعاقلا جدا أيضا . اتعلمين أنه بسبب بقائه في عكا أثناء كل المشاكل التي حدثت تمكن من المحافظة على هـذا المنزل ؛ فقد حافظ على أوراق ملكيته وأنقذ منزله .

وكانت لديه أملاك اخرى بالاشتراك مع صديق له كان قد غـادر البلاد ومعه أوراق الملكية ، فقام اليهود بعد ذلك بمصادرة بعض الأملاك بحجة عدم وجود أوراق رسمية تثبت اشتراك والدي في الملكية .

عندما وقعت البلاد تحت الاحتلال ، لبست النساء ثياب الحداد، وامتنعن عن الذهاب الى الحمام العمومي، وكذلك عن تسريح شعورهن، واصبحن أكثر عزلة بسبب خوفهن مما قد يفعله اليهود لهن . وأُخرجت الفتيات من المدارس في سن مبكرة فتزوج بعضهن ، ومكثت الاخريات في

منازلهن ، دون زواج بسبب مغادرة أقاربهن البلاد ، ولا يسمح الآباء بزواج بناتهم للغرباء .

لم يكن الناس واقعيين تجاه الوضع ، واعتقدوا أن المحتلين سيبقون فقط لفترة وجيزة ، ولكن في نهاية الامر كان عليهم أن يواجهوا الحقيقة . لذا عندما أصبح التعليم مجانيا في الخمسينات ، سمحت العائلات للفتيات باتمام الدراسة ، مع العلم أن ذلك لم يكن من أجل التعليم فحسب ، بل كان حلا افضل من بقاء الفتيات عاطلات . من ناحية اخرى ، اخرج الفتيان من المدارس في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشر لكي يعملوا ويساعدوا عائلاتهم ماديا ، اذ عانى معظم الناس من خسائر اقتصادية فادحة. فجع والداي، كما حصل للجميع وقتذاك ، من خسارتهما للارض ، ولكنهما لم يعلما في الواقع النتائج القومية لذلك ، اذ انحصرت معاناتهما على المستوى الفردي والشخصي الى حد كبير ، ولم يكن شغلهما الشاغل كيفية تحرير البلاد بل كيفية حماية العائلة) .

ردت والدة سهام بضحكة خافتة: (ربما أصبح الناس اليوم أكثر وعيا ولكنهم ليسوا اكثر تهذيبا . فقد كافحنا نحن أيضا في الماضي ، واتذكر حتى الآن كيف بقي الناس في عكا تحت الحكم التركي دون طعام او لباس وكنت أسير من عكا الى حيفا لاجلب الطعام واحمله فوق راسي وعلى ظهري وذراعي ، واسير به طوال طريق العودة .

كان معظم رجالنا يخدمون في الجيش التركي ، ومن بقي في عكا كان يخجل من البحث عن الطعام وجلبه ، لانها كانت مهمة النساء . ثم بعد ذلك ، وخلال فترة المقاومة ، كان بعضنا يحمل الطعام والشاي للمقاتلين في الجبال ، وكنا نمضي الساعات ونحن نحاول ازالة الصدأ عن الذخيرة الحربية التي كانت ترسل من مصر) .

قطع المحادثة وصول (حسين) ، احد أشقاء (سهام) ، وهو في الثانية والخمسين من عمره ، ويمتلك مطعما يشرف على البحر . قبل (حسين) والدته واستفهم عن صحتها ، وقالت وعلى وجهها ابتسامة عريضة : (تريدان الحصول على معلومات عن الماضي) .

تابعت (سهام) روايتها : (في عام ١٩٤٨ ، كانت والدتي تشعر بالخوف الشديد علينا ، لاننا كنا اطفالا ، وخاصة على شقيقي الذي كان مهددا بالاعدام على أيدي اليهود . ففي تلك الايام ، كانوا يلقون القبض على الشبان اليافعين ويضعونهم في السجن ، ويهددونهم بالاعدام ليثبطوا عزائمهم عن الدفاع عن بلدهم . أرادت والدتي وقتذاك أن نغادر جميعا البلاد ، الا أن والدي أبى ، وقال أن الاتراك احتلوا بلادنا ثم غادروا ، وأتى بعدهم الانجليز ورحلوا ، والآن قدم اليهود ولكنهم سيرحلون أيضا ، وان هذا وطنه ومنزله ولن يغادرهما . وقال لها أنه لا يستطيع أن يتحمل وزرها هي والاولاد ، فاذا كانت تشعر بالخوف الى هذا الحد فلتغادر مع الاولاد .

وهكذا بقي والدي ، وذهبنا نحن الى لبنان لمدة عام او نحو ذلك . ثم أذن له باستعادة عائلته ، ولكن ليس جميع أفرادها : بل زوجته وبناته العازبات ، والفتيان الذين لا تتجاوز أعمارهم السادسة عشر لذا لم تستطع شقيقتاي المتزوجتان العودة ، وكذلك شقيقاي اذ تجاوز أحدهما السادسة عشر عاما ، والثاني بلغها ، فتفرقنا للمرة الاولى في حياتنا وما نزال كذلك حتى الآن) .

قال (حسين) : (لم يكن هناك وعي سياسي في تلك الايام ، وكان شعورنا عاطفيا بحتا. اذكر عندما عدنا من لبنان انني اضطررت لترك المدرسة من أجل العمل ، وعملت وقتذاك نجارا في الكيبوتز (مزرعة جماعية يهودية) ، أبني منازل مسبقة الصنع لليهود ، وأمضيت في هذا العمل قرابة عام ، كنت خلاله في غاية السعادة. فقد كان الكيبوتز بالنسبة لي مثالا نموذجيا عن الاشتراكية التي تاثرت بها كثيرا . وهكذا

كنت هناك أبني المنازل من اجل الاشخاص نفسهم الذين اغتصبوا أرضي ووطني ، ولكنني لم أكن أعلم بذلك ــ فقد كنا نجهل قضيتنا من الناحية السياسية الى حد كبير . كل ما كان يهمني هو أن عددا مــن افراد عائلتي قد غادروا البلاد ولم يسمح لهم بالعودة) .

قالت والدته متنهدة : (نعم ، لقد فرق اليهود بيننا ، وسببوا لنا ألما كبيرا) .

تابع (حسين) قائلا : (اعتدت وقتذاك أن انــام في الكيبوتز ، وأذهب بعد ظهر يوم الجمعة الى المنزل ، ثم اعود الى العمل يوم الاحد أدرك والدي ، الذي كان رجلا حكيما ، انني تأثرت بالحياة في الكيبوتز وبأنه قد بدأ يفقد سيطرته علي . فقرر أن يجــد وسيلة لابقائي في عكا بما انني سأكون المسؤول عن العائلة بعد وفاته . كان في تلك الايــام يملك مقهى مع شريكه ، وأخبرني أن أتولى نصيبه في المقهى لانه أصبح مسنا وتعب من العمل .

رفضت عرضه في البداية لانني كنت أرغب في البقاء في الكيبوتز ، ثم استسلمت لرغبته ، فتوليت نصيبه في المقهى . وبما انه لم يكــن هناك حينذاك مطاعم جيدة في عكا ، قمت باقناع شريكي بأن نحول المقهى الى مطعم . ثم اشتريت كامل حصته . وعندما استقرت اقامتي في عكا ، بدأت أقرأ صحيفة (الاتحاد) الشيوعية ، واستمع الى خطابات عبــد الناصر ، وأخذت تدور في مخيلتي أسئلة كثيرة عما كان يجري حولي ، وهذا بدأ ادراكي للامور يتطور) .

قالت (سهام) معلقة : (وكان والدي رجل دين تقليديا ، ولكنه كان حكيما ولديه أفكار سليمة عن العدالة . فقد تزوج أربع مــرات ، ولكن ليس في وقت واحد ، فقد كان يقول دائما أنه لا يعتقد بأنه قادر على تقسيم وقته بشكل متساو بين عدة زوجات . وانجب ثلاثة عشر ولدا ، أنا أصغرهم وكان يؤمن بأن الاولاد هم مسؤوليته الوحيدة ، لذا

نشأنا جميعا في بيت واحد تحت رعايته ورعاية والدتي ـ زوجته الاخيرة وكان دائما يحرص على معاملتنا جميعا بشكل متساو ، وان لا يستغل احدنا الآخر . لقد بدأ شعور والدي بالمسؤولية في سن مبكرة جدا ، فقد توفي والده وهو في الثانية عشر من عمره، فاضطر لمغادرة (الكتّاب) المدرسة التقليدية ـ والبحث عن عمل ليعيل زوجة أبيه وأخوته واخواته. ولكنه كان يتوق كثيرا لاكمال دراسته ، لذا كان يرشي أقرانه الذين بقوا في (الكتاب) بالحلويات والنقود ليساعدوه في حفظ ما يتعلمونه) توقفت (سهام) عن الكلام وابتسمت وهي تقول : (انني أتكلم كثيرا) وركزت اهتمامها على الطعام برهة ، ثم تابعت روايتها : (كان التشتت الذي أصاب العائلة ضربة قاسية له ولنا جميعا . في البداية كان ادراكي ينحصر ايضا عند المستوى العاطفي ، ثم عندما تولى (ناصر) الحكم ، بدأ الوعي العاطفي يتطور الى وعي قومي ، وخاصة لدى الشباب . وتطلعنا الى (ناصر) وكأنه يمثل رمز ثورتنا ، وملأت خطاباته نفوسنا بالثقة في القضية العربية . ففي تلك الأيام ، لم تكن القضية الفلسطينية قضية منفصلة ، بل كانت تشكل جزءا من العالم العربي الكبير ، وخاصة مصر . وهكذا بدأ وعيي ينمو وأنا اصغي الى خطابات (ناصر) وخطابات قادتنا الوطنيين .

يستطيع ولداي اليوم مناقشة اهتماماتهما السياسية معي ، ولكنني لم أكن استطيع ان احذو حذوهما في الماضي مع والديّ ، لأنهما، وكغيرهما من الآباء ، كانا يطلبان مني التزام الصمت خشية ان اورط نفسي وعائلتي بالمشاكل. لقد أدى خوف الجيل السابق ، الى جانب عجزهم عن مواكبة التغييرات الحاصلة في مواقف الشبان ، الى خلق خلافات داخل محيط العائلة ، فقد واجه الجيل السابق وضعا مجهولا تماما بالنسبة لهم ، ليس فقط فيما يتعلق بالاحداث التي كانت تجري في المجتمع الاوسع ، بل فيما يتعلق بفلذات اكبادهم .

في حوالي عام ١٩٦١ ، قام اليهود بقتل بعض الفلسطينيين وهم يحاولون الهرب الى الاردن ، فقامت على أثر هذه الحادثة مظاهرة ،

وقمنا انا وصديقاتي ، بتحدي المديرة وغادرنا المدرسة ، واشتركنا في المظاهرة . وعندما ألقي القبض علي ، لم أكن صدقا أعلم وقتذاك فيما اذا كنت فزعة من رجال الشرطة أو مما سيقوله اهلي عندما يعلمون بالامر . ولكن ايماني بما فعلته زودني بالقوة عندما واجهت رجال الشرطة. كنت في الواقع أكثر خوفا من موقف اهلي تجاه ما حدث .

وأطلق سراحي في اليوم نفسه . وعندما عدت الى المنزل اضطررت الى اختلاق كذبة تبرر غيابي ، ولكن سرعان ما انفضح أمري عندما حضر رجال الشرطة الى منزلنا في منتصف الليل لاستجوابي . وغضب والدي واخوتي الاكبر سنا لانني كذبت عليهم أكثر من غضبهم من مشاركتي في المظاهرة . بعد ذلك بفترة وجيزة ، جرح أحد اخوتي على يد يهودي مغربي ، فأدرك والدي أخيرا ان الوضع أكثر خطورة وتهديدا مما كانا يتوقعانه ، لذا توصلا الى تفهم كامل لمشاركتي السياسية .

وفي عام ١٩٦٧ عندما استمعنا الى اذاعة القاهرة وعلمنا بالانتصارات التي حققها الجيش المصري صدقنا بالطبع ما قالوه وشعرنا بفرح غامر وفخر شديد . في ذلك الحين فقط سمعت والدتي وللمرة الاولى تتحدث علنا عن الفلسطينيين ، وقالت انها ستفتح بابها امام جميع الفلسطينيين الذين سيعودون ولن يجدوا مأوى يظلهم . ادركت عندئذ انه برغم الخوف الذي يسيطر على والدي الا انهم فلسطينيان في الاعماق .

اتت كارثة ١٩٦٧ وغيرت مواقفنا ، فقد واجهنا أخيراً الحقيقة التي علمتنا بأن الشعب الوحيد المسؤول عن القضية الفلسطينية هو الشعب الفلسطيني نفسه) .

أومأ بقية أفراد العائلة رؤوسهم في تأييد كامل .

تابعت سهام قائلة : (مع أن والدي كان رجلاً تقليديا ، إلا أن ذهنه لم يكن مغلقاً . كنت في أغلب الأوقات أتصرف وفق رغبته كي لا أُحرم

من مواصلة دراستي ؛ فقد اضطر شقيقي لمغادرة المدرسة بحثاً عن مصدر للرزق ، وكذلك فعلت شقيقتي (ليس) . كان لدى والدي بعض الأملاك ، ولكنه كان يفتقر الى السيولة النقدية بعد أن اضطر الى إقفال طاحونة الدقيق ، التي كانت تعتبر في الواقع مصدر دخله الرئيسي) .

تابعت (ليس) وهي أيضاً عضواً في(جمعية نساء عكا العربيات) قائلة: (نعم ، لقد تركت المدرسة وأنا في نهاية الصف السادس . وكنت في الخامسة عشر من عمري وأكبر سناً من جميع رفيقاتي في الصف ، لأنني ابتعدت عن المدرسة مدة عام ونصف تقريباً بسبب ذهابنا الى لبنان . وعندما تركت المدرسة ، عملت في مركز (كوايكر) الذي كان يضم نادٍ وروضة أطفال ومستوصفا . وكنت أرغب بأن أصبح ممرضة ، ولكن والدي رفض لأنه لم يكن يسمح في تلك الأيام لفتيات العائلات المحافظة أن يلتحقن بمهنة التمريض ، إذ كانت تعتبر عملاً وضيعاً .

لذلك التحقت بالعمل في روضة الأطفال ، ثم تعلمت كيفية وزن الأطفال ، والمساعدة في تقديم الإسعافات الأولية في المستوصف . ومع أن مغادرتي المدرسة كانت بسبب وضعنا المالي ، إلا ان والدي رفض أن ياخذ قرشاً واحداً من المال الذي كنت أحصل عليه ؛ فقد كان يشعر بالذنب في أعماقه لمنعي من مواصلة تعليمي . عملت في المركز مدة عشر سنوات ، تعلمت أثناءها الخياطة أيضاً مع انني كنت اكرهها . ولكن عندما أقفل المركز ابوابه ، قررت أن أمتهن الخياطة ، وأعمل الآن في المنزل ولدي زبونات من المدن والقرى : عربيات ويهوديات) .

قالت (سهام) معترفة : (كنت محظوظة جداً لأنني تمكنت من متابعة دراستي . في البداية ، عندما كنت في السادسة من عمري التحقت بمدرسة ابتدائية كنت أكرهها لأنهم كانوا يضربوننا ويوخزوننا بالإبر إذا أفسدنا الخياطة ؛ كنت أشعر بالفزع الشديد من تلك المدرسة لذا لم أتعلم شيئاً . تفهمت (ليس) هذا الوضع ، وكذلك شقيقي ،

فأقنما والديّ بإلحاقي بمدرسة أخرى ؛ فأرسلت الى مدرسة للراهبات وبقيت فيها حتى الصف العاشر عندما أغلقت المدرسة .

ثم اراد والديّ أن يبقياني في المنزل لأتعلم الخياطة بحجة أنني قد نلت نصيباً كافياً من العلم ، ولكنني شعرت بفزع شديد ، ولجأت الى مختلف الأساليب لإقناعهما بالسماح لي بمواصلة تعليمي . حاولت إقناعهما اولاً بالحجة والمنطق ، ثم لجأت الى اسلوب العزوف عن الكلام، ثم حاولت التزلف إليهما حتى أذعنا أخيراً لمطلبي . وأرسلت الى مدرسة داخلية في حيفا ، حيث كان يحضر شقيقي في عطلة نهاية الأسبوع لاصطحابي الى المنزل ثم إعادتي في نهاية العطلة . إذ لم يكن يسمح للفتيات في تلك الأيام أن يسافرن بمفردهن ، ولا يعود السبب الى التقاليد الاجتماعية فحسب ، بل الى خشية الآباء من تاثير المجتمع الأكبر ، وما يمكن أن يفعله اليهود لنا . أما اليوم فتذهب ابنتي بمفردها الى مدرستها في حيفا يومياً) .

هزت والدة (سهام) رأسها ثم قالت وعلى وجهها ابتسامة عريضة: (كنت أذهب أنا أيضاً الى المدرسة ، ولكنني كنت كثيراً ما أتغيب عنها دون إذن ، إذ كنت العب في الشارع حتى يحين موعد الذهاب الى المنزل . وعندما اكتشفت والدتي أمري ، انهالت عليّ بالضرب ، وكذلك فعلت المعلمة . وأصبح شقيقي يصطحبني كل يوم الى المدرسة كيلا أتغيب ثانية . ولكن عمي (كان والدي متوفى) أشار على والدتي أن تخرجني من المدرسة ، وقال إنني يجب أن لا أتعلم القراءة والكتابة حتى لا أقوم بكتابة رسائل غرامية الى الفتيان) وقهقهت عالياً من الفكرة ، ضحكت (سهام) وضمتها الى صدرها متابعة : (لم أجد صعوبة في إقناع والديّ بالالتحاق بالجامعة ، فقد أدركا قيمة التعليم بالنسبة لي ؛ فضلاً عن شعورهما بالفخر للدرجات الممتازة التي حصلت عليها في امتحان القبول بالجامعة . وكانا على ثقة تامة من أنني لن أسيء الى القيم العائلية أو الحق بهما العار . وعلى الرغم من أنني عشت حياتي

كما يرغب والدي ، إلا أن هناك عادة واحدة لم أستطع أن أجبر نفسي على تقبلها ، وهي : الزواج التقليدي) .

انقطع الحديث مع (سهام) بسبب وصول بعض الزوار ، وبعد برهة قصيرة ذهبت لحضور اجتماع في حيفا ؛ وفي طريق عودتها عرجت على منزل والدتها . كانت العجوز تغالب النعاس في كرسيها المخصص للمقعدين ، و (ليس) تشاهد برامج التلفاز ؛ أما الكلب فقد حصل على حريته لهذا المساء .

وعلى الشرفة كان الصمت يغلف المكان ، ويهب من جهة البحر نسيم مشبع بالرطوبة . بعد هينهة بدات (سهام) تتكلم : (كنت أقول في وقت سابق بأنني لم اقبل فكرة الزواج التقليدي ، لم أستطع الموافقة على الزواج من رجل لا أعرفه تقدم لخطبتي من أهلي ليس بدافع احترامه لشخصي ، بل لأنني ابنة هذا أو شقيقة ذاك . لقد كان هذا الموضوع مشكلة كبيرة بالنسبة لي لأنني ، من ناحية ، لم أكن أريد أن أخرق التقاليد وأثير الخلافات في عائلتي ؛ ولكني من ناحية ثانية ، لم أستطع ان أخضع لأمر يتناقض الى حد كبير مع مبادئي ومعتقداتي . لذا كلما تقدم أحدهم لطلب يدي من عائلتي كانت إجابتي الوحيدة : (غير موافقة على الإطلاق) . وكانا يبذلان ما بوسعهما لإقناعي ولكن دون جدوى .

ثم أخبرتني إحدى صديقاتي ان شاباً من معارفها قد سمع عني ويتوق للقائي . كان يحضّر لتقديم الماجستير ويدرّس في الوقت نفسه في جامعة القدس . إلا انني رفضت مقابلته ، لأن لقاءه سراً يعني الإساءة الى الثقة التي أولتني إياها عائلتي ؛ بالإضافة الى انه أثار فضولي ، لأنه في تلك الأيام كنا نعتقد أن كل شخص يحصل على عمل بعد التخرج ، او يمارس مهنة جيدة ، لا بد وانه يتعاون مع اليهود .

لقد كنّا نقيّم أنفسنا وقدراتنا بمنظار سلبي ، فقد نجح اليهود بزرع العديد من العقبات في طريقنا لإعاقتنا عن التقدم في حياتنا وأعمالنا ؛

لذا إذا حصل عربي على عمل جيد ، كانت توضع حوله في الحال إشارة استفهام . على أية حال ، هزمني فضولي في آخر الأمر ، ووافقت على لقائه في منزل صديقتي ولمدة خمس دقائق فقط ، ثم أسرعت الى منزلي وشعور بالذنب يكتنفني لأنني التقيت به دون علم والدي . وخشيت أيضا أن يكتشفا امري ويمنعاني من متابعة دراستي . ففي تلك الأيام، إذا لم يعجب الأهل بسلوك فتياتهم ، كان اللوم يتجه في الحال الى التربية والتعليم .

وبعد تفكير دام شهرين وصراع داخلي في نفسي ، قررت أن القاه ثانية . لم نقع في الحب من النظرة الأولى او أي شيء من هذا القبيل ، والكننا اكتشفنا بيننا تشابهاً فكرياً كبيراً . فقد كان يرغب في متابعة دراسته ويتمنى أن أحذو حذوه . كان شخصاً طموحاً مثلي تماماً ؛ ولم اكن ارغب في إعاقة تقدمه والإصرار على دعمه لي ، كما كان من الممكن أن تفعل أية امرأة أخرى .

واكتشفت ايضا انه من المستحيل أن يكون شخصا متعاونا مع اليهود ، بل كان يشعر بانتماء عظيم لوطنه ، بالإضافة الى أنه قومياً فلسطينياً متحمساً . اشتغل عاملاً لفترة من الزمن ، ثم أصبح أخيراً مدرساً ، وفي الجامعة كان من الطلاب الرواد ، وكان مصمماً على متابعة دراسته .

وافقت على الزواج منه ، ولكني حذرته أيضاً أن الموضوع يعود فعلاً لوالدي ، ففي حال رفضهما لن أكون مستعدة لمخالفة رغباتهما . وقبل ان يتقدم لخطبتي رسمياً ، اخبرت شقيقي بالموضوع ، وهو بدوره تكلم مع والدي . وعندما اجتمعا به ، نال إعجابهما وتزوجنا . ورفضت بشكل جازم أن يدفع لي المهر ، وهو مبلغ يدفعه العريس عادة الى أهل العروس لشراء الملابس والذهب والأثاث وغيره ... من أجل العروس . وكان المبلغ الذي يدفع في تلك الأيام يتناسب مع مقدار جمال الفتاة

وتحصيلها العلمي . فكان الموضوع اشبه بالمزاد العلني في سوق البيع ، الأمر الذي وجدته مهيناً للغاية ، واشتركنا معاً ببناء عش الزوجية .

كنت في ذلك الوقت في السنة الدراسية الأولى في الجامعة ، قسم اللغة العربية ، ثم انتقلت الى قسم التربية ، لأن اللغة العربية التي كانت تدرّس آنذاك توافق أغراض اليهود : فقد كانوا يدرّسون القواعد العربية باللغة العبرية ، والقرآن باللغة العبرية ، وهكذا ... فوجدت أن دراستي بلا معنى . وفي نهاية العام الأول نال زوجي منحة تعليمية للحصول على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من أمريكا ، حيث تابعت دراستي هناك لمدة عام واحد ، وعندما عدنا الى الوطن حصلت على شهادة البكالوريوس . ثم حصل زوجي على إجازة للراحة امضيناها في الولايات المتحدة حيث انهيت دراسة الماجستير ، وتابعت دراستي بعدها الحصول على الدكتوراه .

اتممت كامل تحصيلي الجامعي اثناء فترة حياتي الزوجية ، كنت اشعر احياناً انه كان من الأفضل أن أكون تلميذة خالية من المشاغل دون أن أضطر لتحمل مهام أم وزوجة في الوقت نفسه ؛ ولكني أعتقد أن الطريقة التي حصلت بها على شهاداتي العلمية لها أيضاً جوانبها الإيجابية .

توفي زوجي منذ ثلاث سنوات ، ومررت بفترة قاسية جداً ؛ كنت قد اعتدت على القرارات المشتركة ، وفوق كل ذلك على المشاركة في مسؤولية تربية الأولاد ، وفجأة وجدت نفسي وحيدة عليّ أن اتخذ جميع القرارات بمفردي . لم أنشيء ولديّ وفق طريقة الخضوع للسلطة الأبوية ، لأنني لم ارغب بأن أحذو حذو والديّ ؛ ولكنني اتساءل احياناً إذا لم أكن قد ارتكبت خطأً .

يستطيع ابني أن يتفهم آرائي عن الحياة وعن مجتمعنا ، ولكن الأمر ليس كذلك مع ابنتي . أتناقش معها أحياناً عن طريقتها في اختيار ثيابها

على سبيل المثال ، إذ يبدو انها لا تحترم بعض القيم السائدة في مجتمعها الأمر الذي يسبب لي القلق ؛ إذ أنه يتوجب عليها أن تحترم بعض القيم على الاقل ، فهي فلسطينية ، ولمجتمعها خصوصيته التي تميزها عن « بريجيت » أو « آني » أو « راشيل » .

الامر الآخر الذي سبب لي القلق بعد وفاة زوجي هو التغير الذي حدث لي من امرأة متزوجة الى أرملة ، فقد خشيت ان يفرض عليّ من قبل أسرتي ومجتمعي قيوداً تحدّ من حركتي كإمرأة تعيش بمفردها، وأجبر بالتالي على تجميد كافة نشاطاتي . ولكن لا أخفيكِ دهشتي العارمة عندما وجدت من عائلتي ومن المجتمع موقفاً مؤيداً أكثر منه ناقداً ، فالمجتمع الفلسطيني يمر بفترة تغيير : لدينا الجانب المحافظ والمعاصر معاً ، ويمكننا أن نجد هذا الانقسام الثنائي داخل العائلة الواحدة . هل تعرفين أنني لو بدات أعيش حياتي الشخصية على الطريقة الغربية ، كنت عندئذٍ سأدان دون أدنى شك) .

وفي اليوم التالي وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً وصلت (سهام) الى مكتبها في مؤسسة دار الطفل التي تقع في احد الشوارع الرئيسة في القسم الحديث من مدينة عكا .

قالت (سهام) موضحة (يستهلك عملي في دار الطفل جُلّ وقتي ، وقد تأسس عام ١٩٨٣ من قبل جمعية نساء عكا العربيات ليؤدي مهامه كمركزٍ يعمل على تطوير التعليم في رياض الأطفال في منطقة عام ١٩٤٨ . أما الجمعية نفسها فقد تأسست حوالي عام ١٩٧٥ بهدف مساعدة النساء على التطوير ذهنياً وفكرياً وعاطفياً .

كان البناء السابق الذي كنّا نشغله أصغر مساحة ، وعندما قمنا بشراء هذا المبنى مضت عدة أشهر قبل أن نستقر فيه ، فقد وضع مجلس البلدية كمّاً كبيراً من العقبات في طريقنا ، كان أولها إقامة دعوى ضدنا في المحكمة بسبب قيامنا ببعض التعديلات داخل المبنى ، مع أنه

لا يحق لهم ذلك مطلقاً ، وخسروا بالطبع القضية لأننا لم نخرق القانون. ثم من أجل تجديد الشكل الخارجي للبناء احتجنا الى ترخيص تصميمي، لذا قدمنا المخططات اللازمة ولكنها بقيت قيد الحفظ لعدة أشهر ، ولم نتمكن من الشروع بأعمال التجديد ، فعدنا للمحكمة ثانية .

كان مجلس البلدية ، في اي بلد آخر سيفخر بوجود مثل هذه المؤسسة ، وكان سيقدم لنا المساعدة ، بدلاً من عرقلة جهودنا ، ولكن الوضع ليس كذلك في هذا البلد. بل وجهوا إلينا أيضاً اتهاماً بالحصول على اموال من منظمة التحرير الفلسطينية ، وهذا ليس صحيحاً على الإطلاق. ثم زعموا انه ليس من المناسب إقامة مؤسسة تربوية في الشارع الرئيسي الى جانب المصارف والمتاجر . فطرحت عليهم السؤال التالي : (هل يقع اعتراضكم على وجود مؤسسة تربوية ، أم بشكل اكثر دقة على مؤسسة تربوية عربية ؟) .

إذ أنهم لم يعترضوا على وجود دار للمسنين اليهود بجانبنا ، بل في الواقع ساعد مجلس البلدية على إنشائه ؛ وقالوا إنه من الأفضل لنا تحويل المبنى الى مطعم ، فأجبتهم : (نعم بالطبع ، لقد اعتدتم طوال سنوات ان نعمل من أجلكم ، نخدمكم ونطعمكم . ولكن لا يسعكم قبول فكرة اننا نعمل شيئاً لتغذية عقولنا بهدف التغيير) على اية حال ، كسبنا القضية في النهاية .

حاولت في البداية أن أطبق بعض الأفكار الغربية التي اكتسبتها في الخارج ، فألقينا المحاضرات وعقدنا المناقشات ، ولكن الفكرة لم تنجح لانه لا يمكنك فرض افكار أجنبية على الناس او إجبارهم على قبول قيم لا تتماشى مع أسلوب حياتهم . فقررنا بدلاً من ذلك أن نؤسس رياض اطفال لمساعدة الأمهات العاملات ، فلا يجدن أنفسهن مضطرات لترك اطفالهن في عناية اشخاص مختلفين كل يوم .

وأدركنا أيضاً أن تطوير هويتنا الفلسطينية بطريقة إيجابية يحتاج الى تركيز الاهتمام على الناشئة لأنهم يشكلون ، رغم كل شيء ، حجر الزاوية في مجتمعنا ، ونحتاج لتحقيق ذلك الى مدرسين مؤهلين لرياض الأطفال ، وهذا ما نفتقده في مجتمعنا ؛ لذا بدأنا نفكر بإنشاء معهد لتدريب معلمين لرياض الأطفال .

في البداية كانت المهمة في غاية الصعوبة ، لأنها تحتاج الى جهد وكفاح كبيرين ، الى جانب مبلغ كبير من المال . ولكن لحسن الحظ التقينا بأشخاص ينتمون الى منظمة مستقلة غير حكومية كانوا في زيارة للبلاد . وأخبرونا أنهم يريدون تمويل مشاريع غير حكومية تساعد الفلسطينيين في منطقة ٤٨ .

قمنا بكتابة عرضنا ، ولكننا فرضنا شرطين على المنظمة ، الأول : أن تكفل التمويل لمدة خمس سنوات . والثاني : هو أننا حالما نبدأ العمل يجب أن يتاح لنا الوقت الكافي للتجربة والخطأ ، لأنه كان علينا الأخذ بعين الاعتبار عدداً كبيراً ومختلفاً من العوامل منها : الأهالي ، المجتمع الأكبر ، مجلس البلدية والسلطات . فليس من المعقول أن نقدم وصفاً تفصيلياً لكافة خططنا .

وافقت المنظمة على شرطينا ، وقدمت لنا الأموال اللازمة لنبدأ مشروعنا . قمنا في البداية بدراسة شاملة لمعرفة مستويات وكفاءات المدرسين لمعرفة مدى استعدادهم لتقبل التدريب المناسب ، ثم انشأنا ورشات عمل ، لأن المدرسين اشتكوا من عدم توفر المال الكافي لديهم لتأهيل صفوفهم في رياض الأطفال بطريقة جيدة ؛ فهم بحاجة الى كتب والعاب وأجهزة وما الى ذلك .

حققنا نجاحاً جيداً منذ العام الاول ، وعندما قامت وزارة التربية بدراسة برامجنا ، قالت بأنها يمكن أن تستفيد منها . لقد نجحت مؤسستنا لأنها تشبع الحاجات الحقيقية للمجتمع الفلسطينين ، ولأننا

مصممون على تنفيذ متطلبات قومنا . يعتقد اليوم بعض الفلسطينيين في منطقة ٤٨ أنه بإمكانهم الحصول على الدعم المادي من المؤسسات في الخارج ، فيكتبون مطاليبهم بغيـة لحصول على المال فقط ، وهم ما يزالون في الواقع يبحثون عن الأنكار . وعندما يحصلون على المال لا يعرفون كيفية استخدامه لأنهم لم يقوموا ببحث دقيق لحاجات المجتمع .

كان من أحد أهدافنا الرئيسة تطوير الهوية الشخصية والقومية للمدرسين ، إذ يأتي عدد كبير من الفتيات من مناطق ريفية بعد أن ينهين المرحلة الثانوية ، ويجدن أنفسهن في ورطة بسبب مستقبلهن الغامض ، فلا يعرفن ماذا يفعلن بعد ذلك ، وأين وكيف يضعن أنفسهن ، فيقعن فريسة شعور قاس بالنقص والضياع ، وينكمشن على أنفسهن . لذا يقوم مستشارونا بإلقاء المحاضرات عليهن وتشجيعهن على الحديث عن أنفسهن : عن طفولتهن ومشاكلهن وطموحاتهن .

تعمل تلك الدورات على تشجيع المدرسات على معرفة أنفسهن ، إذ يتوجب عليهن معرفة نقاط القوة والضعف لديهن وتعلم كيفية احترام أنفسهن ومهنتهن ، كي يتمكن من احترام التلاميذ والتعامل معهم بطريقة إيجابية . وفي نهاية الدورة يصبح لدينا نوع مختلف جداً من المعلمات في كل شيء : في السلوك وطريقة الحديث ، وكذلك المظهر الخارجي وطريقة المشي . نحن نسعى للحصول على مجتمع أفضل ، ولكي ننجح في ذلك علينا التأكد من أن الأطفال يتلقون تعليماً جيداً وعناية فائقة ، وهذا لا يتم الا من خلال معلمات على درجة عالية من التأهيل والتدريب .

ونعلم أطفالنا أيضاً معنى (يوم الأرض) ، ونقدم لهم بعض الالعاب عن الأرض وعن أشجار الزيتون وما تعنيه بالنسبة للفلاحين الفلسطنيين . ونعلمهم كيف تحتفل العائلات الفلسطينية بالأعياد المختلفة : كشهر رمضان والعيد وعيد الميلاد وعيد الفصح ، ولكن ليس من وجهة نظر دينية . بل لنريهم فقط أن هذه الأعياد تشكل جزءاً من حضارتنا

وتاريخنا ، اللذين يختلفان عن الأعياد والحضارة اليهودية ، يجب أن يتعلموا أننا ، كشعب فلسطيني ، لدينا أيضاً حضارة لاتقل أهمية عن الحضارة اليهودية ، ويتحتم التعرف عليها واحترامها .

لدينا ستة أعضاء في هيئة الوظفين ، بالإضافة الى عشرة مدرسين/مستشارين ليسوا من الهيئة الإدارية ، ولكنهم يحضرون بشكل خاص لاعطاء دورات تدريبية للمدرسين في رياض الأطفال) .

كانت تجري في المعهد إحدى الدورات التدريبية، حيث تتلقى ٢٧ تلميذة معلومات عن كيفية التعامل مع الاطفال الذين تتراوح أعمارهم من يوم واحد الى ثلاث سنوات.من النقاط التي أكدت عليها المعلمةالترحيب الحار بالاطفال ، احترام شخصية كل طفل ، زيارة منازل الاطفال للتعرف على بيئة كل طفل ، تنبيه الأهالي الى أهمية النظافة . ثم غادرت المعلمة غرفة الصف برهة وعادت وفي يدها دمية بحجم طفل في الشهر الثاني من عمره ، وزجاجة رضاعة . وكانت الفكرة شرح الطريقة المناسبة لإطعام الطفل بواسطة الزجاجة . في البداية طلبت المعلمة من إحدى التلميذات العازبات القيام بتنفيذ الفكرة ، فضحكت بعض التلميذات لرؤية زميلتهن وهي تتعارك مع الدمية بطريقة غير متقنة . أما التلميذة الثانية فكانت سيدة متزوجة ولديها طفلين ، فحملت الدمية بطريقة صحيحة ، ولم تكتفِ بذلك بل تحدثت اليها أثناء عملية التغذية ،وأشارت الى ضرورة وجود تواصل جسدي ولفظي مع الطفل مما يساعد على تهدئته وطمأنته على جوده كفرد .

كان موضوع الدرس الثاني يدور حول القيم والهوية ، استهلت المعلمة درسها باخبار التلميذات بأن بعض القيم في المجتمعات العربية تتجه لأن تكون قمعية .

وتابعت موضحة : (فعلى سبيل المثال . من العار الحديث عن جسد الإنسان . أو عن بعض العواطف المعينة ، وهذا بالتالي يخلق توتراً لدى الشخص ينتقل بعد ذلك الى طفل) .

ثم أصطحبت التلميذات الى الرواق حيث أدت أمامهن بعض التمارين الرياضية التي تساعد أجسادهن ووجوههن على الاسترخاء . شعرت بعض الفتيات بالخجل وبالكاد حركن أجسادهن ، إلا أن المعلمة لم تيأس منهن حتى بدأن يشعرن بالاسترخاء في النهاية . استمرت التمارين الرياضية مدة نصف ساعة ، عدن بعدها الى غرفة الصف ، وتحدثت المعلمة بعد ذلك عن أهمية جعل الاطفال يدركون هويتهم الفلسطينية. وقالت : (لا يمكن للطفل الصغير جداً أن يعي المفاهيم المجردة عن الهوية لذا يجب توضيحها له عن طريق الاحتفالات والأغاني والأزياء الشعبية والصور والمشاهد الطبيعية) . قالت إحدى التلميذات : (ولكن اذا تحدثنا علناً عن هويتنا الفلسطينية سنتعرض للمشاكل) .

أجابت المعلمة : (لاداعي لان تتحدثي أمام الأطفال بشكل مباشر عن السلطات او عن القمع السياسي والأعمال الظالمة ، بل ستفعلين ذلك بشكل غير مباشر عن طريق الأغاني والصور وغيرها . فإذا لم يتعلم الأطفال شيئاً عن هويتهم سوف يضيعون) .

واستمرت المعلمة في إلقاء الدرس .

في وقت لاحق من اليوم نفسه ، وبعد لقاء مع بعض المعلمات ، قدمت لنا سهام إحداهن ، وهي معلمة يهودية : (هذه هي (هاقا) وهي تقوم بتدريب المعلمات طريقة صنع الألعاب والنماذج والصور والدمى من أجل الأطفال) .

أشارت (هاقا) الى بعض الرسوم المعلقة على الجدران وقالت : (قام بصنع هذه الرسوم سيدة يهودية أحضرت المواد المستعملة من مصر ، وقامت ببعض التعديلات كاستبدال الأزياء المصرية بأخرى فلسطينية) .

تصور تلك الرسوم عائلة في الزي الفلسطيني تحتفل بشهر رمضان: تسوق الطعام ، الصلاة ، وتناول طعام الإفطار ، الخ . . .

تابعت (هاقا) شرحها : (لاتعتبر تلك الرسوم بالنسبة للاطفال واقعية الى حد كبير ، لذا سنلجأ الآن الى أخذ صور لأشخاص حقيقيين يرتدون الازياء الفلسطينية . سنصور عائلات تحتفل بشهر رمضان ، وعيد الميلاد ، والعيد ، وعيد الفصح . معظم كتب الأطفال الموجودة في البلد كتبت لتناسب الأطفال اليهود ، وعندما نترجم تلك الكتب الى اللغة العربية ، نغير بعض الأشياء لتصبح القصص مناسبة للاطفال الفلسطينيين ، وتحاول (سهام) الحصول على كتب للاطفال من العالم العربي) .

بعد مغادرة (هاقا) قالت سهام : (للأسف ، لايزال يفتقر الفلسطينيون هنا الى بعض المهارات التي يمتلكها أشخاص مثل (هاقا) ، كان لدينا معلمة فلسطينية قبل (هاقا) الا أنها لم تكن مؤهلة على الاطلاق ، ولكننا سنتقدم في هذا المجال يوماً ما) .

يقع كل من مركز العناية النهاري ودار الحضانة ، المحدثان من قبل جمعية نساء عكا العربيات ، على مقربة من دار الطفل ، يضم المركز ٩٦ طفلا تتراوح أعمارهم مابين ستة أسابيع وأربع سنوات ونصف ، منهم من يبكي ، ومنهم من يضحك ، ومنهم من يغني أغنية تدعى (دول العالم) .

قالت المديرة ، وهي عضو في الجمعية أيضا ، موضحة : (يفضل معظم أهالي عكا ارسال أطفالهم الى دور حضانة عربية . ونعلمهم هنا أهمية العائلة الموسعة ، ونتحدث إليهم عن الأرض وعن أشجار الزيتون ، وتعلمهم كل شيء عن الاحتفالات المختلفة ، ونجعلهم يرتدون ملابس فلسطينية عندما نحتفل بالاعياد . هناك مايقارب ٢٥ طفلا عربيا في دور الحضانة اليهودية ، اذ مايزال بعض الاهالي يعتقدون أن أطفالهم يتلقون معاملة أفضل في المدارس اليهودية ، ولكن في الواقع تكون النتيجة عدم قدرتهم على تكلم اللغة العربية أو حتى العبرية بشكل جيد — ويواجهون صعوبات في حديثهم ووعيهم ، والأهم من ذلك في هويتهم ، إنه أمر محزن جدا .

بعد يوم شاق بين دار الطفل والجامعة ، عادت (سهام) أخيراً الى منزلها لتمضي بضع ساعات مع ابنتها التي كانت ستغادر الى الولايات المتحدة في الصباح الباكر .

قرع جرس الباب ، وكان القادم امرأة يهودية مجهولة ، تحدثت إليها (سهام) باللغة العبرية ، وعندما عادت قالت : (إنه أمر غريب حقا ، لابد وأن بعض اليهود بأمس الحاجة للعمل . لقد طلبت تلك الإمرأة أن تعمل عندي كخادمة . لم يحدث ذلك من قبل على الإطلاق).

بعد مضي عام ، ازدادت أعباء (سهام) أكثر من أي وقت مضى .

قالت (سهام) غاضبة وهي تحيي والدتها وشقيقتها : (إننا نكافح ونكافح وتريد السلطات أن تحدث قوانين جديدة لاعاقة تقدمنا .

يريد اليهود استصدار قانون عن طريق الكنيست يقضي بإغلاق المراكز والمعاهد الثقافية الفلسطينية التي يعتقدون أنها ربما تحصل على الدعم المادي من منظمة التحرير الفلسطينية . حتى إذا قامت منظمة مستقلة غير حكومية بتمويل مركز أو معهد ما ، سيكون للسلطات الحق بإغلاقه زاعمة بأن المال الذي أرسلته تلك المنظمة تم الحصول عليه أصلاً من منظمة التحرير الفلسطينية . وهكذا إذا لم يعجب أي شرطي في الشارع بشكلي ، سيكون قادراً على دخول دار الطفل وإغلاقه مدعياً بأنه يحصل على المال من منظمة التحرير الفلسطينية ؛ وسيملك السلطة على فعل ذلك دون تقديم دليل أو برهان من أي نوع) . وتنهدت بضجر وهي تقول : (لن نوافق على هذا ، وسنشن حملة ضد هذا القانون الأرعن) .

قالت (ليس) : (يرفض الإسرائيليون الاعتراف بمطاليبنا ، ونتلقى معاملة غير عادلة على جميع المستويات . فعلى سبيل المثال ، تحاول جمعية النساء إنشاء دار للمسنين تلبي حاجات جميع العرب

هنا ، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو انتمائهم الديني . في الماضي لم يكن مجتمعنا العربي بحاجة ماسة لإنشاء دار كهذه لأننا كنا نملك العائلة الموسعة . ولكن المجتمع العربي يتغير الآن ، إذ يخرج الشبان من كلا الجنسين العمل فلا يملكون الوقت الكافي للاعتناء بالمسنين ؛ وكذلك يعيش الأزواج اليوم في شقق صغيرة لا تسمح بإبقاء آبائهم معهم . ومن الجدير بالذكر أن الدور الثلاثة الموجودة للعرب كانت مقامة بشكل خاص للمسيحيين ، أما الدور العامة التي تملكها الحكومة فتدعي بأنها تهتم باليهود والعرب على حد سواء . ولكن في عكا ، على سبيل المثال ، هناك شخصان فقط من العرب في الدور العامة ، ولم يكن من السهل عليهما الحصول على الموافقة للقبول . فضلاً عن هذا ، هناك قائمة انتظار مدتها أربع سنوات لليهود أنفسهم ، وهم بالطبع يتمتعون بحق الأفضلية على العرب . ونحن نطالب الآن مجلس البلدية بمساعدتنا لإنشاء دار للمسنين ، ولا نجد منهم تجاوباً ، ولكننا لن نستسلم) .

قالت (سهام) بحماس : (كل خطوة يخطوها فلسطيني ، وكل نفس يستنشقه هو كفاح ، ولكننا لن نستسلم حتى يعترف الاسرائيليون بهويتنا ومطالبنا) .

وصل ابنا (سهام) : أحمد وعليا ، واستقبلا بترحاب حار من قبل الخالة والجدة . تابعت (سهام) حديثها : (يختلف اليوم النضال كثيرا عما كان عليه في زمن والدي ، وفي زماني أيضا عندما كنت في سن والدي . فقد شجعت على نمو الوعي عند ابني أحمد وابنتي عليا ، الامر الذي لم ألمسه من والدي . فنضالهما اليوم مختلف تماما : فهو نضال محب للخير ضد الظلم والتمييز من ناحية ، ومن ناحية ثانية نضال قومي يهدفون من ورائه جعل السلطات تعترف بهويتهم الفلسطينية وتحترمها . فسأل ابني مرة : (من أنت ؟) فأجاب : (أنا مواطن فلسطيني أعيش في اسرائيل قال أحمد : (صحيح أن نضالنا يختلف عن نضال الجيل السابق ، ولكنني لا اعتبر ذلك الجيل مسؤولا عن وضعنا الحالي . فأنا

لا انظر الى الماضي ، وما يهمني اكثر هو ماذا سيحدث وما يجب أن يحدث) .

اضافت عليا : (أنـا فلسطينية أعيش في اسرائيل ، ولكنني لا أستطيع القول بأنني فخورة جدا بالعيش في اسرائيل ، فهناك الكثير من الظلم هنا . يدعي اليهود بأنها دولة ديمقراطية ، ولكنها ليست كذلك على الاطلاق ، اذ يتمتع اليهود بحقوق تفوق تلك التي يتمتع بها العرب ؛ ويتلقون من السلطات معاملة مختلفة تماما . ففي المظاهرات على سبيل المثال ، يتأهب رجال الشرطة دائما لضرب العرب لاتفه الامور لذا لا نشعر بالحماية على الاطلاق . انا اعتبر نفسي واعية سياسيا ، واشارك في المظاهرات ، ولكنني لا أشعر بأنني أعرف فعلا حقيقة مـا يجري ، بل اتعلم فقط من أشخاص مختلفين . فأنا أرغب بمعرفـة الوضع من خلال تجربتي الشخصية كفلسطينية ، وأعتقد أن هـذا لن يتحقق الا عندما اذهب الى الجامعة) .

قال أحمد : (الجامعة عالم مختلف ، يشكل اليهود ٨٥٪ مـن عدد الطلاب في جامعة حيفا التي ادرس فيها الآن . وهناك يواجه المرء آراء سياسية مختلفة وحركات متنوعة ، ونقوم باجراء المناقشات فيما بيننا ، وكذلك بيننا وبين الطلاب اليهود ، وغالبا ما تنتهي بالصياح على بعضنا . ومن الجديد بالذكر أن الاساتذة لا يميزون في المعاملة بين الطلاب اليهود والعرب ، حتى أذا رغب بعضهم في ذلك ، فأعتقد انهم بدافع احترامهم لمهنتهم ، يتركون تلك الدوافع ورائهم في منازلهم).

أضافت عليا : (يوجد في مدرستي طالبات يهوديات أتعامل معهن وعلاقتنا جيدة ، الا أن جل صديقاتي من الفتيات العربيات) .

قالت سهام : (نحن جميعا نتعامل مع اليهود بطريقة أو بأخرى ، وبعيدا عن نضالنا مع السلطات ، فانني شخصيا أتعامل ايضا مـع اليهود المتطرفين ؛ ولكن على مستوى سياسي في الدرجة الاولى ، ولا

أتعامل معهم اجتماعيا بسبب الحواجز التي ماتزال قائمة بيننا . عندما يكف اليهود عن التفكير بأن جيرانهم العرب يرغبون بتدميرهم ، عندئذ سيتحسن الوضع ، هذا الخوف يضع حاجزا هائلا بيننا وبين اليهود . ولكننا مع ذلك وفي بعض النواحي نشترك بطموحات متشابهة ، ومررنا بتجارب متماثلة : التشتت ، الرغبة بالعودة الى وطننا ، وغيرها . ويضلنا العداء القائم بيننا عن جميع العوامل التي يمكن أن تقربنا من بعضنا ، بل ننظر دائما الى الجوانب السلبية التي تفرق بيننا . ولكن يثبت التاريخ امكانية تغيير هذا النوع من العلاقة ، انظري الى اليهود والالمان اليوم ، أو الى الفرنسيين والجزائريين : انهم يتعاملون بسعادة تامة . فعلى الرغم من الالم والمعاناة والثمن الباهظ الذي ندفعه ، الا انه لدي أمل كبير في المستقبل ، وارى أننا نحن الفلسطينيين هنا أكثر تفاؤلا في المستقبل من بعض الفلسطينيين الذين يعيشون في الدول العربية. فبعد حرب ١٩٦٧ تمكن شقيقي وشقيقتي ، اللذان يعيشان في مخيم اللاجئين في برج البراجنة في بيروت ـ لبنان من زيارتنا عبر الاردن . وعلى الرغم من عدم وجود فارق بيننا في ايماننا بقضيتنا دهشت من وجهة نظرهما المتشائمة ، فقد بدا عليهما الاحباط وانعدم لديهما الامل في المستقبل . وربما نحن اكثر ايجابية هنا لاننا ما نزال نعيش في وطننا ، ولسنا لاجئين . لم أستطع أن أفهم في البداية سبب الاحباط الشديد الذي يعانيان منه ، فهما ، برغم كل شيء ، يعيشان بين عرب وفي عالم عربي ، بينما أعيش أنا بين أعدائي الذين كانوا سبب كل معاناتنا . وأتت حرب ١٩٦٧ التي جعلتنا نواجه أخيرا الحقيقة التي تفيد بأن الشعب الوحيد المسؤول عن القضية الفلسطينية هم الفلسطينيون أنفسهم ، ولكننا كنا مانزال نحسد أولئك الذين يعيشون في العالم العربي . اذ اعتقدنا أنهم يتمتعون هناك بحرية اكبر ، بينما نعيش هنا منغلقين ولا أمل لنا في الخروج لمعرفة العالم العربي . ولكن عندما اخبراني كيف يعاملون هناك ، أدركت أن الطعنة التي تأتيك من اخيك تكون أكثر الما من تلك التي تأتيك من الغريب . نحن الفلسطينيون عرب ، ومع ذلك فالعرب لا يعترفون بنا ، ولا يثقون بنا ، وكذلك اليهود) .

قال أحمد : (أشعر بالشفقة على الفلسطينيين الذين يعيشون في العالم العربي ، فالقلة القليلة منهم يعيش بشكل جيد ، وهم الذين تمكنوا من كسب بعض المال ، ولكن يعيش الآخرون في ظروف مروعة ، لقد علمت ذلك من خالي وخالتي ، من الصعب علي أن أتخيل كيف استطاعوا أن يبقوا على قيد الحياة ، فطريقة حياتهم تختلف كثيرا عن طريقة حياتي. لا أعرف كيف كنت سأواجه الصعوبات لو انني اضطررت أن أعيش بالطريقة ذاتها ، ولكنهم على أية حال يقبلون بوضعهم) .

وصل (حسين) شقيق (سهام) وبرفقته (عنان) أبنة أخيهم ، وجلسا يستمعان الى (سهام) التي قالت : (في الحقيقة أعتقد بأن السنوات الخمس أو العشر القادمة ستشهد اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة الى جانب الدولة الاسرائيلية . لا أعتقد بأن تدمير الدولة اليهودية هو حلا مناسبا ، ولكنني أعتقد بأن وجود دولة فلسطينية الفلسطينيين في أنحاء العالم سيعطينا شعورا بالامان والوحدة والاعتزاز . أستطيع أن أتخيل الفلسطينيين في الخارج وهم يحملون جوازي سفر : الاول فلسطيني ، والثاني يعود للبلد العربي الذي يعيشون فيه ، وهذا ينطبق أيضا على الفلسطينيين في منطقة ٤٨ . أنا أيضا ارغب في الحصول على جنسية مزدوجة ، لان هذا وطني ولا استطيع أن أتخيل نفسي وأنا اغادر بلدي لاعيش في الضفة الغربية . لقد ولدت هنا ، ونشأت هنا وسأبقى هنا)

شارك (حسين) في الحديث بقوله : (قبل الانتفاضة ، لم يكن لدي شكوك حول هويتي ، ولكنني كنت أعيش مقيدا ، وخاصة لانني أعيش في مدينة مختلطة ، حيث يشكل اليهود أغلبية السكان ويمارسون تأثيرهم علينا : فهم يفرضون علينا قوانينهم لذا لا نستطيع أن نعيش وفق طريقتنا الخاصة كفلسطينيين عرب ، ونجبر على قبول تسوية مذلة ، ونتبنى بعضا من قيمهم وأساليب حياتهم . ولكن الانتفاضة أحيت الامل في قلوب الفلسطينيين ، وسنحصل أخيرا على حقوقنا وعلى

دولة تخصنا ، وسيتم الاعتراف أخيرا بهويتنا . انا من جهتي لن اغادر عكا ، ولكن اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة سيوفر لـي شعورا بالامان وسيعزز هويتي) .

قالت عليا : (أعتقد أن الانتفاضة شيء رائع ، ولكن إذا أقيمت دولة فلسطينية فلن أذهب لأعيش فيها لأن وطني هنا ، ولن اتركه لمجرد إرضاء أشخاص يفضلون أن اقـول إنني أعيش في فلسطين بـدلاً من إسرائيل . فضلاً عن أن الحياة في الضفة الغربية ستكون صعبة بسبب الفارق الكبير بيننا في طريقة الحياة وأسلوب التفكـير ؛ فهم أكثر ميلاً للتمسك بالتقاليـد ، ولن يكـون من السـهل التكيف مـع طريقتهم في الحياة) .

أضاف أحمد : (كان لا بد للانتفاضة أن تنفجر عاجلاً أم آجلاً ، إذ أن هناك عدد كبير من الناس يرزحون تحت نير الاحتلال منذ أكثر من عشرين عاماً . وقد عانوا من السجن والترحيل وأصناف الاستغلال الاقتصادي ، ويعيشون حتى الآن دون أيـة حقوق من أي نوع ؛ من الصعب التخيل كيف يتمكنون من الاستمرار) .

شاركت (عنان) ابنة أخ (سهام) في الحديث أيضاً ، وهي في عمر (سهام) تقريباً. توفيت والدتها وهي طفلة واضطرت في سن الثالثة عشر الى مغادرة المدرسة للاعتناء بشؤون والدها وإخوتها ؛ ثم تزوجت من موظف في البلدية . لم تمارس عملاً من قبل ولا تملك الرغبة في ذلك ، كانت دائماً ملتزمة من الناحية الدينية ولكنها لم تكن تتوانى عن حضور احتفال أو عرس أو المشاركة في الرقص والغناء ، بيد انها مؤخراً اختارت أن ترتدي اللباس الإسلامي الأصولي وتمتنع عن مختلف أنواع العبث . وقالت بأن قرارها هذا يعود من ناحية الى تأثير الدروس الدينية التي كانت تحضرها في المسجد ، ومن ناحية ثانية الى حلم رأته في إحـدى الليالي ، ورفضت أن تبوح بمكنونه . قالت (عنان) :

(لا تستطيع الحركة الإسلامية أن تحلّ القضية الفلسطينية ، ولكن ما تستطيع أن تفعله هو التأثير على الناس ليتبعوا الإسلام بشكل صحيح لكي نصبح أقوى . بصراحة ، لا أستطيع أن أتصور كيف يتمكن الفلسطينيون في منطقة ٤٨ من مساعدة إخوانهم في الضفة الغربية وغزة ؛ ليكن الله بعونهم ! بإمكاننا أن نقدم لهم المساعدات المادية ولكننا لا نستطيع أن نحارب ، أما الناس في الضفة الغربية فهم في وضع افضل لمحاربة الإسرائيليين ، ولكن بالنسبة لنا هذا ليس ممكناً . فنحن نعتمد على اليهود اقتصادياً وإذا حاولنا أن نفعل شيئاً سيفقد رجالنا أعمالهم ، ولا تستطيع معظم العائلات تحمل ذلك ؛ فالبقاء الاقتصادي أكثر أهمية من أي شيء آخر . على اية حال ، أنا لا أعرف الكثير عن السياسة !)

ارتسمت على وجوه أقربائها ابتسامات سخرية .

قال احمد : (علينا أن نحارب هنا أيضاً من أجل الحصول على حقوقنا ، ولكن بطريقة مختلفة . الواقع هو أن إسرائيل موجودة ، وتبدو فكرة التخلص منها واستبدالها بدولة فلسطينية عظيمة جداً ، ولكنها ليست فكرة عملية أو معقولة . فمن ناحية أولى ، المشكلة بسيطة : لقد جُردنا نحن الفلسطينيين من حقوقنا ويجب أن نستعيدها . ومن ناحية ثانية ، ما يزال حل المشكلة معقداً وسيستغرق وقتاً من الزمن . حتى الآن الحلّ الأمثل هو إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، ولكن ليس هناك ما يضمن عدم وجود عنف بينهم وبين اليهود . أنا أؤيد تماماً إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، ولكن فيما يتعلق بي ، فأنا مواطن فلسطيني من عكا ، ولا تعني الضفة الغربية وغزة شيئاً بالنسبة لي بالمقارنة مع عكا ، ولن أغادر مدينتي لأعيش في دولة فلسطينية جديدة) .

علقت (سهام) قائلة : (أتوقع فعلاً أن يتحقق السلام يوماً ما ، وخاصة أن حركة السلام في إسرائيل يشتد عودها ، فقد بدأ الناس يدركون أن الوصول الى السلام هو في النهاية لمصلحتهم) .

* * *

الفصـــل الســـادس

المدرس : عدنان في يرقـــة

(إن هدفهم الوحيد هو إبعادنا عن بقية إخواننا الفلسطينيين ... وبدلاً من توجيه غضبهم وكراهيتهم ضد السلطات ، يريدون منهم ان يوجهونهـا ضدنا نحـن) .

عـدنـان

تقع قرية (يرقة) الدرزية في منطقة الجليل ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ثمانية آلاف نسمة ، ويوجد فيها ثلاثون مجموعة من العلائلات يتراوح عدد أفرادها من ٤٠٠ الى ٣٠ فرداً . بنيت تلك القرية فوق هضبة ، ومناخها ليس في رطوبة مناخ عكا في الصيف ، التي تبعد ٢٥ دقيقة في السيارة ، أما في الشتاء فيسيطر عليها برد قارس .

يوجـد في القرية مدرسة متوسـطة وثانوية واحـدة ومدرستان ابتدائيتان ، بالإضافة الى عدد من المصانع الصغيرة : لأعمال النسيج والمعادن والفخار ، وهي ليست مصانع حكومية ولكن تم إنشاؤها من قبل رجال أعمال أثرياء من أبناء القرية . وهناك طريق رئيسي واحـد يؤدي الى ساحة تضم معظم المتاجر ، بالإضافـة الى المجلس المحلي . وينعقد مرة كل أسبوع سوقٌ في الساحة حيث يبتاع الرجال والنساء معظم حاجياتهم من ملابس وأدوات منزلية وطعام ، ويحضر معظم مالكي أكشاك البيع من قرى ومدن مختلفة في منطقة ٤٨ ، وكذلك من الضفة الغربية وغزة ، ويمتد بناءٌ كبير ، وهو المركز الديني ، فوق قمة الهضبة في القريـة .

كانت قرية (يرقة) تملك ٥٤٠٠٠ دونم من الأراضي ، تمتد داخل حدود القرية وخارجها ، ومنذ عام ١٩٤٨ صادرت السلطات ٤٤٠٠٠ دونم من الأراضي ، وتم بناء ست مستوطنات يهودية فوق قسم منها . وقبل إنشاء دولة إسرائيل ، كان ٩٠ ٪ من أهالي القرية يعملون في الزراعة ، أما اليوم فقد انخفض العدد الى ١٠ ٪ فقط ، في حين أصبح الآخرون عمالاً ، ومستخدمين في المصانع ، ورجال أعمال ، وتجاراً ، ومعلمين ومهندسين وأصحاب متاجر ؛ وما يزال البعض عاطلين عن العمل .

من الناحية الشكلية ، تشبه يرقة اية قرية عربية اخرى بطرقاتها البالية ومنازلها القديمة ذات الطراز العربي ، الى جانب الأبنية المعاصرة ؛ إلا انها تتميز بصفتين رئيستين ، الأولى : جمال السكان ؛ والثانية : وجود الجنود . ففي كل مكان من البلاد يمكنك أن ترى الجنود ، يسيرون في الطرقات ، ينتظرون الحافلات ، يتطفلون على السيارات للركوب مجاناً ، أو يقودون المركبات العسكرية . ومهما كانت وسيلة النقل التي يستخدمونها ، إلا أن الصفة المشتركة بينهم هي جنسيتهم اليهودية ؛ أما الشيء البارز حول الجنود في يرقة هو انهم عرب .

يبلغ (عدنان) الأربعين من عمره ، وهو متزوج ولديه أربعة أطفال تتراوح أعمارهم بين الحادية عشر والرابعة ، يعيش مع عائلته في منزل حديث يضم خمس غرف ومطبخ وحمام . يعمل (عدنان) مدرساً في إحدى المدرستين الابتدائيتين الموجودتين في القرية . بالإضافة الى منصبه كزعيم ديني ، وعضو في لجنة المبادرة الدرزية .

كان (عدنان) يجلس في غرفة الجلوس وهو يراقب زوجته (صالحية) تصب القهوة ، والى جواره والدته التي تبلغ الخامسة والستين من عمرها ، وتعيش بجوارهم في منزل قديم على الطراز العربي ، قال : (ذهبت الى المدرسة الثانوية في قرية كفر ياصيف المجاورة لنا ، وعندما تخرجت التحقت بمعهد المعلمين ، وفي عام ١٩٧٥ أصبحت زعيماً دينياً) .

لزم الصمت برهة ثم اعلن بحماس : (لنتجنب الخطأ ، أنا عربي فلسطيني من الطائفة الدرزية ، وأعتز بهويتي الفلسطينية وبقوميتي . كان والدي رجلاً أمياً وفلاحاً ، كوالده من قبله ، وكذلك جده ، وكان شغل والدي الشاغل أرضه وعائلته ، لذا لم يستطع أن يوفر لي الثقافة السياسية . بدأ وعيّ ينمو نتيجة لما كنت أراه حولي ، أتذكر وأنا طفل كيف كان الجنود ، تحت الحكم العسكري ، يقتحمون المنازل عنوة بحثاً عن الأسلحة ، وأذكر بوضوح كيف كانوا يضربون بعض القرويين ويلقون القبض على بعضهم الآخر . كان بعض السكان يلتمسون منهم الرحمة ، ولكن دون جدوى . وكان والداي ، كباقي أفراد القرية ، يشعران بفزع شديد ، فيقفلان باب المنزل ، ويأخذاني مع إخوتي وأخواتي للاختباء في الحقول حتى تصبح العودة آمنة . كنت أشعر ، حتى وأنا طفل صغير ، بأن هذا ليس أسلوباً طبيعياً في الحياة .

كنا دائماً نحصل على إجازة في عيد الفطر ، ولكن في عام ١٩٥٧ منعت السلطات الإجازة وقالت إنه يتوجب على أفراد طائفة الدروز متابعة الدوام في المدرسة . ولكننا رفضنا ، أنا وبعض الطلاب الآخرين ، الالتزام بالقانون الجديد ، وقمنا بإقناع العديد من الأصدقاء بأن يحذو حذونا . أما سبب منع الإجازة فهو خلق نوع من الانقسامات داخل الجماعة الفلسطينية ، وعزلنا عن إخواننا العرب .

عندما قرر (بن غوريون) عام ١٩٥٦ إلحاقنا بالخدمة العسكرية ، قام (١١٠٠) شخص من الطائفة الدرزية بتوقيع عريضة يرفضون فيها هذا القانون ، ولكنها لم تجدِ نفعاً ، فقد وافق ستة عشر شخصاً من رؤساء طائفتنا ، وكان هذا هو ما تسعى اليه السلطات . واستُدعيت للخدمة العسكرية بعد أن انهيت دراستي الثانوية ، ولجأت الى كل وسيلة ممكنة للتخلص من الخدمة ولكنني فشلت . فقد منعوني من العمل واستمروا في مطاردتي حتى أُجبرت في النهاية على تأدية الخدمة العسكرية) .

اضافت (صالحية) ، وهي امرأة جميلة في السادسة والثلاثين من عمرها : (من المفترض أن يلتحق شقيقي بالخدمة العسكرية قريباً ، ولكنه يبذل أقصى ما بوسعه للتهرب منها ، وخاصة لأنه لا يرغب بأن يجد نفسه يحارب ضد إخوانه في الضفة الغربية) .

تابع (عدنان) الحديث : (على الرغم من السنوات الثلاث التي أضعتها من حياتي في الجيش ، إلا انه كان للخدمة العسكرية أيضاً دور كبير في تعزيز هويتي الفلسطينية وتأكيد انتمائي القومي . أستطيع بكل صدق أن أقول إنني لم أطلق رصاصة واحدة في أي يوم من أيام خدمتي العسكرية على أي عربي عبر الحدود ، ولم أرفع قبضة يدي أو بندقيتي ولو مرة واحدة في وجه أحد من إخواني الفلسطينيين . بعد أن انتهت فترة خدمتي العسكرية ، احتفظوا بي في الاحتياط ، ولكنني اعترضت فسجنت لمدة شهر . وبعد كثير من النقاش والتهديد والنزاع ، أخرجوني من الاحتياط) .

قالت (صالحيــة) : (لم يتم وعيّ لهويتي وقضيتي بشكل فعلي حتى عام ١٩٦٧ ، أذكر أن والديّ في ذلك الوقت أصيبا بفزع شديد وبدآ يحزمان أمتعتنا ظناً منهما اننا سنطرد من ديارنا . ثم ، وبعد الحرب ، بدأ الناس يفدون من الضفة الغربية الى منطقتنا ، وعلمنا منهم المزيد عن القضية الفلسطينية . وأنا الآن مطلعة على كافة الأمور ، وأتابع الأخبار باستمرار ، وأهتم كثيراً بتطورات الانتفاضة) .

وصل رجل ومكث في الخارج ، فانضم اليه (عدنان) ؛ وذهبت (صالحية) الى المطبخ لإحضار بعض المرطبات .

قالت حماة (صالحية) وهي عمتها في الوقت نفسه : (في عام ١٩٤٨ تملكنا الخوف أيضاً ، فكما اعتقد الناس عام ١٩٦٧ أنهم سيُرحّلون عنوة ، كذلك قمنا عام ١٩٤٨ بحزم أمتعتنا وممتلكاتنا استعداداً للرحيل . إلا أن شيوخنا رفعوا راية بيضاء ليبينوا لليهود عدم رغبتنا في محاربتهم ،

وبهذا بقينا في ديارنا . أذكر أنه عندما كان يمر بعض الراحلين من قريتنا وهم في طريقهم الى سوريا ولبنان ، كنا نخبرهم بأن لا يغادروا البلاد ، ولكنهم لم ينصتوا إلينا) .

عادت (صالحية) تحمل بعض المرطبات ، وقالت وهي تقدمها : (كانت الحياة في الماضي أبسط منها الآن وأكثر أمناً ، حتى نحن النساء كانت حياتنا أكثر سلاماً . فقد تركت المدرسة عندما أنهيت الصف السابع ، ففي أيامنا لم تكن الفتيات يكملن تعليمهن بعد الصف الثامن ؛ أما الآن فيذهبن الى الجامعة ، وهذا أمر جيد . ولكن عليهن أيضا العمل حتى بعد الزواج ، فيهملن بذلك أزواجهن وأطفالهن . أنا لم أعمل إلا في المنزل ، وفي منزل أهلي كنت أساعد في الأعمال المنزلية اليومية ، وفي الأرض ، واعتني أيضا باخوتي واخواتي ؛ فقد انجب والدي إحدى عشر طفلاً) .

قال (عدنان) معلقاً بعد أن عاد الى الغرفة :(لدي عشر شقيقات واربعة أشقاء ، وعلى الرغم من صعوبة تربية هذا العدد الكبير من الأطفال ، إلا أنني أعتقد ان واجبنا الوطني يحتم علينا إنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال لزيادة عدد السكان العرب) .

هزت والدته رأسها وقالت : (لقد عملت طوال حياتي بكد واجتهاد بالغين ، فقبل أن أتزوج كنت أقوم بالأعمال الشاقة في المنزل والأرض أيضاً . كنا خمس فتيات وفتى وحيد ، عندما بلغ شقيقي التاسعة عشر من عمره حكم عليه الإنجليز بالسجن لمدة خمس سنوات لأنه اشترك في حركة المقاومة . وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره أطلق عليه الأنجليز النار بينما كان يعمل في الحقل ، وعندما عثرنا عليه أنا واخواتي وضعناه على جمل واخذناه الى البيت ، ولم ندعه بعد ذلك يقوم بأية اعمال زراعية . كل ما كان يفعله هو اصطحاب شقيقاته الى الحقل والعودة بهن الى المنزل لحمايتهن من أي أذى قد يتعرضن له . فبما أنه الفتى الوحيد المخلد لاسم العائلة ، لم نكن نريد أن يصيبه مكروه ،

لذا قمنا بتدليله . وعندما تزوجت كان علي ايضاً أن أقوم بأعمال شاقة أكثر من ذي قبل ، لانني انجبت عددا كبيرا من الاطفال وكان يتوجب عليّ رعايتهم . تزوجت وانا في الثامنة عشر من عمري ، وكان زوجي في الخامسة والخمسين من عمره ، وهو صديق لوالدي ، بالإضافة الى كونه رجلاً ثرياً . لذا قرر والدي أنه صيد جيدٌ ، وخاصة بسبب انتشار الفقر في تلك الأيام وندرة الأعمال . كان زوجي في الواقع يكبر والدي بعامين ، إلا انه كان رجلاً طيباً ، لذا لم أمانع زواجي منه ؛ علماً أن الفتيات في تلك الأيام لم يكنّ يتجرأن على الممانعة . إذ ليس من المعقول أن ترفض الفتيات العريس الذي يختاره الاهل ، أما اليوم فالأمر مختلف تماماً ؛ حتى الأعراس اختلفت) .

قالت (صالحية) : (نعم ، في السابق لم يكن هناك موسيقا ورقص كما هو الحال اليوم ، علماً أن الشيوخ لا يسمحون بذلك ، إلا أن الشبان لا يأبهون بهم ، لقد تغير كل شيء) .

قال (عدنان) : (في الماضي كان العمل أشد قساوة منه الآن ، وكان ينتظر من الجميع المشاركة في أعمال الأرض . اذكر أنني عندما كنت في التاسعة من عمري ، كنت أحمل أكياس الزيتون على ظهر الحمار وآخذها الى المنزل ، وأقوم بذلك عدة مرات في اليوم ، بالإضافة الى عملي في معصرة الزيتون . كان الأمر مختلفاً كثيراً عما هو عليه اليوم ، مع ظهور السيارات والجرارات ومختلف أنواع الآلات) .

قالت والدته موضحة : (كان جزء من أرضنا يقع بجانب عكا ، فكنا نقطع المسافة الى هناك سيراً على الأقدام ، ونقوم بالأعمال اليومية الشاقة ، ثم نعود عند الغروب . ما زالت أملك أربعين دونماً بجانب عكا . ولكنها ليست كلها ملكي ، بل يملك أبنائي قسماً منها . أما اليوم فأذهب بالسيارة لأنها أكثر راحة ، فأوفر بذلك طاقتي للأعمال الزراعية . أزرع البطيخ الأحمر ، والطماطم ، والحبوب والبامية ، وكافة أنواع النباتات الأخرى . وأبيع جزءاً من إنتاجي في السوق هنا ، والجزء الآخر الى

جيراني . والى جانب عملي في الزراعة أقوم بطهي الطعام في الأعراس ، فأنا أعرف بمهارتي الفائقة في الطهي ؛ لذا يطلب مني باستمرار طهو الطعام في الأعراس ، وأجد متعة في ذلك) .

قال (عدنان) : (على الرغم من أن أساليب الزراعة أصبحت اليوم أكثر سهولة عن ذي قبل ، ولكن في السابق كانت الحياة مشتركة ، إذ كان الناس يساعدون بعضهم بعضاً ، ويهتم أهالي القرية بالصالح العام ، مانزال اليوم نحافظ على بعض العادات التقليدية ، كالاسلوب الذي نلجأ إليه في تسوية الخلافات بين العائلات . ففي حال وجود نزاع بين أفراد عائلتين ، يتم تشكيل وفد مفوض أو ما يسمى (بالجاهة) ليفصل بين العائلتين . وتتألف الجاهة من رجال مسنين ينتمون الى عائلات لا علاقة لها بالنزاع .

منذ بضعة أيام ، قام أحدهم بدهس ولدين بسيارته في القرية ، بغض النظر عن التزام السائق بالمثول أمام المحكمة ، إلا أن عائلة المذنب أرسلت (جاهة) الى عائلة الولدين . بالنسبة لأبناء القرية يبقى المفاوضات التقليدية والصلح الأهمية الكبرى ، بغض النظر عن قرار المحكمة . في تلك الحادثة عندما تحمل السائق وعائلته كامل المسؤولية والتزموا بتقديم كل ما نطلبه العائلتان ، صفحت عائلتا الضحيتين في الحال عن السائق ، ولم تطالباه بمال (الأتاوة) و (الديّة) ، وسمحا للسائق المشاركة فيالجنازة .

أما إذا قام أحدهم بقتل شخص ما عن سابق تصميم ، فالأمر أكثر تعقيداً . في البداية تقرر (الجاهة) مبلغ الأتاوة الذي يتوجب على عائلة المذنب أن تدفعه الى عائلة الضحية . ثم تأتي المرحلة الثانية وهيدفعمبلغ الدية . وبعد أن يتم التفاوض في هذا الموضوع يحمل المذنب راية سلام بيضاء ، ويطلب من كل فرد من أفراد الجاهة أن يربط عقدة فيها ،وترمز كل عقدة الى التسوية النهائية .

على الرغم من انني زعيم ديني إلا انني لم أشترك في أية جاهة حتى الآن ، لأنني لست من الرجال المسنين . في حين ما نزال نتقيد ببعض التقاليد القديمة ، الا أن بعضا من علاقاتنا الاجتماعية قد تغيرت في الوقت نفسه . فقد تحولت القرية الى ما يشبه الفندق ، إذ يذهب الناس الى المدن الاخرى للعمل ثم يعودون آخر النهار متعبين ومنزعجين ، ولا يريدون سوى الطعام والخلود الى النوم . وفي أيام الراحة يفضلون التجول في المدن بدلا من زيارة الأصدقاء والأقارب هنا ؛ لم يعد الناس في الواقع يهتمون ببعضهم بعضاً) .

قالت والدته مقاطعة : (كانت الحياة أفضل أثناء حكم الانجليز ، فهم على الأقل لم يسلبوا أرضنا ، حتى الأتراك لم يأخذوا أرضنا ؛ كل ما كان يهمهم هو أن يخدم رجالنا في الجيش ، علما ان بعضهم كان قادرا على تجنب ذلك . فقدتمكن زوجي من الهرب من التجنيد الالزامي لدى الاتراك بدفع عشر ليرات ذهبية) . رد ابنها قائلا : (لا يمكنك أن تقولي إن الحياة كانتأفضل تحت حكم الأتراك والانجليز ، فقد عاملونا معاملة سيئة) .

أجابت والدته : (نعم ، ولكنهم لم يسلبوا أرضنا ، فاليهود اكثر ظلماً لقد سلبونا أرضنا ، وجردوا الآخرين من منازلهم) .

قال (عدنان) موافقاً : (نعم ، هذا صحيح) .

تابعت والدته : (كان عندي ثلاثين شجرة زيتون ، أبادوها على بكرة أبيها ، ووضعوا أيضا بعض المواد الكيميائية حتى لا أتمكن من زراعة أية شجرة أخرى ؛ هل تسمي هذا عدلا ؟ على الأقل لم يفعل الانجليز والأتراك ذلك ، لقد بذلت جهدي لرعاية تلك الأشجار . ثم انظروا الى ما فعلوه حول قريتنا ، لقد قاموا ببناء مستودع للذخيرة الحربيةبجانبنا، كي يتمكنوا من تفجير قريتنا والقرى المجاورة اذا نهضنا لمقاومتهم) .

قال (عدنان) : (يقول البعض ان الطائفة الدرزية تتلقى معاملة متميزة عن غيرها ، ولكن هذا ليس صحيحاً على الاطلاق . إذ اننا نتلقى معاملة سيئةفي مختلف جوانب حياتنا اليومية كسائر اخواننا الفلسطينيين وفي الجيش نعامل أيضـا كالعرب . فهم لا يثقون بنـا ، ولا يكلفوننـا بالمسؤوليات الهامة ؛ وعندما نحصل على ترقية ، تكون ترقية اسمية فقط دون أية فائـدة تعود علينـا . وعندما ننهي الخدمة العسكريـة لا نحصل على الميزات والفوائد التي يحصل عليها اليهود . فمنذ بضعة أيام ، قام بعض الدروز الذين انهوا خدمتهم بمظاهرة أمام مركز قيادة (شامير) للمطالبة بفوائد مماثلة لتلك التي يحصل عليها اليهود .

تحاول السلطات أن تخفي العدد الحقيقي للدروز الذين يخدمون في الجيش ، إذ يتراوح عـدد أفـراد الطائفـة الدرزيـة بـين ٦٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ نسمة . وتقول السلطات إن عدد الجنود الدروز يتراوح بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ جندي ، والحقيقة أن الرقم الحقيقي أقل من ذلك بكثير . إن إحدى الوسائل أو الخدع التي تلجأ اليها السلطات هي التظاهر بأن بعض الجنود اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية هم من الدروز ، وهم بذلك لا يقومون فقط بتحريف الاحصائيات ، بل يحاولون خلق صدع بين الدروز وبقية الفلسطينيين .

تأسست لجنة المبادرة الدرزيـة عام ١٩٧٢ ، وتنتشر فروعهـا في كل قرية درزية ؛ ويتركز هدفها البارز في إنهاء الخدمة العسكريـة الالزامية للدروز ، وتمارس أيضاً بعض النشاطات الأخرى . ونعمل نحن اعضاء اللجنة على تصعيد حدة النضال ، فنتحدث كل يوم الى عدد اكبر من الشبان لنشجعهم على رفض تأدية الخدمة العسكرية ، ونلقي عليهم المزيد من المحاضرات لتنمية ادراكهم ، فنوضح لهم ، على سبيل المثال ، أن الخدمة الالزامية بالنسبة لنا ليست من أجل الدفاع عن ارضنا وانفسنا وشرفنا ، بل إننا نستغل من قبل السلطات الاسرائيلية لتنفيذ مآربها الخاصة ، وهدفها الوحيد هو إبعادنا عن بقية إخواننـا

الفلسطينيين . فبدلا من أن يوجه الفلسطينيون غضبهم وكراهيتهم ضد السلطات ، يريدون منهم أن يوجهوا تلك المشاعر ضدنا .

يزداد كل يوم عدد الشبان الرافضين تأدية الخدمة العسكرية ، ومن أكثر الطرق الشائعة لاجتناب الخدمة هو ادعاء الجنون ، وكثيراً ما يتردد رجال الشرطة الى القرية لملاحقة الفارين من الخدمة . وهناك حوالي ١٢٠ شاباً في السجن ، البعض منهم بسبب رفضه الخدمة في الضفة الغربية وغزة ، والبعض الآخر بسبب رفضه تأدية الخدمة العسكرية بكليتها .

اعتمدنا مؤخراً نشاطاً اجتماعياً جديداً في القرية ، وهو إقامة الاحتفالات لكل شاب قاوم بنجاح أداء الخدمة الالزامية .

نجحت اللجنة في شراء مبانٍ حيث نستطيع أن نمارس كافة نشاطاتنا . وتتألف اللجنة من مدير ، وأمين للسر ، وإحدى عشر عضواً، تتضمن نشاطاتنا الأخرى شن حملات ضد اغتصاب الأراضي والتدخل في شؤوننا الدينية . فقد أعلمتنا السلطات بأنها هي الجهة المسؤولة عن تحديد سن التحاق شبابنا بالمهنة الدينية . بأي حق يتدخلون في شؤوننا الدينية ؟ هذا لا يصدق !

من ناحية ثانية ، نقوم بتقديم محاضرات للنساء ، ومحاضرات عن الرياضة ، والصحة ، وخاصة عن أخطار الادمان على المخدرات الذي ازداد مؤخرا . وهناك أيضا امرأتان متورطتان في موضوع المخدرات ، الأولى : كانت تهرب البضاعة لصالح والدها والثانية لزوجها . واتخذ مؤخرا قرار يقضي بنبذ كل من يتعاطى المخدرات دينيا واجتماعيا . وهذا يعني عدم السماح له بدخول مقرنا الديني ، وحضور الاحتفالات الدينية ، أو المشاركة في أي من النشاطات الاجتماعية التي تجري في القرية ؛ ولن يسمح لأحد بزيارته أو حضور حفل زواجه أو مأتمه . وألقينا أيضا بعض المحاضرات عن الانتفاضة ، ونقوم بجمع الهبات

لاخواننا في الضفة الغربية وغزة . وقد منعتني السلطات مؤخراً من الذهاب الى هناك بسبب تأييدي الصريح للانتفاضة ، فلا أستطيع أن أطأ بقدمي الضفة الغربية وغزة لمدة عام كامل) .

قالت والدته : (أعتقد أن الانتفاضة كانت نتيجة حتمية ، ولكنها ليست وضعاً من السهل استمراره . أعتقد أنه إذا كان ما يقومون به سيؤدي الى نتائج إيجابية ، فليستمروا . أما إذا كانوا لن يحققوا هدفهم ، فليكفوا عن ذلك !) .

قالت (صالحية) : (أعتقد أن ما يفعله اليهود بسكان الضفة الغربية وغزة يتسم بالوحشية والظلم ، صحيح أن الناس يرمونهم بالحجارة ، ولكن اليهود يحتلون أراضيهم ويطلقون عليهم النار ؛ ولا تفعل الحجارة شيئاً في وجه الرصاص . يجب أن يخرج اليهود من الضفة الغربية وغزة ، عندئذٍ سينتهي العنف) .

ذهب (عدنان) لحضور اجتماع ، وانسحبت والدته لقضاء بعض الأعمال المنزلية . وبدأت أصغر أولاد (صالحية) ، وهي فتاة من الرابعة من عمرها ، بالبكاء والصراخ لتلفت إليها الانتباه ؛ فهرع الصبية الثلاثة الأكبر سناً وخرجوا من المنزل كي لا يطلب منهم الاعتناء بشقيقتهم ، وفضلوا اللعب مع أصدقائهم .

كان ذلك في الصيف التالي : عام ١٩٨٩ . كان (عدنان) قد عاد لتوه من اجتماع عقدته لجنة المبادرة الدرزية . قال : (عقد الاجتماع في قرية (جوليس) وهي قرية أخرى من القرى الدرزية ، ويعود السبب في ذلك الى أن بعضاً من شبان القرية الموجودين في إحدى السجون العسكرية بسبب رفضهم تأدية الخدمة العسكرية قد تعرضوا للتعذيب بواسطة المدى والهراوات والخراطيم على أيدي الجنود اليهود ، ونقل اثنان من المساجين الى المشفى بسبب حالتهما المتردية . وسنقوم بنشر بيان في الصحف حول هذا الموضوع ، ونخطط لتنظيم مظاهرة احتجاج

أمام مبنى السجن ؛ وسنطلب من اليهود الذين رفضوا الخدمة في الضفة الغربية وغزة أن ينضموا إلينا . وتتركز سياستنا الآن على محاولة تنسيق نشاطاتنا مع اليهود المتطرفين لنحارب سوية الظلم والعنصرية .

علماً أن موضوع المباحثات الرئيسي في الاجتماع كان مصير السجناء ، إلا أننا تناولنا أيضاً بعض المواضيع الأخرى . فقد ناقشنا ، على سبيل المثال ، موضوع مشاركتنا في لجنة رؤساء المجالس العربية المحلية ، وسنضع في اللجنة عشرة ممثلين عن الطائفة الدرزية . إلا أن وزير الشؤون العربية رفض تلك الفكرة بحجة أنه لا داعي لتمثيل الدروز لأنهم يتمتعون بحقوق مماثلة لتلك التي يتمتع بها اليهود . هذا هراء مطلق بالطبع ! والسبب في عدم رغبتهم بمشاركتنا في اللجنة هو تدعيم روح الطائفية ، فهم يريدون إبعادنا عن بقية السكان العرب .

وتحدثنا أيضا عن الطريقة التي قمنا فيها بتضليل القانون الذي يمنع لجنة المبادرة الدرزية من إصدار كتيب شهري ، فنقوم الآن بإصدار كتيب تحت اسم مختلف كل شهر .

نشرت في إحدى الكتيبات مقالة تدين الامبريالية والصهيونية الأمريكية ، وتشجع جميع الفلسطينيين في منطقة ٤٨ على دعم الانتفاضة ومساندتها . وقلت أيضاً في المقالة إنه لابد في يوم من الأيام من نشوء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وتكون عاصمتها القدس الشرقية) .

ابتسم (عدنان) وتابع حديثه : (إن السلطات غير راضية على ما أقوم به أو على ما أمثله . فمنذ بضعة أيام ، استدعيت إلى وزارة التربية للاستجواب ، أرادوا أن يعرفوا كافة النشاطات التي تقوم بها اللجنة ، ولماذا نمنح الدم إلى مواطني الضفة الغربية وغزة . ووجهوا إلي أيضاً تهمة القيام بنشاط تخريبي لأنني أصرح بأن الدروز فلسطينيون ، ويجب أن لا يُجبروا على الخدمة الإلزامية . فأخبرتهم أنه بما أنهم

يدعون بأن هذه الدولة هي دولة ديمقراطية ، فكل ما أفعله هو ممارسة حقي في حرية التعبير . فما كان من السلطات إلا أن منعتني ثانية من الذهاب الى الضفة الغربية وغزة ، وحاولوا أيضاً إيقافي عن ممارسة عملي . إلا أنني استئمت رسالة من مدير المدرسة ، وعريضة موقعةمن عدد كبير من أهالي القرية ، يقولون فيها انني كنت معلماً فاضلاً وذا ضمير حي ، ولا يمكن للمدرسة أو للتلاميذ الاستغناء عن وجودي . ومنذ العام الماضي ، صعدت اللجنة من نشاطاتها ، فنقوم على سبيل المثال ، بزيارات إلى المجندين الشباب اللذين لا يتجرؤون على رفض الخدمة العسكرية ، ونطلب منهم أن لا يقدموا على محاربة أو ضرب فلسطيني واحد في الضفة الغربية وغزة .

ومن ناحية ثانية ، نلجأ الى أساليب متنوعة لمقاومة مشكلةالمخدرات المتفاقمة ، فإلى جانب إلقاء محاضرات حول هذا الموضوع ، نلجأ إلى تشجيع شبان القرية على المشاركة في النشاطات الرياضية بدلاً من التسكع في الشوارع . ومنذ بضعة أيام جرت مباراة في كرة القدم بين فريقين في القرية ، وكان شعارها :

نعم للرياضة ، لا للمخدرات .

ونقوم أيضاً بإلقاء محاضرات عديدة عن الانتفاضة ، وقد زارتنا مؤخرا لجنة نسائية من الضفة الغربية بهدف تعزيز التفاهم المشترك بيننا وبين أبناء الضفة الغربية . وستقوم لجنة نسائية من مدينتنا بزيارة مماثلة في القريب العاجل .

في هذه اللحظة بالذات يقوم بعض الأطفال بالتدريب على مسرحية في مقرنا الرئيسي .

يقع المقر الرئيسي للجنة المبادرة الدرزية على مقربة من منزل (عدنان) ويتألف من ثلاث غرف واسعة تفتقر الى الأثاث ، على عكس

الجدران التي تغطيها ملصقات عديدة عن الانتفاضة ، وعن النضال ضد العنصرية ، والكفاح من أجل المساواة ، ورفض الخدمة العسكرية الإلزامية . نقرأ مثلاً على إحدى الملصقات المطاليب التالية :

- يجب أن تنتهي الخدمة العسكرية الإلزامية المفروضة على شعبنا.
- تأمين التعليم والعمل لشعبنا .
- انسحاب الجيش من المناطق المحتلة .
- السلام والمساواة للجميع .

التقينا بالمعلمتين المسؤولتين عن الأطفال ، وهما من أعضاء اللجنة : الأولى عاملة في مصنع النسيج ، والثانية معلمة .

قالت المعلمة (امتياز) التي كانت تشرف على مجموعة صاخبة من الأطفال الذين يتدربون على المسرحية بمتعة واضحة : (لدينا في الوقت الحاضر عشرين طفلاً تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثانيةعشرة عاماً ونلتقي مرة في الأسبوع أثناء العام الدراسي ، وأكثر من مرة في أيام العطل . أما المسرحية التي نتدرب عليها الآن سنقدمها خلال أسبوع ، وليس أمام أهالي التلاميذ فقط ، بل أمام جميع أهالي القرية .

تدور أحداث المسرحية حول ثعلب يغزو أرض الأرانب ويحاول أن يسلبهم إياها ، فيجتمع الأرانب سوية ويحاولون إيجاد وسيلة للتخلص منه . يقول أحدهم أنهم لن يتمكنوامن التغلب على الثعلب لانه أكثر قوةمنهم لذا لاسبيل أمامهم سوى الهرب ، ولكن يرفض الأرانب هذا الحل . ثم يقترح آخر بأن يقدموا للثعلب اثنين منهم استرضاءً له ، ولكن يقول الآخرون إنها ليست فكرة جيدة . ثم يقرر الجميع بأن الحل الأمثل هو نصب كمين للايقاع به ، وبعد أن ينجحوا في ذلك ، يقول بعضهم : (لنقتله !) ، ويقول آخرون : (لنعذبه !) . ولكن قرارهم النهائي هو أن يتركوه يرحل ، بعد أن يهددوه بالقتل إن عاد ثانية إلى أرضهم .

من خلال قصص مماثلة نعلم الأطفال الوعي حول القضية الفلسطينية ، ونعلمهم أيضاً القصائد الشعرية التي تتكلم عن ارضنا وعن أشجار الزيتون ؛ ونعلمهم كذلك الاغاني الوطنية ، ونكلمهم عن الانتفاضة) .

قدم إلى إلى زيارة (عدنان) ثلاثة من الطلاب الذين كانوا يدرسون في أوربا الشرقية ، ويمضون الآن عطلة الصيف مع عائلاتهم في (برقة) . كانوا يناقشون قانوناً أصبح مؤخراً ساري المفعول .

قال (محمود) الذي يدرس الطب في رومانيا : (يحق الآن للطلاب الذين حصلوا على شهادة الطب من دول غير الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وأفريقيا الجنوبية ، التقدم الى امتحان في إسرائيل إذا رغبوا في ممارسة الطب هنا . والجانب المجحف في هذ الموضوع هو أنه لا يحق للطلاب العرب التقدم الى مثل هذا الامتحان ، على عكس الطلاب اليهود . إنهم يحاولون عرقلة تقدمنا في كل خطوة نخطوها) . يعتبر أولئك الطلاب الثلاثة أعضاء في لجنة المبادرة الدرزية ، وقد رفضوا جميعا تأدية الخدمة العسكرية بحجة معاناتهم من امراض عقلية .

قال (محمود) : (من الأسباب التي جعلتني أرفض كليا فكرة الخدمة العسكرية هو أن الجيش الاسرائيلي ليس في حقيقته كما يدعي : جيش دفاع ؛ بل كان جيش احتلال منذ عام ١٩٤٨ . الى جانب ذلك ، نحن فلسطينيون ، وما تحاول السلطات أن تفعله هو إبعادنا عن بقية الفلسطينيين) .

قال (أحمد) الذي يدرس الصحافة في (براغ) : (يتوجب علينا أن نؤدي الخدمة العسكرية بعد أن ننهي دراستنا الثانوية ، ويرفض بعض الشبان تأديتها رفضاً باتاً ، فيرسلون الى السجن . ويلتحق آخرون بالسلك الديني لأن الزعماء الدينيين لا يخضعون للتجنيد الالزامي . ثم هناك البقية الذين يرفضون تأدية الخدمة بحجة أمراض عقلية كما فعلنا

نحن . ولم نتمكن من التخلص منها نهائياً قبل مضي ثلاث سنوات ضاعت من حياتنا سدى ، خضعنا خلالها لفحوص على أيدي أطباء ولجان الجيش . حتى انني اضطررت لقضاء اسبوع كامل في مصح عقلي ؛ ولم يسمح لنا ، في تلك السنوات الثلاث ، أن نتابع دراستنا أو أعمالنا) .

قال (محمود) : (يتلقى الدروز الذين يرفضون تأدية الخدمة العسكرية معاملة أقسى من التي يتلقاها أمثالهم من اليهود . فقد ذكروا في الكنيست أن رُبع شبان اليهود لا يؤدون الخدمة العسكرية ، البعض منهم لأسباب دينية ، والبعض الآخر بسبب عدم موافقتهم على وجود الاسرائيليين في الضفة الغربية وغزة . وهناك البعض ممن يعفون من الخدمة لأنهم يعملون لاعالة عائلاتهم الفقيرة جداً . وهناك بالمقابل الكثير من الشبان الدروز المعدمين ، ولكنهم لم يعفوا من الخدمة) .

قال (قاسم) الذي يدرس الطب في روسيا : (ان الشبان الدروز الذين يخدمون في الجيش هم أشخاص جاهلون ، ولا يعلمون شيئاً عن القضية الفلسطينية . إذ لا يكفي أن نرفض تأدية الخدمة العسكرية ، بل يجب أيضاً أن نطور الوعي السياسي لشباننا كي يصلوا جميعاً الى رفض تأدية الخدمة العسكرية. عندما نعود الى وطننا في عطلة الصيف نحاول أن نشجع الجيل الأصغر على رفض الخدمة العسكرية ، ونوضح لهم أننا فلسطينيون . وأن سياسة إسرائيل تهدف الى إبعادنا عن بقية السكان العرب . ونحدثهم أيضاً عن الممارسات الجائرة وعدم المساواة التي نعاني منها كفلسطينيين) .

قال (أحمد) موضحاً : (كانت المشكلة الرئيسية منذ عام ١٩٤٨ هي الخوف : إذ يعاني عدد كبير من الناس من الفقر والجهل ، لذا لا يجرؤون على مواجهة السلطات أو مقاومتها . وتستغل السلطات الاسرائيلية ذلك ، فتقول للشبان ، على سبيل المثال ، بأنهم إذا لم يخدموا في الجيش فلن يتمكنوا من الحصول على عمل ، فضلا عن طرد آبائهم وإخوانهم من العمل أيضاً . وبالتالي تخشى العائلات الفقيرة التي

يبلغ عدد أفرادها ستة أو حتى سبعة أشخاص أن ترفض الخدمة العسكرية ؛ ويفضل شبان تلك العائلات أن يخدموا في الجيش على أن يفقدوا أعمالهم) .

اضاف (محمود) : (ويحصل الجنود في الجيش على رواتب تعتبرها العائلات الفقيرة مكاسب اضافية) .

قال (قاسم) بلهجة غاضبة : (ليست الخدمة العسكرية هي الأسلوب الوحيد الذي يلجأ اليه الاسرائيليون في محاولتهم إبعادنا عن بقية الفلسطينيين ، بل يستخدمون ايضا أساليب أخرى . ففي عام ١٩٥٧ اصدروا قانونا يقضي بأن الدروز يختلفون عن العرب ، لذا يجب تسجيلهم على أنهم دروز وليسوا عرباً . والدرزي الذي يكتب على بطاقة هويته كلمة عربي لا يحق له مزاولة أي عمل ، ولا يزال هذا القانون ساري المفعول حتى اليوم . انا اكتب دائماً كلمة عربي أثناء التسجيل ، ولكن عندما يدونون بطاقات الهوية بشكل فعلي ، يكتبون تلقائياً كلمة درزي).

وتابع يقول : (والأسلوب الآخر الذي لجأووا اليه لعزلنا كان من خلال النظام التربوي . إذ يطلب الآن من المعلمين في مدارسنا أن يدرسوا ما يسمى بالتاريخ والتراث الدرزي ، فيحاولون أن يغسلوا دماغ أحداثنا لجعلهم يعتقدون أنهم ليسوا عرباً بل دروزاً . ويقولون لهم إن العرب كانوا على الدوام قوم مهزومون ، بخلاف الدروز ؛ ولسوء الحظ ، يصدق بعض الطلاب ذلك الكلام ، وينتهي بهم الأمر الى الموافقة على تأدية الخدمة العسكرية) .

هزّ (احمد) رأسه وقال : (نعم ، ولأن عدد الشبان الذين يرفضون تأدية الخدمة العسكرية يزداد كل يوم ، لجأت السلطات الى تشديد الضغط علينا . وذلك ليس فقط لجعلنا نذعن لطلباتها ، ولكن لتبعدنا عن بقية العرب . كيف يمكنهم أن يبعدوننا عن بقية العرب ؟ نحن عرب

نتكلم لغة واحدة ، ونرتدي زياً واحداً ، ونأكل طعاماً واحداً .ولانشكل جزءاً من العرب الفلسطينيين هنا فحسب ، بل إننا أيضاً جزء من العرب في العالم العربي ككل .

عندما نعود الى وطننا بعد التخرج ، سنواجه صعوبة كبيرة في الحصول على عمل لاننا لم نؤدِ الخدمة العسكرية ، فهم يحاولون اضفاء المزيد من البؤس على حياة العرب هنا على أمل أنهم سينتهون جميعاً إلى مغادرة البلاد ، ولكننا لن نرحل ، ولن نستسلم أبداً لضغوطهم) .

قال (محمود) بتحدٍ : (أنا مستعد لأن أتضور جوعاً وأموت إذا لزم الأمر في سبيل الحصول على المساواة) . وهزوا جميعاً رؤوسهم علامة الموافقة .

قال (قاسم) معلقاً : (المستقبل لنا . ولن تستمر طويلاً السياسات السلبية والقمعية التي يمارسها الإسرائيليون وخاصة بعد التطور الأخير الذي حصل في منظمة التحرير الفلسطينية . ولا يتوانى اليهود عن الصراخ بأننا نريد أن نرمي بهم الى البحر ، ولكن هذا الكلام عارٍ عن الصحة . فنحن مستعدون للعيش معهم بسلام شريطة أن يقدموا لنا المساواة والعدالة ، ويوافقوا على فكرة انشاء دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وغزة) .

قال (عدنان) : (ربما ينتهي التجنيد الالزامي عندما يتم انشاء دولة فلسطينية مستقلة) .

قال ابن عدنان ذو الإحدى عشر ربيعاً ، والذي كان ينصت باهتمام طوال الحديث : (لن أخدم في الجيش أبداً) .

أجابه (أحمد) وعلى وجهه ابتسامة : (انت فتى شجاع) .

قال والده : (نأمل أنه عندما يأتي دورك ، تكون الخدمة العسكرية قد انتهت ، وفي غضون ذلك ، ستستمر لجنة المبادرة الدرزية بتشجيع الشبان على رفض الخدمة في الجيش .

دخلت (صالحية) وقالت ان طعام الغداء جاهز ، فقد صنعت الكبة النيئة (لحم خاروف مفروم نيء يخلط مع قمح مجروش وتضاف اليه بعض التوابل) وفق الطريقة الدرزية المشهورة .

قال (أحمد) : (انه من الاطباق التي نفتقدها حقاً في الغربة) . وتوقفوا جميعاً عن الكلام .





الفصل السابع

الكاتب المسرحي : مروان من مجد الكروم

لم يواجه والدي اية مشاكل بسبب هويته ، لانه لم ينشا وسط حضارتين كالجيل الذي انتمي اليه ، فعلينا أن نحارب وان نكون اقوياء وبحق كي لا نغرق في الحضاره الاسرائيلية .

مروان

تعيد القرى العربية الموجودة في مرتفعات الجليل الى الذاكرة القرى السورية أو اللبنانية . ولكن يتبدد هذا الوهم المضلل بأنها قرية عربية لدى سماعك كلمة باللغة العبرية ينطقها أحد السكان العرب . او عند رؤيتك لافتة على الطريق كتبت باللغة العبرية .

تحيط الجبال ، بمجد الكروم ، القرية العربية الواقعة في مرتفعات الجليل ، والتي يبلغ عدد سكانها حوالي ثمانية آلاف نسمة . كانت في السابق قرية زراعية ، ولكن السلطات صادرت معظم الاراضي . لذا يرتفع فيها معدل البطالة ويشتغل معظم العاملون كعمال في مواقع البناء ، أو في الصناعات الخدمية : كالمطاعم ، ومحطات الوقود . وغيرها ...

قال أحد القرويين : (انها اشبه بفندق كبير . يذهب الناس الى العمل في المدينة أثناء النهار ، ثم يعودون ، يأكلون وينامون) .

يعتبر أسلوب البناء عصريا بشكل رئيسي ، على الرغم من وجـود بعض المباني شبه التقليدية ، وتعكس بعض المباني حالة أصحابها الفقيرة ويعكس البعض الآخر رخاءهم الاقتصادي . ويشير الاطفال الى أحد المنازل ، الذي يملكه رجل أعمال ثري ، (بالقصر) ، وهو في الواقع فيلا كبيرة وليس قصرا ، ولكن الحجم أمر نسبي وهـو ، في نظـر الاطفال ، قصر .

يجتاز القرية شارع رئيسي واحد ، يعتبر مركز النشاط والحركة ، ويضم المجلس المحلي ، والمكتبة العامة ، بالاضافة الى المتاجر . والتسلية المفضلة لدى شبان القرية هي الوقوف في الشارع وتجاذب أطـراف الحديث فيما بينهم ، أو التحديق في الجبال بلا هدف . ولا يحـق للنساء والفتيات الاشتراك في هذه التسلية ويقتصر استعمالهن للشارع على الانتقال من طرف الى آخر ، والنظر خلسة الى الشبان . ويلعب الفتيان الصغار كرة القدم أو العاب أخرى في الشارع الرئيسي ، بينما ترمقهن الفتيات الصغيرات الواقفات جانبا بنظرات حاسدة . وما يزال بعض المسنين يحافظون على زيهم التقليدي ، ويعبرون الشـارع على ظهور الحمير ، عائدين من قطعة الارض الصغيرة التي حالف الحظ كل واحد منهم في الابقاء عليها .

يقع منزل (أبو عماد) و (أم عماد) في مدخل قرية مجد الكروم ، وهو من الطراز التقليدي،وتطل شرفته على الحديقة والشارع الرئيسي والتلال المحيطة . وقد زرعت الحديقة بالطماطم والباذنجان والباميـة والتين والعنب . ويوجد في الجانب الخلفي من المنزل سقيفة ، تقف خارجها بقرة . وتمتد بين المنزل والطريق قطعة من الارض مساحتها أربعة دونمات يملكها (أبو عماد) ، بالاضافة الى حمار للرعي .

تبلغ (أم عماد) الثالثة والسـتين من عمرها ، وتظهـر قـوة شخصيتها في وجهها القاسي الملامح ، وتنتقل نظراتها الذكية هنا وهناك دون أن تغفِلَ شيئاً . كانت قد أنجبت عشرة أولاد ، بقي منهم خمسة على قيد الحياة .

جلست في الشرفة مع ابنتها الكبرى (خديجة) تحضران الطعام ، كان النسيم اكثر انعاشا مما هو عليه في الداخل . كانت (أم عماد) تفرم الملوخية —وهي أوراق نبات خضراء اللون ، تطبخ مع اللحم أو الدجاج لتصبح طبقا يحبه الكثيرون من العرب ، ويقال أن (الملوخية) تهدى الى الملوك — وكانت ابنتها تدق الثوم ، فيخمد صوت الصدى المرتد ضجيج السيارات المارة .

(خديجة) فتاة عازبة ، وتكسو المرارة وجهها لانها لم تحقق المطلبين المتوقعين منها ، واللذين كانا سيحولانها الى امرأة كاملة ، وهما الزواج والاطفال . لم يعد الوقت في صالحها ، وهي في نظر المجتمع فتاة عانس ، وكانت وهي تدق الثوم ، تبدو وكأنها توجه كل ضربة الى القدر الذي حرمها من انثوتها . توقفت سيارة خارج المنزل ، وترجل منها (أبو عماد) وابنه (مروان) الذي يبلغ الثلاثين من عمره ، عائدين من الناصرة حيث كانا في زيارة المستشار القانوني من أجل أملاكهم .

يبلغ (أبو عماد) الثامنة والسبعين من عمره . قصير القامة ونحيل ولكنه قوي البنية ويرتدي على الدوام الزي التقليدي للفلاحين الفلسطينيين . منذ سنوات طويلة فقد النظر في عين واحدة ، ويتشتت عقله بعض الاحيان بسبب تقدمه في السن من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، ربما لان الحاضر مبهم الى حد يجعل من الاسهل على المرء التشبث بالماضي .

جلس وهو يطلق زفرة عميقة وقال : (لو أحب الناس بعضهم بعضا وكانوا سعداء يكفي عندئذ أن يعيش المرء على العدس المجفف . والكن اذا كنا تعساء ونعاني من المشاكل ولدينا الكثير من الارز واللحم ، فلا جدوى منها لاننا لن نستطيع أن نهضمها . في الماضي ، لم يكن لدينا الكثير من الطعام ، وكانت الشوارع غير مضاءة ، وكانوا يستعملون مصابيح النفط لانارتها ، وكانت منازلنا غير مجهزة بوسائل الراحة كما هي الآن ، وكانت أعمالنا شاقة : حيث نعمل في الزراعة منذ الفجر وحتى الغروب ، ولم نكن نملك جرارات أو أجهزة حديثة ، بل كنا نزرع

بأيدينا ونحرث بواسطة الثيران . وفي بعض الاحيان ، كنا نعجز انا واخوتي وتنساؤنا عن انهاء كافة الاعمال الزراعية اللازمة ، لذا كنا نلجأ الى استئجار فلاحين لا يملكون أرضاً . كان البعض منهم يقبض ثمانية قروش كأجر يومي ، ويفضل الآخرون الحصول على بعض المحاصيل الزراعية . كان العمل شاقا ، ولكننا كنا سعداء ، فأرضنا لنا ، وماشيتنا لنا) .

حدق (ابو عماد) الى السيارات المارة ، ثم انتقل ببصره الى أرضه . تابع يقول : (كانت الحياة أفضل تحت الحكم الانجليزي نفسه ، وكنا نتمتع بحرية أكبر ، كنت استطيع الذهاب والمجيء كما يحلو لي ، لم تكن معيشتي مهددة . وفي عام ١٩٤٦ أصدر الانجليز قانونا يقضي بأن يشكل كل أربعة فلاحين جمعية تعاونية لشراء جرار ، فقمت بذلك مع اخوتي الثلاثة . وبوجود الجرار انخفض عبء عملنا ، ولكن بعد مضي عامين احتل اليهود البلاد وأخذوا الجرار ، لذا عدنا ثانية نزوع بأيدينا ونحرث بالثيران والجياد .

لم تكن الجرارات الشيء الوحيد الذي اخذه اليهود ، ففي عام ١٩٥٣ وضعوا أيديهم على أراض تعود الى الفلسطينيين الذين غادروا البلاد . صادر اليهود الاراضي ، وأزالوا أسم المالك الحقيقي من مكتب التسجيل ، وسجلوها باسم الدولة ، وما يزالون يفعلون ذلك حتى اليوم . عندما قام اليهود بمصادرة الاراضي التي تعود ملكيتها الى الغائبين ، قلنا انها مشيئة الله . ولكنهم عندما يصادرون اراض يملكها بشكل قانوني أشخاص لم يغادروا البلاد ، اشخاص ما يزالون يزرعونها ويعتمدون عليها في كسب معيشتهم ، عندئذ ماذا تقولين في ذلك ؟) وصاح غاضبا : (اي قانون هذا ؟!) .

وتابع وهو ما يزال غاضباً : (أملك ثلاثين دونما زرعتها بالبطيخ الاحمر والقمح ، وهذه الارض ملكي شرعا وقانونا ، ومسجلة باسمي

منذ عامين منعتني السلطات من زراعتها ، وقالوا انهم يحتاجونها للتنمية ، أي أنهم سيقدمونها الى احدى المستوطنات . ولكني لم أبال ، وتابعت زراعتها ، انها أرضي ! منذ ثلاثة أيام ذهبت للاطمئنان على المحصول ، فوجدت أنهم ساقوا جرارا فوق البطيخ والقمح وأتلفوا كامل المحصول . ذهبت أنا وابني الى مركز الشرطة ، ولكنهم قالوا انهم لا يسعهم القيام بشيء حيال ذلك ، فذهبنا الى المستشار القانوني فقال أنني انتهكت القانون لأنني تابعت العمل في أرضي بعد أن منعوني من ذلك ، وقال إنني يجب أن أخبره بقيمة المحصول وسيحاول اقناعهم بالتعويض لي عن التلف . من الذي يقول انهم بامكانهم منعي من زراعة ارضي التي هي ملكي وحدي ؟ انهم يريدون في الواقع أن يصادروا أرضي عن طريق اتلاف محصولي وتدمير حياتي ، ويعتقدون بأنني سأستلم لهم واتركهم يأخذون ارضي ، تلك هي سياستهم) .

انضمت الى العائلة الابنة الصغرى (فاطمة) التي تبلغ الخامسة والعشرين عاما من عمرها ولم تتزوج بعد .

تابع (ابو عماد) قصته : (لقد سلبونا أرضنا ودمروا منازلنا ، ومنعونا من البناء . هذا منزلي ، وأرغب بأن أبني طابقا ثانيا لكي يسكن فيه (مروان) عندما يتزوج ، ولكن السلطات رفضت اعطائي رخصة البناء دون ان يذكروا السبب . لا أرى سببا معقولا لرفضهم اعطائي الرخصة ، كل شيء ممنوع . يوجد اليوم وسائل رفاهية لم نكن نملكها في الماضي : لدينا كهرباء في منازلنا ، ومياه جارية واجهزة حديثة وبامكاننا الآن أن نستأجر جرارا مقابل عشرين شيكلا في الساعة لأعمال الزراعة . ولكن ما فائدة كل هذا عندما تكون الحياة شديدة القساوة تحت الحكم الاسرائيلي ؟ اذا داس أحدنا على أرض لليهود ، تفرض علينا الغرامات أو نسجن ، ولكن يمكنهم أن يدوسوا أرضي ، ويتلفوا محصولي ، ويسرقوا أرضي . يحق لهم أن يفعلوا ما طاب لهم ، بينما اجرد أنا من حقوقي وأسباب معيشتي) .

حدق بعينه السليمة الى (مروان) وقال : (لا يستطيع ابني أن يتخيل كيف كانت الحياة في الماضي) .

(مروان ، عضو في جماعة مسرح الحكواتي التي يقع مركزهـا في القدس الشرقية ، وهو يشبه والده في قامته القصيرة ؛ إلا أن موقفه من الناس ومن الحياة يتناوب بين نفاذ الصبر وعدم المبالاة . حدق بصمت الى والده .

كانت (فاطمة) هي التي أجابت بنفاد صبر على المحن التي يعاني منها والدها : (ما تزال حياة الجيل السابق تتركز حول الأرض ، أما بالنسبة لنا نحن الشباب ، فالزراعة لا تعني شيئاً ؛ إذ يتركز نضالنا على مستوى مختلف) .

قال الرجل العجوز بازدراء : (يحتقر شبان اليوم مثل هذه الأعمال، لقد قدمت الى (مروان) العلم الذي لم أحصل عليه ، أرسلته الى أفضل المدارس ومن ثم الى الجامعة ، وهـو يعيش الآن في القدس الشرقية ويرفض البقاء معنا . طلبت منه الإقامة هنـا لمساعدتنا ولكنه رفض ذلك ، ويقول بأنه لا يحب طريقة حياتنا) .

قال (مروان) محتجاً : (اتيت لقضاء يومين هنـا لمساعدتكم في قطاف الزيتون) .

قال والده ساخطاً : (في الماضي كان الرجال والنساء والأطفـال يعملون في الأرض جنباً الى جنب كفريق واحد ، إذ كان وجودنا يعتمد على مدى نجاح محصولنا . وكان التجار يشترون المحصول وهو ما يزال في باطن الأرض . وبعد الحصاد ، كنا نبيع ما تبقى الى أهالي القرية في منازلنا ، وإذا احتجنا الى مبلغ إضافي من المال لشراء بنطال لأحد الأبناء ، كنا نبيع أيضاً برميلاً أو اثنين من زيت الزيتون . أما اليوم فعلينا أولاً أن نجمع المحصول ، ثم نبيعه الى الأشخاص الذين يأتون بشاحناتهم .

وما نزال نبيع الخضار والفواكه الى أبناء القرية ، ولكننا لم نعد نبيع زيت الزيتون ، فلا أحد يرغب به ، بل يفضلون شراء الزيت الاصطناعي الذي ينتجه اليهود . ويوصف الذين يصنعون الخبز بأيديهم ، في هذه الأيام ، بأنهم متخلفون ، إذ تفضل النساء شراء الخبز الغربي الجاهز . ولكن هذا ليس حال عائلتي ، إذ تصنع ابنتي الكبرى الخبز ، ثم أخذه الى فرن الخباز . ولدينا بقرة نحصل منها على حليبنا ، ولدينا دجاج يعطينا البيض الطازج . وما نزال حتى اليوم نأكل زيت الزيتون ، ونأكل من خضار ارضنا وفاكهتها ؛ وأرفض شراء الطعام المعلب أو تناوله ، أو أي من المنتوجات الحديثة التي ينتجونها اليوم ، ولا نشتري من السوق سوى الأرز والسكر والملح واللحم الطازج) .

اطلق العجوز زفرة وقال : (كان لدينا أيضاً فيما مضى قطيع من الماعز ، يضم حوالي سبعين أو ثمانين عنزة ، أما اليوم فمن الصعب الحصول على رعاةٍ للاعتناء به . ولا يدرك الناس أن تربية الماعز تدرّ مالاً أكثر مما يحصل عليه العامل ؛ ولكن شبان اليوم يفضلون العمل كعمال بالأجرة . فهم يرغبون في الحصول على مال وفير وبشكل سريع لشراء السيارات واصطحاب الفتيات في الأمسيات . في أيامي ، كان إذا نظر أحدهم الى فتاة ، يذهب إليه والدها وإخوتها في منتصف الليل ويوسعونه ضرباً) .

انفجر الجميع بالضحك .

قال الرجل العجوز : (اضحكوا ما شئتم ، في الماضي ، إذا رفضت فتاة العريس الذي اختاره أهلها لها ، كانوا يأتون بالمعول ويضربون عنقها ؛ أما اليوم فتتزوج الفتاة الشاب الذي تريده . انا شخصياً أوافق على هذا التغيير لأنني اعتقد انه من الخطأ الضغط على إنسان للزواج من آخر لا يرغب به . ولكنني لا أوافق على بعض التغييرات ، كخروج الشبان والشابات سوية . لكل زمان رجاله ، فالشبان اليوم لهم

افكارهم ومواقفهم الخاصة بهم ، فهم يناضلون في سبيل أشياء مختلفة وبأساليب مختلفة . انظري مثلاً الى الانتفاضة ...) .

قاطعه (مروان) بنفاد صبر : (جميعنا نعرف كل ما يتعلق بالانتفاضة . هل حاربت في زمانك ؟) .

ردّ (أبو عماد) مدافعاً عن نفسه : (بالطبع لقد حاربت ، شاركت في ثورة عام ١٩٣٦ . كنت في ريعان الصبا ، وكنت مستعداً للقتال والاستشهاد في سبيل وطني . حضر القادة الى مجد الكروم وأخبروا الشبان أن يأخذوا الأسلحة ويقاتلوا ؛ لقد جلبوا لنا أسلحة من سوريا ولبنان ، ولكنها لم تكن من النوع الجيد ، كانت صدئة . وعندما نفدت ذخيرتنا ، أخبرونا بأن نرسل طلباً الى سوريا . ولكننا قلنا محتجين : (ولكننا لا نستطيع الانتظار طويلاً ، نريد الذخيرة الآن لكي ندافع عن انفسنا في وجه الدبابات) . فالفلاحون هم الذين تحملوا وطأة القتال العظمى ، كل ما فعله أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم القادة هو قضاء الوقت في المدن . فكانوا يضعون الطربوش على رؤوسهم ويجلسون في المقاهي . وهناك الكثير من سكان المدن الذين كانوا من المتعاونين مع العدو المحتل ، وكانوا أيضاً يضعون الطربوش ويجلسون في المقاهي . ثم حرّم قادتنا على أفراد المقاومة ارتداء الطربوش ، واحتفالاً بالقانون الجديد ، أحضروا حماراً ، ووضعوا طربوشاً على رأسه وتجولوا به في الشوارع . آه ، نعم ، إننا نحن الفلاحون من تحمل عبء القتال ، لقد حاربنا قدر استطاعتنا) .

قال (مروان) بشيء من الفظاظة : (اليوم يرمون الحجارة ، ولكنهم على الأقل يصيبون أهدافهم . في أيامكم ، كان بحوذتكم بنادق ولكنكم لم تصيبوا أحداً ، كنتم تضربون في الهواء) .

نزع والده غطاء رأسه ومسح عرقه ، ونظر الى ولده وقال بهدوء : (أصبح الناس اليوم اكثر تعليماً ، وأكثر اطلاعاً من الناحية السياسية) .

ساد الصمت برهة ، واستغرق كل منهم في افكاره ، دون ان يقلقه ضجيج حركة المرور ، ونهيق الحمار وقرق الدجاجات التي تعدو مسرعة في الحديقة .

هزت (ام عماد) رأسها وكسرت حاجز الصمت عندما قالت : (نعم ، إن جيل اليوم اكثر تعليماً واطلاعاً من أبناء جيلي ، نحن لم نكن مثقفين . لقد امضيت حياتي أعمل في الأرض ، وما أزال حتى اليوم ، وفاطمة لا تساعدني في الحصاد) .

ردت (فاطمة) وهي تبتسم : (هذا العمل لا يناسبني ، ولكنني أساعدكم في موسم الزيتون) .

تابعت والدتها : (أثناء موسم الزيتون تبقى في المنزل لحراسة الزيتون الذي نقطفه . ففي هذه الأيام ، يميل أولاد القرية الى السرقة ، فهم يسرقون الزيتون حتى قبل قطافه ؛ فأشجارنا موزعة ولا تنحصر في قطعة ارض واحدة . لدينا ، على سبيل المثال ، عشر شجرات من الزيتون في قطعة واحدة ، ولدينا شجرات أخرى في قطعة بعيدة ؛ ولا يوجد من يساعدنا للعمل في كل الأمكنة في الوقت نفسه . فبينما نحن نعمل في قطعة ما ، يذهب الأولاد الى القطعة الأخرى ، يسرقون الزيتون ويبيعونه . فلا يملك جيل اليوم اخلاقاً ، ولا يشعر بالخجل . في السابق ، كان الشبان يستمعون الى الكبار ويطيعونهم ، ولكنهم اليوم لا يبالون بهم ، حتى الفتيات لا يتبعن السلوك السليم ولا يستمعن الى نصائح الكبار أيضاً . هل تتصورين انه يوجد فتيات عربيات يعشن بمفردهن في الخارج ؟ يعشن في شقق بمفردهن ! ما هذا النوع من السلوك ؟ في ايامي ، كنا نخضع لأوامر الآباء ، والإخوة ، والأزواج ، وأمهات الأزواج ، لم نكن نعصي أحداً . لو حدث ان رغبت في زيارة شقيقتي المتزوجة ومنعني شقيقي من ذلك ، لم اكن أجرؤ على أن أطىء بقدمي خارج المنزل ، وكنت أرتعش من الخوف . وإذا سمح لي بزيارة شقيقتي ، لم أكن أذهب بمفردي ، بل برفقة شقيقي أو والدتي . لم

يكن أيضا يحق لي اختيار شريك حياتي ، ففي تلك الأيام ، كان لابن العم الأفضلية على الغرباء ، وإلا تنشأ النزاعات والضغائن بين الأقارب . كان والدي متوفياً عندما تقدم (أبو عماد) لخطبتي ، وهو ابن عمي أيضا ، وكان شقيقي هو صاحب القرار . كنت في الثامنة عشر من عمري عندما تزوجت . ولم أخيّر في الموافقة أو الرفض) .

ثم نظرت الى (أبو عماد) وقالت بشيء من المرارة : (أنا في منزلك ، وزوجتك وأم أولادك . ولكن لو كانت لي الحرية في اختيار شريك حياتي ، ما كنت لأتزوج شخصاً يكبرني بخمسة عشر عاماً . لقد تقدم لخطبتي من هم أكثر تقارباً من عمري ، وأكثر ثقافة) .

بقي (أبو عماد) صامتاً ، وقد بدا عليه الاستياء .

تابعت زوجته روايتها : (أما اليوم ، إذا تقدم أحدهم لخطبة ابنتي ، فإنها ترغب في مقابلته أولاً والتحدث إليه ، ثم يعود إليها القرار في الموافقة عليه أو رفضه ؛ لم يعد القرار لي أو لوالدها . فإذا وافقت عليه ولم ينجح الزواج ، يكون هذا على الأقل نتيجة قرارها . إن حرية اختيار شريك الحياة هي التغيير الجيد الوحيد في القيم الاجتماعية التي يمارسها الجيل الجديد) .

احتجت (فاطمة) قائلة : (هل تعنين أن كل ما نفعله سوى ذلك هو سيء ؟) .

أجابت والدتها بتحدٍ : (نعم ، جميع مبادئكم الأخرى خاطئة) .

يوجد في عيني (فاطمة) ، كشقيقها الأكبر (عماد) ، عيب فطري ، بيد أنها فتاة قوية الشخصية وتملك الرغبة في مجاراة والدتها ، قالت : (إن النزاعات بيني وبين والديّ مستمرة ، ولن يأتي أبداً اليوم الذي يستسلم فيه أحدنا للآخر . لن أتمكن مطلقاً من إقناع والدتي بقبول طريقتي في التفكير ، ولن أقبل طريقتها . لا سبيل للمقارنة بيني وبين

والدتي ، فعلى سبيل المثال ، تريدني أن أضع الغطاء على رأسي ، وأرتدي الثياب الطويلة بأكمام طويلة ، ولكنني أرفض وأرتدي ما يحلو لي ، الأمر الذي لا يروق لها بالطبع) .

قالت والدتها ساخطة : (أوه ، كم أتمنى أن تتزوجي !) .

قالت (فاطمة) ضاحكة : (إنها تستنكر تصرفي إذا تحدثت الى الشبان ، وتعتقد أنني إذا تحدثت الى أحدهم فهذا يعني أنني أحبه ، او أننا سنفعل شيئاً مشيناً . انا لا افكر بهذه الطريقة ، فأنا اتحدث الى الشبان كما أتحدث الى الفتيات تماماً : على أساس متماثل ؛ ولن اكف عن حديثي مع الشبان لإرضاء رغبتها فقط ، فأفكارنا مختلفة جداً . من ناحية ثانية ، هناك بعض الأمور التي توقف والديّ عن الاعتراض عليها بينما لا يزال آخرون يحرمونها على فتياتهم ، كالذهاب الى عكا أو الناصرة دون مرافق . ومن الأسباب التي دعتهم الى السماح لي بالسفر بمفردي حاجتهم لإرسالي من وقت لآخر لمتابعة بعض الوثائق التي تتعلق بأرض والدي . وكذلك لا يسمح للفتيات بالخروج بمفردهن مساء ، وعندما تقدمت لدورة إدارة الأعمال ، اعترضا عليها لأن الدوام مسائي ، وقالا إن هذا سيجلب العار للعائلة ، ولكنهما في الوقت نفسه يرغبان بتعليمي . لذا عندما قبلت في الدورة ، لم يكن أمامهما سوى الموافقة ؛ كنت أعود الى المنزل في التاسعة مساءً ، في الأسبوع الأول والثاني كانت والدتي تنتظر عودتي ، ولكنها اعتادت بعد ذلك على تأخري ولم تعد تشعر بالقلق . هناك ...) .

انقطع حديث (فاطمة) بسبب وصول فتى صغير يرغب في شراء البصل من (أم عماد) ، واعطاها ورقة نقدية ممزقة بقيمة شيكل واحد .

فصاحت في وجهه : (انا لا آخذ هذه الورقة ، اذهب واشتري البصل من الدكان) ورفضت أن تبيعه .

احتج الفتى قائلاً : (ولكن أرسلتني أمي !) .

ـ (هذا لا يهمني ، اذهب الى أحد غيري) .

غادر الفتى المكان ، ودمدمت (أم عماد) بكلام غير مسموع .

عادت (فاطمة) الى الحديث : (هناك هوة كبيرة بين جيل والديّ وجيلي ، حتى في لغة الوعي السياسي ، والطريقة التي نناضل وفقها للحصول على حقوقنا . فنضالنا اكثر تخطيطاً ، لأننا نستخدم طرقا منظمة ، ونعرف كيف نستفيد من القانون في نضالنا من أجل قضيتنا . عندما كنت فتاة صغيرة في المدرسة ، لم أتلق أية معلومات عن التاريخ أو التراث الفلسطيني ، ولكن أذكر انني كنت أسمع والديّ وغيرهم من الكبار يتحدثون عن اليهود وكيف اخذوا أرضنا ، وكيف أبعدوا آلاف الفلسطينيين . كان والدي قد أُبعد الى الأردن مع الكثيرين من ابناء مجد الكروم وقرى اخرى ، ولكنه تمكن من التسلل عائداً عن طريق لبنان) .

قال (أبو عماد) : (نعم ، هذا صحيح ، فهذا وطني رغم كل شيء ، ومازال زوجتي هنا . لقد خاف بعضهم من العودة ، وامسك اليهود بالبعض الآخر ورموا بهم وراء الحدود) .

قال (مروان) الذي كان يحدق بعيداً وهو مستغرق في التفكير : (على الرغم من أن نظرة والدي تجاه الخسائر التي لحقت به والنكبة بشكل عام ، هي نظرة عاطفية أكثر منها سياسية ؛ إلا أنه لم يواجه كفرد أية مشاكل بخصوص هويته . فقد كان دائماً فلسطينياً ، ولم يشك في ذلك يوماً ، ولم ينشأ بين حضارتين كما حدث لأبناء جيلي ، إذ علينا أن نحارب ونكون أقوياء بحق كي لا نصاب بانفصام الشخصية ، أو نغرق في وسط الحضارة الإسرائيلية .

أذكر أنني عندما كنت في المدرسة الابتدائية ، كان من عادتنا أن نحتفل بذكرى يوم الاستقلال ، فنذهب الى التلال ونقطف الأزهار لنزين

المدرسة . كنا نستمتع بذلك كأطفال ، ولم نكن نعرف سبب كل ذلك ؛ فالأمر بالنسبة لنا كان مجرد عطلة واحتفالات ، لم يخبرنا احد أن هذا اليوم لا يحتفل به في الواقع ، فكنا نحمل الأعلام الإسرائيلية ، ولم يخبرنا أحد بأنها ليست اعلامنا . تقبل البعض ذلك العلم وكأنه علمهم لأنهم يعيشون في دولة إسرائيل ، واحجم البعض الآخر نتيجة الخوف الشديد عن إخبارنا بأن هذا العلم لا يخصنا ؛ وكانت المدارس الثانوية تحتفل بيوم الاستقلال . ثم بدأ الناس في عام ١٩٧٥ يعترضون على هذه الاحتفالات ، فقد ظهر جيل جديد وكامل من المعلمين الذين ذهبوا الى الجامعة ونالوا من العلم والاطلاع أكثر مما ناله الجيل السابق ، لذلك قالوا : (انتظروا لحظة ، إنها ليست ذكرى استقلالنا ، إنها ليست مناسبة نحتفل بها نحن الفلسطينيون !) .

قبل عام ١٩٦٧ كنا نعتقد بأننا عرب إسرائيليون ، فتعلمنا لغتهم وعملنا لديهم . كنا نعلم بأننا نعامل معاملة غير عادلة ، ولكننا التزمنا جانب الصمت خوفاً من الترحيل . اختلطت الأمور في أذهان الناس ، فلم يعرفوا هل يقدمون ولائهم الى دولة إسرائيل أم الى انفسهم باعتبارهم الشعب الفلسطيني . ولكن بحلول عام ١٩٦٧ ادركنا بأننا فلسطينيون ولا نرغب بمغادرة وطننا الذي أصبح دولة إسرائيل ، وأدركنا ايضاً اننا نملك هويتنا القومية الخاصة بنا ، ولكن دون حقوق متساوية ؛ لذا كان هدفنا النضال من أجل الحصول على حقوقنا . ثم وفي عام ١٩٧٦ — يوم الأرض — تعزز شعورنا بهويتنا لأننا ادركنا أنه بإمكاننا القيام بمظاهرات في سبيل حقوقنا ؛ ونستطيع أن نقول : لا ، لما يريد أن يفرضه علينا الإسرائيليون) .

قالت (فاطمة) : (إن قضيتي هي جزء من وجودي ، هناك بعض الفلسطينيين من أبناء جيلي الذين لا يعيرون أي اهتمام لقضيتهم ، وينحصر شغلهم الشاغل في قضاء أوقات ممتعة . أنا لست هكذا ، فأنا أريد العدالة ، واريد الحصول على حقوقي .

كنت اعمل في مكتب احد المستشارين القانونيين ، ولكني اضطررت الى تغيير عملي بسبب ضعف نظري ، ثم وجدت عملاً في مصنع يهودي لمستحضرات التجميل ، حيث يوجد ست فتيات عربيات وأربع يهوديات ؛ أي ان عدد العرب يفوق عدد اليهود . وكان صاحب المصنع لا يدير جهاز المذياع إلا ليستمع الى الأغاني اليهودية ، لذا في يوم من الايام ، احضرت معي جهاز مذياع صغير لأستمع الى موسيقا عربية . وجلست في مكاني في الزاوية ، وأدرت الجهاز بصوت منخفض جداً ، ولكنه لم يوافق على ذلك وامرني ان أعيده الى المنزل . أترين ، لم يأخذ بعين الاعتبار ان الموظفين العرب يرغبون بسماع موسيقا عربية من وقت لآخر ، فأنا لا اريد الاستماع الى الأغاني او المسرحيات اليهودية طوال الوقت . فهم يفرضون علينا حضارتهم . سواء كنا نرغب في ذلك أم لا ؛ وإذا لم يعجبنا ذلك ، يقولون لنا : « اذهبوا الى بيوتكم ! » ليس هناك حل وسط . وإذا لم نكن سعداء بسبب شيء ما في العمل ، لا يهتمون على الإطلاق ، بل يقولون لنا : (إذا لم يعجبكم ذلك ، ارحلوا !) ماذا بوسعنا أن نفعل ؟ نحن مضطرون للعمل معهم .

انا شخصياً لا ادعهم يعاملونني بازدراء ، فإذا كنت اعامل معاملة غير عادلة ، فإنني على الأقل أعبر عن رأيي بحرية . فعلى سبيل المثال ، اخبر صاحب المصنع منذ عدة ايام الفتيات اليهوديات انه بإمكان كل واحدة منهن شراء زوج من الأحذية على حساب المعمل ، ولكنه لم يقدم عرضاً مماثلاً الى الفتيات العربيات ، علماً أن بعضهن يعملن قبل بعض الفتيات اليهوديات بفترة طويلة ، عندما سمعت بذلك الخبر ، قلت لزميلاتي العربيات : (لنذهب ونطالب بأحذية جديدة ايضاً ، يجب أن نحصل على حقوق تماثل تلك التي تحصل عليها الفتيات اليهوديات) . إلا أنهن رفضن ، وشعرن بالكبت والخوف لأنهن لم يتعلمن كيف يطالبن بحقوقهن ، فقررت ان اذهب الى صاحب المعمل بمفردي ؛ ففي اسوأ الحالات لا شيء أخاف فقدانه ، فكل ما كان علي ان أتحمله هو الرفض ، ولكنني على الأقل اكون قد بذلت جهدي للحصول على حقوقي ، وسألتني

زميلاتي أن أتحدث نيابة عنهن أيضاً ، ولكنني اخبرتهن انهن يجب أن يملكن الشجاعة للتحدث عن أنفسهن . وعندما قابلت صاحب المصنع وطالبته بالمال لشراء حذاء جديد ، قال إنه لا يوجد قانون يجبره على فعل ذلك . وبعد نقاش دام برهة من الزمن ، وافق اخيراً على طلبي . ولم تطالب زميلاتي العربيات بحقوقهن ، فلم يحصلن على شيء . فيجب علينا أن نطالب بحقوقنا ، لأنهم لن يقدموها لنا بملء إرادتهم . إن اندلاع الانتفاضة أمر جيد ، ربما إذا ناضل جميع الفلسطينيين بطريقة واحدة ، يمكن عندئذٍ أن نصل الى حل ، يجب أن لا نخشى النضال من اجل حقوقنا ، لوكان الجيل السابق أكثر تنظيماً وكان لديه الوعي الذي يتمتع به جيل اليوم ، ربما لم نكن قد وصلنا الى الوضع الذي نحن فيه الآن) .

علق (أبو عماد) بلهجة تنم عن شيء من السخط : (اصبح الناس اليوم أكثر وعياً) .

قال (مروان) : (لم يتم نمو وعيّ حتى وصلت الى الجامعة . في البداية لم أكن أرغب بالالتحاق بالجامعة هنا ، بل أردت الذهاب الى إيطاليا أو امريكا الدراسة فن التصوير السينمائي أو المسرح . إلا أن والديّ اعترضا ، وخاصة أن من يتكلف عناء الذهاب الى الجامعات في الخارج يدرس الطب أو القانون وليس السينما أو المسرح . وهكذا رفض والديّ طلبي ، فاضطررت للإذعان إليهما لأنني ، وفي العام الأول على الأقل ، كنت سأحتاج الى الدعم المادي ، وما كانا سيوافقان على تقديمه لي ؛ لذا انتهى بي الأمر في جامعة القدس حيث حصلت على شهادة البكالوريوس في علم الاجتماع . أذكر انني في اليوم الذي غادرت فيه القرية للالتحاق بالجامعة دعتني والدتي بجانبها وقدمت لي بعض النصائح : (ابتعد عن السياسة ، واحذر الفتيات) . ولكن لحسن الحظ ، أو ربما لسوءه ، تورطت مع الفتيات وفي السياسة أيضاً ؛ إذ انضممت الى حركة الطلاب ، وحضرت الاجتماعات السياسية ، وشاركت في المظاهرات ، واعتبرنا انفسنا جميعاً المحررين المنتظرين لشعبنا .

وفي العام الدراسي الثالث تعرفت على بعض الطلاب المشاركين في مجموعة مسرح الحكواتي ، فانضممت إليهم ، ولكنني أيضاً تابعت دراستي . بعد البكالوريوس ، حصلت على الماجستير في علم الجريمة وتابعت مهنة التمثيل في الوقت نفسه . عندما انهيت دراستي كانت هناك وظيفة شاغرة في مكتب الشؤون الاجتماعية . فتقدمت اليها وقبلت . كان العمل يبدأ في الثامنة صباحاً ، ولم أكن قد اعتدت على الاستيقاظ في ذلك الوقت المبكر منذ ايام المدرسة . لذلك ضبطت المنبه على الساعة السابعة صباحاً ، واستيقظت بطاعة كاملة ، واغتسلت وحلقت ذقني وتوجهت الى العمل كبطل فاتح . وهناك قدموا لي فنجاناً من القهوة ، ثم استدعاني المدير وقال : (أعتقد أنك تعمل في مسرح الحكواتي ؟) .

أجبته : (نعم ، وأعتقد انك رأيت مرة احدى مسرحياتنا ، هل اعجبتك ؟) .

فقال : (يعجبني ما يقدمه الحكواتي ، ولكن لا يمكنك العمل هنا ومع الحكواتي في الوقت نفسه . أعطيك أسبوعاً لتقرر) . حسناً ، عملت في المكتب مدة ساعة واحدة ، ثم غادرت ولم أعد ثانية . وهم يدينون لي بأجرة ساعة عمل واحدة . كان اتخاذ القرار امراً سهلا بالنسبة لي لأن العمل في المكتب لم يكن من أجل اتخاذ مهنة لي ، بل كان محاولة لاكتساب المزيد من المال ، والمهنة التي كنت ارغب بها فعلا وما أزال حتى الآن هي العمل في المسرح . هل تعرفين انني أحياناً عندما أشعر بالاكتئاب ، أقول لنفسي : (ما الذي أفعله في المسرح ؟ لم لا أعمل في المجال الذي تخصصت به في الجامعة ؟) ولكنني افكر في الأمر برهة ، ثم اقرر : لا ، لا أستطيع أن أتحمل العمل في مكتب من الثامنة صباحا وحتى الثانية بعد الظهر ، غارقا وسط مئات الملفات .

بالطبع لا يشعر والدي بالرضى على ما اقوم به ، فهما لا يريدان ان أصبح عاملا ، إلا انهما بالتأكيد لا يرغبان أن ينتهي بي الأمر في المسرح . كانا يفضلان أن أحصل على شهادة في الطب أو التعليم ، ثم أعود للعمل في

مجد الكروم . وبما انني لم أحصل على شهادة في أيّ من هذين المجالين لذا فهما يحبذان عودتي الى القريــة بعد الجامعــة للعمل في الأرض الى جانب والـــدي . انا لا أماني في مساعــدتهما من وقت لآخر ، ولكنني بالتأكيد لن أتخذ من الزراعة مهنة لي طوال حياتي . على أية حال ، لا يمكن جني الكثير من المال من العمل في الزراعة ، وخاصة باستخدام الأساليب البدائية التي يستعملانهــا . وتبقى كميــة المحصول محدودة لأنهما لا يستعملان الريّ ، بل يعتمدان على المطر . لا يسعني العيش بهذه الطريقة ، ولا اريد أن أسير على خطاهم ، بل أرغب أن اعيش حياتي الخاصة وافعل ما يحلو لي . يأمل والديّ أن أعيش وفق توقعاتهما ، وأنا أريد أن أعيش بطريقتي الخاصة ، لذا ماذا يجب أن أفعل في هذه الحالة ؟ فأنا ابن قرية محافظة ، وينتظر مني احترام العائلة والمسنين والتقاليد . لذا وبما أنني أمارس المهنة التي اريد ، أبذل من ناحية ثانية جهداً استثنائياً للتوصل الى تسوية حيال الأمور الاخرى . فأحضر الى القرية كل اسبوعين أو ثلاثة ، وأساعد عائلتي في اعمال الأرض مدة يومين ، وأقوم بواجباتي الأخرى ، ثم أعود الى عالمي .

في الواقع حدث تغيير كبير في قرية مجد الكروم ، ففي الماضي كانت معالم الحياة المشتركة أكثر وضوحاً ، فلم يكن الناس يكتفون بمساعدة بعضهم بعضاً في أعمال الارض ، بل في مختلف جوانب الحياة . أما اليوم، فالذن يعملون يذهبون الى المدن ، وكل ما يشغلهم هو كسب المال ؛ أمــا الروابط التي تصلهم بالجماعة فتدور بشكل رئيسي حول طقوس الولادة، والزواج والموت ، ويوجد بالطبع من ناحية ثانية عدد كبير من الشـــبان العاطلين عن العمل ، والذين يقضون أوقاتهم بالتجول في شوارع القرية أو المدن . وهم يشعرون بالضياع في جوانب عديدة ، فبينما يعرفون تمــام المعرفــة بأنهم فلسطينيون ، إلا أنهم يقعون فريســة الحضــارة الاسرائيلية . أذكر حتى الآن كيف أنني صارعت هذا التأثير وتمكنت من التغلب عليــه .

ولا يتمكن هؤلاء الأحداث ، الذين يقضون جل أوقاتهم في الشوارع، من التغلب بمفردهم على الحضارة اليهودية ، لذا قررت أنا وعدد من شبان مجد الكروم أن نؤسس نادٍ ثقافي لتطوير الوعي حول التراث والحضارة الفلسطينيين ، ولكي نعطي للشبان هدفاً في الحياة . والمجالان الآخران المتاحان في القرية هما نادي الرياضة ونادي الهستدروت ، الذي يعلم الفتيات مبادىء الخياطة . أما بالنسبة للرياضة ، فهي لا تفي بحاجاتنا الثقافية ، فمن الممكن أن يتغلب شبابنا على الشبان اليهود في مباراة أو أخرى ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟

يجب أن يتوفر لدى الشبان وسيلة تمكنهم من التعبير عن أنفسهم كفلسطينيين ، والطريقة المثلى لذلك لا تتم إلا من خلال النشاطات الثقافية : الموسيقا الفلسطينية ، الرقص ، المسرحيات والمحاضرات . قمنا باستئجار غرفتين ، وتمكنا من الحصول على الدعم المادي من منظمة مستقلة غير حكومية ، وسنؤسس ورشات عمل من أجل المسرح والرقص والموسيقا الفلسطينية . وسنؤلف مجموعة دائمة ونلقنها مبادىء الاخراج والتمثيل والتأليف المسرحي ، حتى تصبح مجموعة مستقلة وبامكانها التجول وتقديم الأعمال المسرحية في ارجاء البلاد ، وسنوجه دعوة الى بعض الشخصيات الأدبية وغيرهم لاعطاء محاضرات أسبوعية . وسيؤدي كل شخص عمله بشكل طوعي ، الى جانب وجود مدير براتب محدد للاشراف على النادي . وبما أنني أعيش في القدس ، ولدي عملي في مسرح الحكواتي ، لا أستطيع تخصيص وقت كامل للعمل هنا في النادي، لذا من الضروري وجود مدير لا يكون كفؤاً فحسب ، بل مهتماً ايضاً بنشاطات النادي . حالياً لا يوجد أية نشاطات بسبب قيامنا بطلي الغرفتين لأنهما بحاجة ماسة لذلك) .

نظر (مروان) الى ساعة يده وقال بأنه يجب أن يذهب ليرى احد ابناء عمه .

عاد الفتى الصغير الذي كان يريد أن يشتري البصل برفقة والدته التي سألت (أم عماد) : (لماذا لم تبعيه البصل ؟) .

اجانب (أم عماد) : (لا آخذ الأوراق النقدية القديمة والممزقة) .

قالت الامرأة : (حسناً ، لقد احضرت لك نقوداً جيدة) .

تنحنحت (أم عماد) وذهبت لاحضار البصل .

قام (مروان) بواجبه تجاه عائلته وأمضى يومين في القرية ، عاد بعدها بسيارته الى عالمه الخاص ، ولكنه لم يتجه الى القدس بل الى (سخنين) ، وهي قرية أخرى تقع في الجليل ، حيث سيلتقي ببقية أعضاء جماعة الحكواتي ليقدموا مسرحية تدعى (تغريب العبيد) . فالى جانب العروض العديدة التي قدموها في القدس ، قاموا أيضاً بزيارة عدد آخر من القرى والمدن في أنحاء البلاد بهدف تقديم أعمالهم الفنية . واخذوا يومين للراحة قبل إنهاء جولتهم في (سخنين) ، حيث استأجروا قاعة يستخدمها أهالي القرية الأغنياء للاحتفالات ، ولاقامة المناسبات الاجتماعية الهامة الأخرى . وحالما نصب أفراد المجموعة خشبة المسرح، توافد أهالي القرية من مختلف الأعمار ، وأخذ البعض منهم يراقب سير العمل ويطرح الأسئلة ، والبعض الآخر يقدم يد العون .

قال (مروان) : (نحب أن يهتم الناس بنا ويقدموا لنا المساعدة، ونحب أن يشعروا بالتماثل معنا ، فمعظم مسرحياتنا ترمز الى الحالة التي نعيش فيها كفلسطينيين . لقد تأسست جماعة مسرح الحكواتي عام ١٩٧٧ ، وتعتمد المسرحيات المقدمة على التجارب الاجتماعية والسياسية لأفراد الجماعة ، وكذلك تجارب أشخاص آخرين . وتعبر تلك المسرحيات عن القومية الثقافية الفلسطينية ، متخفية تحت قناع الرمزية لتجنب غضب المراقبين الذين واجهنا معهم بعض الصعوبات في الماضي . وتتطلب عملية إخراج مسرحية ما المشاركة الفنية والابداعية

لكافــة أفراد المجموعــة ، ويمكن أن يكون بعض الممثلين غير دائمين ، بل يتم استخدامهم لقاء أجر معين لمسرحية محددة) .

وعندما بدأ الناس من مختلف الاعمار يتوافدون لحضور المسرحية ضجت الصالة بثرثراتهم وهم يترقبون خروج الممثلين والممثلات . تدور أحداث المسرحية حول عدد من العمال الفلسطينيين في مهن مختلفة اجتمعوا سوية أثناء احدى الاجازات لتقييم اوضاعهــم الاجتماعيــة والسياسية والاقتصادية . وكانت المسرحية هزلية ومأساوية في وقت واحد ، وأتت مشاركة الجمهور تلقائية : فضحكوا ، وحيوا الممثلين الناجحين ، وسخروا من الفاشلين . وعندمــا انتهت المسرحية ، تقــدم بعض أفراد الجمهــور وهنئوا الممثلين والممثــلات ، بعــد أن استمتعوا بالأمسية بشكل كامل .

حزمت المجموعة أمتعتها وتوجهت نحو القدس في وقت متأخر من الليل . كان (غسان) ، وهو أحد الممثلين المأجورين للتمثيل في تلك المسرحية ، يشعر بالقلق لأنه قدم من الضفة الغربية ، وقد حل الظلام ولم يعد بإمكانه أن يجد وسيلة تنقله الى منزله . فالسلطات لاتسمح لسكان الضفة الغربية وغزة أن يقضوا الليل في القدس ، أو أي قسم آخر من منطقة ٤٨ . ولكن بما أنه لا يستطيع العودة الى منزله مشياً على الأقدام ، لذا لم يعد أمامه من خيار سوى المبيت عند (مروان) .

وصل (مروان) الى المسرح حوالي منتصف النهار ، كان البناء في السابق داراً للسينما ، ويقع في زقاق مسدود . قال (مروان) : (أنا مسرور لعودتي ، ولكن أستطيع أيضاً أن أقول إن الحياة في القدس لاتختلف كثيراً عنها في مجد الكروم ، وهي لاتشبه الحياة في نيويورك أو باريس : فالقدس تشبه قرية كبيرة ، والفارق الرئيسي بالنسبة لي هو انني في القدس أعيش على هواي ، أذهب وأعود كما أريد ، وأتحدث مع من أريد ، ولا أقيد نفسي بالواجبات والالتزامات ، فأنا غير ملزم بإقامة

العلاقات الاجتماعية مع الأقارب والجيران . سأذهب الآن إلى اجتماع لمناقشة مسرحية من تأليفي) .

واندفع مسرعاً ، تواقاً للعودة إلى الحياة التي لم يستطع والداه تقبلهـا .

خلال عام واحد ، فقدت (أم عماد) قدراً لابأس به من وزنها بسبب معضلة قلبية . كانت تجلس في الشرفة بعد أن عادت من حفل زواج أحد الأقارب . بدلت ابنتها الكبرى ، التي كانت برفقتها أيضاً ، ثيابها ، وبدأت تعجن الخبز . قدم أحدهم وطلب من (أم عماد) شراء قليل من البامية ، فأحضرت له ماطلب ، وقامت بوزنه وقدمته له . ثم جلست وهي تقول : (لم أعد أستطيع العمل كالسابق بسبب صحتي) .

بعد برهة وجيزة ، عادت (فاطمة) من الحفل ، ورمت والدتها بنظرة صارمة ثم قالت : (لماذا غادرت مبكراً ؟ ولماذا كنت صامتة طوال الوقت ؟)

اجابت والدتها : (لم أكن سعيدة) .

قالت (فاطمة) غاضبة : (لم يعد يسعدك شيء) .

اجابت (أم عماد) : (الا حفل زواجك) ، ثم اضاءت ابتسامة وجهها وهي تقول : (منذ بضعة أيام ، أخبرني (مروان) أنه عندما يقرر الزواج سيختار إحدى فتيات القرية ، ولن يتزوج من فتاة غريبة . الأمر الذي أسعدني كثيراً لأنني كنت دائماً أفكر بأنه ، وبسبب أسلوب حياته ، سينتهي به الأمر إلى الزواج من فتاة غريبة) .

وصل بعض الأقارب : رجل زوجته في العقد الثامن من العمر .

سألت (أم عماد) فاطمة : (أين والدك ؟)

أجابت (فاطمة) : (مايزال في الحفل) ، ثم تابعت تقول : كان العام المنصرم قاسياً على والدي لأن المحكمة لم تحدد بعد مصير دونماته الثلاثين . لذا قرر أن يزرع القمح طوال فترة بقاء القضية في المحكمة ، ونفذ قراره بالفعل ، وكان يتردد من وقت لآخر للاطمئنان على حالة المحصول . وعندما ذهب للحصاد وجد أن السلطات قد قامت بالمهمة بدلاً عنه قبل الأوان ، وتلف المحصول بكامله . فتضايق كثيراً ، بل اجتاحه غضب جامح) .

قالت السيدة العجوز التي وصلت منذ قليل مقتبسة كلامها من قول مأثور :

هل يمكن للحجر أن ينبت أوراقاً ؟

هل يمكن للسمك أن يعيش خارج الماء ؟

ثم أضافت : (من كان يظن أننا سنصاب بتلك الكارثة ؟ من كان يظن أنه سيأتي يوم نفقد فيه أرضنا ؟ ولكن كل شيء يعتمد على القدر ، ولا يعرف أحد ماذا يخبىء لنا القدر) .

قال زوجها : (كنا في الماضي نملك ٣٦ دونماً ، والآن ضاع كل شيء . صحيح أننا لم نكن سعداء تحت الحكم التركي أو البريطاني ، فقد كان الأتراك وحوشاً ، جعلونا نتضور جوعاً ، وكذلك كان حال البريطانيين . إذ كانوا يجبروننا على المسير لعدة أميال ونحن نحمل أكياس الرمل الثقيلة ، وفرضوا علينا الضرائب الباهظة ، حتى ان بعض الفلاحين اضطروا الى بيـع أراضيهم لدفـع الضرائب . ولكن مهما فعل الأتراك والبريطانيون الا أنهم لم يسرقوا أرضنا ووطننا ، اليهود فقط سرقوا أرضنا وأجبروا الناس على الرحيل عن وطنهم . لقد تشتت شعبنا ، فلدينا أقارب في لبنان وسوريا والخليج وحتى النرويج) .

قالت زوجته (الحياة اليوم قاسية ، انعدمت فيها السعادة والمودة ، وأصيب الناس بقلة الاحتمال والأنانية ، حتى أولادنا تعلموا الأنانية) .

ثم التفت العجوزان نحو (أم عماد) وأخذا يتكلمان عن بعض الأقارب . بعد أن غادرا دخلت (أم عماد) وابنتها الكبرى الى داخل المنزل ، وبقيت (فاطمة) في الشرفة ، فأطلقت زفرة عميقة وهي تقول: (لا يستطيع المسنون نسيان الماضي) .

وحدقت إلى الهضاب وأضافت : (على الرغم من أنني أعيش في كنف عائلتي ووسط أقاربي ، إلا أن الحياة يمكن أن تكون موحشة أحياناً . فلا أستطيع أن أشاطر المسنين احلامي وأفكاري لأنهم يعيشون في عالم مختلف ، وعندما يتسنى لي الاتصال مع أبناء جيلي ، أجد أن الكثير منهم لا يهتمون سوى بجمع المال أو الزواج . ربما كان (مروان) الشخص الوحيد القريب مني لقد عاد منذ فترة قريبة من هولندا والمانيا حيث قاموا بجولة لعرض مسرحيته ، وأتى لزيارتنا منذ يومين) .

كان (مروان) في القدس يحاول تنظيم جولة ثانية ، ولكن هذه المرة إلى إنجلترة .

قال (مروان) : (إن المسرحية التي انتهيت من كتابتها العام الماضي تم تمثيلها هنا ، وقمنا بعرضها منذ فترة قريبة في ألمانيا وهولندا ، وتدعى (الطيور) . تضم المسرحية ثلاث شخصيات : الصياد ـ الذي أقوم بتأدية دوره ـ وخادمه العجوز ، وشاب في مقتبل العمر . الصياد هو الشخص الظالم الذي لا يكتفي بقتل الطيور ، بل أي شخص يتجرأ على معارضته . أما الخادم العجوز فهو يذعن لطلبات الصياد مهما كانت ، فهو شخص سلبي ويملك عقلية الضحية . ويمثل الشاب الجيل الجديد الثائر . لاقت المسرحية نجاحاً منقطع النظير ، وتلقينا بعض الملاحظات النقدية البناءة منها :

[تعتبر مسرحية « الطيور » خرافة سياسية صريحة ـ وغامضة ـ في الوقت نفسه ... يبدو أن مسرح الحكواتي قد تفوق في تحقيق شيء توانى المسرح اليهودي في اسرائيل عن تحقيقه بشكل كبير وهو :الاستيلاء على عواطف جمهوره . ويتجلى بعمق التزام الممثلين العاطفي في انتاجهم الأخير للمسرحية الفلسطينية المبدعة « الطيور » . فنراهم وهم يغوصون عميقاً داخل انفسهم لتشكيل صلة بين تجربتهم الشخصية وأحداث المسرحية] .

(صحيفة الأمة ـ ١٩٨٨) .

[تعتبر مسرحية « الطيور » ـ وهي قصة رمزية عاطفية محفوفة بالثورة وارتباطها بالموضوع ـ مسرحية شعبية ومفروضة بالقوة كما هي الانتفاضة] .

(صحيفة الفجر ـ ١٩٨٨)

قال مروان : (لسوء الحظ لم يتحقق النجاح في مختلف المجالات، فبسبب انشغالي العام الماضي في المسرحية ، لم اكرس الوقت الكافي للنادي الثقافي في القرية . وعندما عدت من الخارج وجدت أن المدير الذي استخدمناه لم يقم بمهامه على الوجه الأكمل ، وقام أعضاء أحد الأحزاب السياسية باحتكار النادي وأرادوا فرض بصمتهم الخاصة على نشاطاته الثقافية . فقد سيطروا على سبيل المثال على مجموعة موسيقية قمنا بتشكيلها مسبقاً وأرادوا أن يطلقوا عليها اسما يجعلها تتطابق مع حزبهم . كذلك كنت قد أقنعت والدي بالسماح له ببناء منصة مكشوفة فوق قطعة من أرضه ، ولكنها تحولت أيضاً الى استعمالات سياسية ؛ وأراد اعضاء الحزب استخدامها لأغراضهم الخاصة . فوضحت لهم بأن الفكرة الرئيسية كانت ايجاد نادٍ ثقافي مستقل يفتح أبوابه أمام كل شخص ، ولا ينتسب الى أي حزب أو جماعة من الناس . حسناً ، اعتزم عاجلا العودة الى القرية لتسوية كافة الأمور ، وأنوي أيضاً تسليم إدارة شؤون النادي الى لجنة قوامها شبان من القرية ، وسأبقى المشرف العام .

من الضروري إيجاد نواد ومراكز ثقافية لتشجيع تطوير هويتنا ووعينا ، وإذا اصبحت هذه المراكز تابعة لأي حزب سياسي ، فانها تفقد عندئذٍ مظهرها الثقافي . يجب أن نناضل ضد تأثير الحضارة الاسرائيلية ، وإلا فاننا سنفقد تراثنا وهويتنا . وكما قلت في السابق ، لقد كافحت ضد ذلك التأثير ، ونجحت في التغلب عليه . في الواقع ، منذ حوالي أربع أو خمس سنوات مضت اتخذت قراراً جازماً بألا أستعمل كلمة عبرية واحدة عندما أتحدث اللغة العربية . وفي إحدى المناسبات ، كان اعضاء مسرح الحكواتي في اجتماع مع بعض اليهود المتطرفين الذين يتكلمون العبرية فقط ، فقررنا الاستعانة بشخص يترجم لنا من العبرية الى العربية ؛ علماً بأننا نجيد جميعاً اللغة العبرية . وبعد انتهاء الاجتماع، ذكر أحدنا كلمة باللغة العبرية ، فصعق اليهود من الدهشة ، وصاح احدهم : (يا إلهي ، إنكم برغم كل شيء عربنا نحن !) .

يختلف الآن نضالنا الى حد كبير عما كان عليه عام ١٩٤٨ ، فقد حدث تغيير هائل في مختلف الأمور منذ تلك الأيام . واجد أن بعض الفلسطينيين الخارج يعيشون في عالم حالم ، ويعتقدون ان الحياة هنا لم تتغير منذ عام ١٩٤٨ . يعيش خالي في لبنان ، وقد التقيت ابنه في اوربا ، واخبرني أن والده ما يزال يعتقد بأن مجد الكروم لم تتغير منذ عام ١٩٤٨ . ويحب ابن خالي هذا ان يستمع الى حكايات الماضي ، ولكنه يتطلع أيضاً الى المستقبل . ويعرف بأنه ربما لن يتمكن من العودة إطلاقاً الى مجد الكروم . لذا يبقى الخيار الآخر بالنسبة إليه إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة .

يعتبر بعض الفلسطينيين الذين يعيشون في الخارج أن حياة الفلاح رومانسية وحالمة ، إلا ان حياة الفلاح في الواقع قاسية وشاقة ولا نريد أن نعود الى مثل هذه الحياة ، أو الى التقاليد التي لم تعد تخدم قضيتنا . ولا نريد أن نعود الى عقلية الضحية . واشعر احياناً بغضب

شديد عندما اجد أن بعض الفلسطينيين في الخارج ، وخاصة المثقفين منهم ، يعتقدون أنهم يعرفون أكثر مما يعرف الناس الذين يعيشون هنا . فهم يحلمون بتحرير فلسطين ، الأمر الذي لم يعد واقعياً على الاطلاق ؛ فهم لا يعرفون الحقيقة ولا يريدون تقبلها) .

لقد عبر (مروان) عن ضجره من المسنين ومن الحالمين في شخصية الشاب التي رسمها في مسرحية « الطيور » .



الفصل الثامن

العامل الاجتماعي : أديب في يافا

(لقد أصبحت يافا أما للغريب ، فهي ترحب بـه وتطعمه ، في حين تهمل أبناءها وتتركهم يتضورون من الجوع) .

رياض (والد أديب)

تبعد مدينة يافا حوالي ٦٥ كم شمال غربي القـدس ، ويتألف سكانها من العرب واليهود . ويافا بخلاف عكا ، مدينة ممتدة في غير نظام ، وقد فقدت الابنية القديمة المتلاشية الوقار والجمال اللذين ما يزالان موجودان في عكا القديمة. في يافا يتغلب الملل من أسلوب الحياة المضطهد على كل ما كان جميلا ، ففصول الصيف المشبعة بالرطوبة الحارة تسبب الضجر ، وفي فصول الشتاء القارسة يسود تجهم مقيت .

يبلغ عدد السكان العرب في يافا ، وفق احدى الاحصائيات ١٠ر٠٠٠ نسمة ، في حين تذكر احصائية أخرى بأنه ١٨ر٠٠٠ نسمة . ويعيش العرب بشكل رئيسي في منطقتين : العجمي وجباليا . ويشكل الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين عاما حوالي ٦٧٪ مـن العدد الاجمالي ، وتعيش حوالي ٧٨٠ عائلة في أوضاع فقيرة ومكتظة .

وتعتبر المدينة جزءا من بلدية تل أبيب ، ويعتقد السكان العرب بأن البلدية تريد تحويل المناطق العربية الى يهودية ، كما ترغب بتحويـل الموانيء الى اماكن سياحية ، فتحرم الصيادين العرب من أسـباب

معيشتهم . ويقولون بأن سياسة الاهمال التي تتبعها السلطات تهدف الى جعل حياة الناس في تلك المنازل مستحيلة ، فيضطرون في النهاية الى الرحيـــل .

(أديب) شاب ممتلىء الجسم ، قصير القامة وقوي البنية ويبلغ السابعة والثلاثين من عمره ، متزوج وله ثلاثة اطفال : فتاة في العاشرة والنصف من عمرها ، وصبي في السابعة من عمره ، وطفلة في شهرها الثامن عشر . وهو عامل اجتماعي ، وعضو في جمعية عرب يافا ، وعضو ايضـــا في المركز الثقافي الذي يعتبر فرعا من الجمعيـــة ، ويقوم كذلـــك بتنظيم رحلات سياحية الى مصر . تبدأ ساعات عمله كعامل اجتماعي من ٧٫٣٠ صباحا وحتى ٣٫٣٠ بعد الظهر ، يعود بعدها الـــى المنزل لتناول طعام الغداء والراحة . ويذهب في حوالي الخامسة بعد الظهر الى المركز الثقافي ويبقى فيه حتى الثامنة مساء ، أو ربما أكثر ، حسب النشاطات اليومية . وهو شخص لطيف ويراعي مشاعر الآخريـــن الذين يتعامل معهم .

يعيش (أديب) في منطقة العجمي مع عائلته ووالديه في منزل قديم مبني على الطراز العربي كان فيما مضى فيلا واسعة يملكهـــا شخص فلسطيني غادر البلاد عام ١٩٤٨ . ومنذ ذلك الوقت تم تقسيم المنزل الى ثلاثة أقسام منفصلة، ومدخل مشترك، ويفصل بين كل قسم جدار. يشكل القسم الذي يعيش فيه (اديب) نصف المنزل ، ويضم ثـــلاث غرف ومطبخ وحمام . ويعيش والد أديب في ربع المنزل وتعيش عائلة غربية في الربع الآخر . وهناك حديقة أمامية محاطة بسياج يستعملها كل من (اديب) واهله .

كان (اديب) يجلس في الخارج هرباً من الجو الخـــانق داخل المنزل قال وهو يشرح وضع المنزل:

(نملك هذا المنزل بالاشتراك مع شركة حكومية كانت قد استولت على أملاك الغائبين ، ونعيش في منطقة العجمي منذ عام ١٩٧٠ ، وقبل ذلك كنا نقطن في منطقة أخرى،ولكن السلطات صادرت منزلنا وارغمتنا على الخروج منه ، كما فعلت مع سائر العرب ، والانتقال الى منطقتي العجمي وجباليا ، اللتين أصبحتا بشكل فعلي أحياء عربية) .

يدعى والد أديب (رياض) ، وهو رجل مرح ومفعم بالحيوية والنشاط،ويبلغ الثانية والسبعين من عمره. انتهى من عمله اليومي في دكان البقالة الذي يقع عند مدخل الحديقة ، فجلس بجوار ابنه وأصغى بانتباه . عندما انتهى (أديب) من حديثه ، قال رياض : (عندما تزوجت بنيت لنفسي منزلا يتألف من ثلاث غرف فوق أرض تعود ملكيتها لعائلة فلسطينية ، وكنت أدفع لهم بدل الايجار . وعندما استلم اليهود حكم صادروا الارض ودمروا منزلي ومنازل الكثير من العرب) .

قال (أديب) : (حتى عام ١٩٨٧ كانت سياسة البلدية تهدف الى تدمير المنازل في المناطق العربية ، بحجة أن الابنية متداعية والسكن فيها يشكل خطورة على ارواح قاطنيها . وبذلك تم تدمير العديد من المنازل ، ويرغبون بتدمير المزيد لفسح المجال أمام الابنية والشقق الفخمة التي يبنيها اليهود . وبالطبع لم تأخذ جميع هذه الخطط السكان العرب بعين الاعتبار . بل كان هدفهم المطلق طرد السكان العرب من يافا . في الواقع ، لقد قال رئيس مجلس البلدية بصراحة ودون تحفظ . بأنه لا يرى سببا لاستمرار وجود العرب في يافا ، ويجب حسب رأيه ، أن يذهبوا للعيش في اللد أو الرملة او المثلث. فأصدرت الجمعية مقالة نقدية شديدة اللهجة حول كلامه هذا ، مما اضطره للتراجع عن ملاحظاته .

ثم قامت الجمعية برفع دعوى في المحكمة ضد البلدية والمسؤولين عن تخطيط المدينة لايقافهم عن تدمير ما تبقى من المنازل العربية . وفي نهاية عام ١٩٨٧ أصدرت المحكمة قرارها لصالح الجمعية ، وأدركت السلطات

بأنها لن تستطيع اخراج العرب من يافا . فقد امضينا هنا حياتنا كلها وكذلك فعل آباؤونا واجدادنا من قبل . وأدركوا الان أننا غيرمستعدين للاستسلام لهم ، واننا سنتابع نضالنا للحصول على حقوقنا . وقد بذلت الجمعية مجهودا كبيرا لترميم المنازل العربية ، فلم تترك للبلدية عذرا لطرد العرب منها) .

انقطع حديث(أديب) بسبب وصول والدته (سامية) ، التي وضعت على الطاولة طبقا يحوي بعض المرطبات . (سامية) امرأة جذابة في الواحد والستين من عمرها،وتتمحور حياتها كلها حول عائلتها تابع (اديب) قائلا : (ومازال الجمعية تشجع العرب على عدم الاذعان لتهديد السلطات للرحيل ،يجب أن نشجعهم على النضال للحصول على حقوقهم) .

قال (رياض) : (كان العرب واليهود قبل عام ١٩٤٨ يصطدمون في مناوشات عرضية ، ولكننا بشكل عام كنا نعيش بسلام جنبا الى جنب . ثم قام البريطانيون بتدليك الجرح بالملح ، واضرموا النار بيننا . انظري الى الوضع السيء الذي نعيش فيه الآن ، لقد اصبحت يافا أما للغريب ، فهي ترحب به وتطعمه ، في حين تهمل أولادها وتتركهم يتضورون جوعا) . واشعل لفافة تبغ وحدق الى الأرض بحزن .

انضمت (سامية) الى الحديث وقالت : (اذكر كيف أنني اضطررت الى مغادرة يافا عام ١٩٤٨ ، كان عندي ولدان في ذلك الوقت،وطفلة في شهرها الرابع . بدأ الناس ينزحون عن المدينة ، فأرسلت ابني الكبير الى جدته لابيه ، وارسلت ابني الثاني الى والدتي ، ورفضت أن أترك زوجي وأرحل ، لذا بقيت الى جانبه مع طفلتي . ولكن عندما رحل جميع الجيران ، قال لي زوجي : (لا يمكنك البقاء هنا بعد الآن ، انا رجل واستطيع الاعتناء بنفسي ، ولكنك امرأة ومعك طفلة ويجب ان

ترحلي » لذا اضطررت الى الرحيل والتجأت الى والدي زوجي في « بير زيت » مسقط رأسه .

واغلقت السلطات جميع الطرقات والمعابر . ولم نتمكن انا وزوجي من رؤية بعضنا البعض سوى في عيد الميلاد ، ثم تمكن في نهاية الامر أن يرسل لي الوثائق اللازمة التي تمكنني من العودة . الا أن والده ، وهو خالي أيضا ، رفض أن يسمح لي بالعودة لانه كان قد سمع عن الاعمال الوحشية التي كان يرتكبها اليهود ضد العرب.وحدث ان مدير الصليب الاحمر كان صديقا لشقيقي ، فأقنع خالي بعودتي واعدا اياه بأنه سيضمن شخصيا وصولي سالمة . وهكذا غادرت مع ولدي ، اذ كانت ابنتي قد توفيت أثناء اقامتي في « بير زيت » . كان هناك خمس حافلات ممتلئة بالعائلات العائدة الى يافا ، وفي الطريق توقفنا وقطفنا الازهار وقمنا بتزين الحافلات احتفالا بعودتنا .

وعندما استقرت بي الاقامة في يافا ، كان يسكن بجواري يهود من المغرب والعراق وبولونيا وكنت ودودة معهم ، الا أن الاولاد كانوا يتخاصمون على الدوام. فكان الصبية اليهود يقولون لاولادي : «اذهبوا الى الاردن ، هذا ليس بلدكم ، بل بلدنا نحن » . فكان يجيبه احد ابنائي ، ويدعى « ميشيل كان ذكيا جدا وقوي البنية » لا ، نحن العرب نعيش دائما هنا ، وهذه أرضنا ، أنتم الذين يجب أن تعودوا من حيث أتيتم » . وفي مرة أخرى كان ابني « ميشيل » يلعب مع فتى يهودي مغربي خارج المنزل ، فاذا الاخير يصيح في وجه « ميشيل » : « أيها العربي القذر ! » فهجم عليه « ميشيل » واخذ يوسعه ضربا . فاندفعت والدة الفتى اليهودي لتوقفه ، ثم نادتني وبدأت تكيل لي الاهانات . فلم أنبس ببنت شفة ، ووقفت في صمت مطبق ، الأمر الذي جعلها تستشيط غضبا ، وأخذت تصيح : « ولا ترغبين أيضاً في إجابتي ! » فأجبتها بهدوء : « يا جارتي ، لمَ لا ترافقينني الى المنزل لنتناول فنجاناً من القهوة سوية . إنهم أطفالٌ ، ولكننا راشدون ، ونحن إخوة

ويجدر بنا الا نتخاصم سوية » . ثم تقدمت منها وقبلتها ، فرافقتني الى شقتي وتناولنا القهوة سوياً . واذكر أنها عندما انتقلت من منزلها ، قالت لي : « أنت افضل جارة التقيتها في حياتي ، سامحيني للتصرفات السيئة التي بدرت مني ») .

قال (رياض) معلقاً : (عندمـــا عملت كمراقب للحمولة في الميناء حتى عام ١٩٧٢ ، كنت على علاقة طيبة مع كافة زملائي اليهود) .

قالت زوجته بلهجة حزينة : (نعم ، كانوا يقومون بزيارتنا علـــى الدوام ، ويحضرون حفلة تعميد اطفالنا ، ويتناولون العشاء معنـــا . وحاولت أن أعلم أطفالي الخمسة على عدم التمييز بين العرب واليهود ؛ وكنت أخبرهم دائماً باننا جميعاً اخوة واخـــوات ، ويجب أن نعيش سوية بسلام . لم يخطر في بالنا إطلاقـــاً أن يؤول الوضع الى ما هـــو عليه اليوم) .

انضمت (نورا) زوجة (اديب) الى العائلة ، وقالت وهي تطلق زفرة عميقة قبل أن تجلس : (لقد استسلمت أخيراً للنوم) . كانت (نورا) منشغلة بترتيب المنزل ، وبوضع ابنتها ذات الثمانية عشر شهراً في سريرها لتأخذ قيلولة الظهيرة ، وجلست ابنتها (عبلة) ، التي كانت تساعدها ، الى جانبها .

تابع (اديب) المحادثة : (كان معظم من بقي في يافا من الفقـــراء والجاهلين ، والقلة القليلة المثقفة التي لم تغادر يافا كانت تخشى كثيراً من التكلم أو المطالبة بحقوقهم كفلسطينيين . ونشأنا نحن على الخوف من السلطات لا انتقادها ، ولم نكن نتلقى التشجيع على المشاركة على الصعيد السياسي أو حتى يُسمح لنا بذلك) .

اجاب والده بلهجة دفاعية : (لقد ناضل الجيل السابق أيضاً كما تعرف ، فقاموا بإضرابات وشاركوا في المظاهـــرات . انا شخصياً لم

أشارك في أي من هذه النشاطات ، ولكنني كنت عضواً في حزب المابام حتى عام ١٩٥٠) .

تبع ذلك فترة من الصمت ، لم يعكره سوى ضجيج الأولاد وهم يلعبون في الشارع .

(نورا) امرأة في الثلاثين من عمرها ، نشيطة جداً واجتماعية ، وهي تدرّس اللغة العربية في مدرسة « الأخوة » . بادرت الى قطع الصمت بقولها : (عندما كنت صغيرة في المدرسة ، لم يعلمونا أي شيء عن قضيتنا أو تاريخنا ، وفي المنزل أيضاً لم يكن اهلنا يتكلمون عن قضيتنا ؛ إذ كان الجميع يشعرون بفزع شديد ، أنا شخصياً عشت حياة سعيدة، جاهلة تماماً كل ما كان يحدث حولي ؛ ثم عندما أنهيت المدرسة وبدأت دورة تأهيل المعلمات ، بدأت الاحظ مظاهر البؤس والظلم والتمييز . فأخذت أولي مزيداً من الاهتمام الى الصحف ، وأصغي الى مناقشات الناس السياسية ، وأطالع الكتب التي تتحدث عن تاريخنا ؛ وهكذا نمى وعيّ . وكان لأديب أيضاً دور كبير في تنمية وعيّ ، إن ابنتي « عبلة » اليوم اكثر وعياً مني عندما كنت في مثل سنها) .

دهشت (عبلة) لأن والدتها عندما كانت في العاشرة من عمرها كانت تجهل كل شيء عن القضية الفلسطينية ، وقالت : (أنا واعية تماماً لهويتي ، ليس من خلال والديّ فقط ، بل من خلال اتصالي مع الناس في الجمعية والمركز الثقافي حيث أتردد للمشاركة في النشاطات المختلفة، وأصغي كذلك الى الأخبار واقرأ صحيفة الاتحاد . وفي المدرسة كذلك تحدثنا إحدى المعلمات عن هويتنا وتاريخنا الفلسطيني ، وأنا فخورة بهويتي) .

قالت (نورا) : (تتراوح اعمار تلاميذي بين العاشرة والرابعة عشر عاما ، ويشكل العرب نسبة ٩٥ ٪ من عدد التلاميذ ، ويشكل ليهود ٥ ٪ فقط . ويعتبر الطلاب العرب اكثر وعياً لهويتهم ولقضيتهم من

ابناء جيلي عندما كانوا في مثل سنهم ، ولكن أيضاً يختلف المعلمون اليوم اختلافاً كبيراً عن المعلمين الذين كانوا في مدارسنا . وعلى الرغم من أن معظم المدرسين في المدرسة التي أعمل بها هم من اليهود ، إلا أن هـذا لا يمنع المعلمين العرب من نشر الوعي بين الطلاب . فأنا أدرسهم ، على سبيل المثال ، عن بعض الكتاب الفلسطينيين ، وأرفض الاحتفال بيوم الاستقلال ، وكذلك أرفض العمل في ذكرى يوم الأرض . وعندما يقوم اليهود بإحياء ذكرى أولئك الذين لقوا حتفهم في الحروب ، يتوجب على الطلاب العرب أن يقفوا الى جانب زملائهم اليهود داخل الصف ؛ لذلك أقـول لطلابي العرب أن يفكـروا أثناء وقوفهـم بأولئك الذين استشهدوا في الانتفاضة . ومرة سأل طالب في العاشرة من عمره : (لماذا نقف من أجل اليهود ، وهم لا يقفون من أجلنا في ذكرى يوم الأرض ؟) في أيامنا لم يكن احد يجرؤ على طرح مثل هذا السؤال) .

قال (أديب) : (عندما ذهبت الى المدرسة كان الأمر مختلفاً ، إذ كان يشرف على مدرستي الابتدائية في يافا قساوسة ؛ وكانت اللغـة الفرنسية هي لغة التدريس الرئيسية ، أما اللغة العربية فكانت اللغـة الثانية . وعندما اصبحت في الثانية عشر من عمري بدأت أعي هويتي العربية ، وشعرت بأنني أفتقـد الى لغتي الأم ، لذلك أقنعت والدي بإرسالي الى مدرسة في « الناصرة » لمدة سنتين ؛ وكانت « الناصرة » تعتبر مركز القومية العربية الفلسطينية . عدت بعد ذلك الى يافا حيث أنهيت دراستي الثانوية ، ثم التحقت بدورة لتأهيل المعلمين ، ودرّست لمدة عام في دير للفتيات .

وكان لي أيضاً نشاطات في مجال الكشافة ، فاتصلت نتيجة لذلك مع كثير من العائلات واطلعت بنفسي على المشاكل السياسية والاجتماعية والثقافية الكبيرة التي كان يواجهها الفلسطينيون في يافا . فأردت القيام بشيء حيال ذلك ومساعدة أهلي ، لذا قررت دراسة العمل الاجتماعي في الجامعة . كنت في ذلك الوقت الطالب العربي الوحيد الذي يتخصص في مجال العمل الاجتماعي ، وكان الباقي من اليهود . وكانت لي بعض

الاتصالات مع عدد من الطلاب اليهود اليساريين ، ولكنها لم تبلغ حد الصداقة ، لأنني شعرت بأنني غير مقبول بشكل كامل . اشتركت في بعض النشاطات الطلابية ، وتعرفت على بعض الطلاب العرب من المثلث والجليل ، وكانوا ، من الناحية السياسية ، أكثر وعياً من عرب يافا . ففي الجامعة اتخذ وعيّ السياسي ، وبشكل فعلي ، قوة وبعداً أكبر .

بعد الجامعة قمت بالتدريس لفترة وجيزة في دير « تيراسانتا » في يافا ، وأصبحت أيضاً رئيساً لفريق شباب الكشافة . ثم جرت حادثة كان لها الأثر الكبير في تعزيز الالتزام السياسي والاجتماعي الذي أشعر به تجاه قومي : ففي انتخابات عام ١٩٧٧ ، طلب مني الرئيس العام للكشافة ومدير المدرسة وغيرهم من كبار المسؤولين في يافا ، القيام بتنظيم فريق الكشافة للترحيب بوزير الشؤون الخارجية آنذاك (إيغال آلون) ، الذي كان يعتزم القيام بجولة في يافا لصالح حزب العمل . فرفضت ذلك قائلاً بأنه قد مضت أربع سنوات وهو في منصبه ، ولم يقم بزيارة واحدة الى يافا للاطلاع على حالة الفلسطينيين ؛ وقلت لهم إنني لا أرى سبباً واحداً يدعو الى الترحيب به لمجرد أنه يريد القيام بحملة لصالح حزبه وكسب الأصوات العربية . فطلب المسؤولون من فريق الكشافة استقباله بأية طريقة كانت ، دون أخذ موقفي بعين الاعتبار ، ولكنني أقنعتهم بعدم تنفيذ الأوامر . وأوضحت لهم أنهم ، بالترحيب به ، يكونون قد تغاضوا عن السياسات التي تمارسها الدولة إزاء الفلسطينيين . وانتهى الأمر الى القيام بمظاهرة ضد (آلون) أدت الى طردي من المدرسة ومن فريق الكشافة معاً .

لم أغضب في الحقيقة لتلك النهاية ، لأنني بدأت العمل في (مكتب الشؤون الاجتماعية) ، وكان ذلك أفضل بالنسبة لي لأن هذا يعني فسح المجال امامي للاهتمام بصالح قومي ، إذ كانت المدرسة التي كنت ادرّس فيها متعصبة طائفياً الى حد كبير . يتركز عملي الجديد على الحديث مع العائلات عن عدد من المشاكل مثل : الإدمان على المخدرات ، المفاسد الناشئة ضمن العائلة ، التهرب عن الذهاب الى المدرسة

والانحراف . وأحاول أن التمس السبل السليمة لتسوية مشاكلهم عن طريق الرعاية ، والنوادي الشبابية ، أو مراكز العلاج النفسي للمدمنين على المخدرات ، وما الى ذلك) . قطع الحديث انبعاث أصوات مرتفعة وغاضبة من مكان ما ، هزّ (أديب) رأسه وقال : (إنهم جيراننا في الطرف المقابل ، وهم مثالٌ جيدٌ عن مشكلة كبيرة جداً نعاني منها هنا وهي الإدمان على المخدرات . فقد توفي الأب بسبب الإدمان على الكحول، وتعمل الأم لوقت جزئي خارج المنزل ، ولديها خمسة عشر ولداً : ثمانية شبان ، وسبع فتيات ، وقد بلغ عدد المدمنين على المخدرات حتى الآن ستة شبان من أصل ثمانية ، بالإضافة الى زوج إحدى بناتها . وانتهى الأمر بثلاثة من أولادها الى السجن ، بعد أن وشى بهم أحد إخوتهم ولاذ بالفرار . فالشروط السكنية السيئة ، والبطالة واليأس ، كل ذلك دفع المراهقين والشبان الى الإدمان على المخدرات كوسيلة للهروب من الواقع . وتقول التقديرات إن حوالي ثلث السكان العرب في يافا يتعاطون المخدرات : الكوكائين والهيروئين بشكل رئيسي ، وهم يرتكبون الجرائم من أجل تمويل إدمانهم . وتقوم البلدية بعلاج المدمنين الذين تتجاوز أعمارهم الثمانية عشر عاماً ، فعندما يثبت الطبيب حالة الإدمان لديهم ، يعطون عقاقير كيميائية كحل بديل ، ولكنها لا تفيدهم شيئاً في الواقع لأنهم ينتهون الى الإدمان عليها) .

نظر الى ساعة يده وأطرق ملياً وقال : (هيا ، لنذهب ونزور الجيران) .

عندما قرع (أديب) الجرس ، خمدت الأصوات المتعالية من الداخل ؛ فقرعه ثانية ، فصدر صوت أشخاص ينطلقون مسرعين ، ثم علا صوت امرأة تتساءل : (من الطارق ؟) .

ـ (انا أديب) .

ففتحت الباب ورحبت به .

سأل أديب : (هل عارف موجود ؟) .

ــ (نعــم) .

كانت تلف المنزل ظلمة تقبض الصدر ، ظهر (عارف) ، كان شاباً في بداية العقد الثاني من عمره ، نحيل الجسم ، شاحب الوجه ؛ وقد وضع حول عنقه سلسلتين ذهبيتين . قال معتذراً عن الظلمــة التي تغلف المكان :

(لم نفتح كافة النوافذ في المنزل لأن بعض إخوتي ما يزالون نائمين).

سأله (أديب) عن صحته ، وعما إذا كان إخوته الثلاثة ما يزالون في السجن .

أجاب (عارف) : (نعم ، إنهم في السجن) .

ــ (آمل أنك لم تبدأ بتناول المخدرات أيضاً) .

هزّ (عارف) رأسه بتحدٍ وهو يقول : (لا ، مطلقاً . لقد تمكن إخوتي الأكبر سناً من إقناع إخوتي الصغار بتناول المخدرات ، ولكنني رفضت الإذعــان لهم لأنني رأيت مــاذا فعلت بهم المخــدرات . إنهم لا يستحقون اللوم بشكل كامل ، فقد كان والدي مدمناً على الكحول وكان يوسعنا ضرباً على الدوام ، ولم يهتم بتعليمنا . فقد تركت المدرسة عندما وصلت الى الصف السادس ، وعملت عند صانع أحذية ، إلا أنني اضطررت بعد ذلك الى ترك العمل بسبب سوء حالتي الصحية .

وهكذا يلجــأ كثيرون من الناس الى تناول المخــدرات بدافع من اليأس ، إذْ يتلقى الفلسطينيون معاملة جائرة من اليهود ؛ فلا أحد يهتم بنا ولا أحد يهتم بأحد . ولكن لدي الآن بارقة من الأمل بسبب الانتفاضة القائمة في الضفة الغربية وغزة،والتي جعلتني أخيراً اشعر بالفخر بأن أكون

فلسطينياً ، وأنا أساندهم بشكل كامل . وعلى الرغم من وعي إخوتي لهويتهم الفلسطينية ، ويعود السبب في الأغلب الى طريقة معاملة اليهود لهم ، إلا أنهم غارقون تماماً في إدمانهم الى حد لا يمكنهم من الاهتمام بما يحدث في الضفة الغربية وغزة . ربما يفيقون في يوم من الأيام) .

تلا ذلك صمت قلق ، وظهر عند الباب شاب في ملابس النوم يجرّ قدميه متثاقلاً . بقي (عارف) هادئاً ، وقال (أديب) بأنه قد حان الوقت للذهاب .

يدعى الجار الآخر الذي قمنا بزيارته (رامي) ، ويقع منزله بعد عدد من المنازل الى أسفل الطريق . ويبلغ الخامسة والأربعين من عمره ، متزوج ولديه أربعة أطفال .

سأله أديب : (أما زلت عاجزاً عن الحصول على عمل ؟) .

هزّ (رامي) رأسه وقال موضحاً : (كنت أعمل مراقباً في مصنع للأحذية ، حيث أقوم بالإشراف على العمل واضفاء اللمسات الأخيرة على الأحذية . ولكنني فقدت عملي بسبب ادماني على المخدرات ، التي بدأت بتعاطيها لتساعدني على التغلب على وضعنا الاجتماعي والسياسي السيء . في الماضي ، وعلى الرغم مما كان يفعله اليهود معنا ، إلا أننا تعلمنا كيف نعيش الى جوارهم ؛ فعملنا معهم وعقدنا معهم كذلك بعض العلاقات الاجتماعية . ولكن كان عندنا عقدة أيضاً : كنا نخجل من حقيقة اننا فلسيطينيون ، ولم نكن نتحدث عن ذلك إطلاقاً . ثم عندما استلم (ناصر) ، منحنا القوة وشعرنا بالفخر لأننا عرب . وبعد حرب ١٩٦٧ بدأ اليهود يعاملوننا باحتقار : فكانوا يوجهون إلينا الإهانات ، وينهالون علينا بالضرب ويسخرون منا ومن الجيش المصري ، ومن العرب ككل . سبب لنا ذلك صدمة كبيرة ، وشعرت بألم عميق دفعني الى قضاء معظم وقتي في المقاهي حيث بدأت بتعاطي المخدرات

لأغرق فيها أحزاني . تعاطيت مادة الأفيون مدة ثلاث سنوات ، ولم أعرف بأنني أصبحت مدمناً حتى سجنت ؛ وعندما أطلق سراحي تعاطيت الهيروئين مدة خمس سنوات ، وفقدت عملي أثناء ذلك . لذلك ولكي أحصل على المال لشراء المخدرات ، تحولت الى مروج لها ، وعندما أدركت مدى الألم الذي أسببه لعائلتي ، قررت أن أفعل شيئاً إزاء إدماني هذا . فالتجأت الى مركز طبي لليهود ، إذ لا يوجد مراكز عربية ، حيث قدموا لي عقاقير كيميائية كبديل عن المخدرات . ولكنني في الواقع لم أشفى ، لأنني أصبحت الآن مدمناً على ذلك العقار ، وربما سأبقى على هذه الحال طوال حياتي ، لم أمارس أي عمل طيلة إحدى عشر عاماً ، وأعيش معتمداً على الضمان الاجتماعي .

قبل عام ١٩٦٧ ، كان عدد المدمنين على المخدرات قليل جداً ، ولكن بعد عام ١٩٦٧ ظهر المروجون بشكل علني ؛ ولم تحرك السلطات ساكناً لأننا عرب ، وما يحدث لنا لا يعنيهم لا من قريب ولا من بعيد . أما الآن فقد زاد عدد المدمنين ، ففي الماضي كان الشباب يبدؤون بتعاطي المخدرات في سن العشرين ؛ أما اليوم فمنهم من يبدأ في سن الثالثة عشر . أما الأسباب التي تدعوهم الى ذلك فهي : مستقبل بدون عمل ، سياسة التمييز ، عدم المساواة ، والشروط العائلية والمنزلية السيئة . ويعي جميع هؤلاء الأحداث تماماً بأنهم فلسطينيون ، لأن نتائج هذه الحقيقة هي التي دفعت بهم الى الإدمان ؛ فهم لا يخجلون ، على خلاف أبناء جيلي ، من كونهم فلسطينيون ، إلا أن البعض منهم غارقون في المخدرات ولا يفكرون بشيء آخر ، وأصبحت عقولهم فريسة لتلك السموم فلا يفكرون بلغة الحرية ، أو النضال من أجل حقوقهم .

على أية حال ، لقد فجرت الانتفاضة بعض مشاعر الفخر والأمل ، وعندما قمنا بمظاهرة تأييد الضفة الغربية وغزة في ٢١ كانون الثاني عام ١٩٦٧ ، شعر اليهود بالخوف لأنهم لم يشاهدونا من قبل نحن الفلسطينيون في يافا نتظاهر من أجل قضيتنا .

عندما عدنا الى المنزل قال (أديب) : (هذا محزن" جداً ، ولكن أحياناً ، وللسخرية ، ينجم عن شقاء إحدى العائلات سـعادة عائلة أخرى . فمن الحالات التي اعالجها ، هناك عائلة تتألف من اب وأم وخمسة أطفال ، كان الأب مدمناً على المخدرات ، وقد اجبر ابنه البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً على العمل وكسب المال ليوفر ثمن المخدرات . فأصيب الابن بصدمة كهربائية اثناء العمل وقتل على الفور ، فما كان من الأب ، الذي كان في ذلك الوقت مالكاًلمنزله ، إلا أن باع إحدى الغرف في المنزل وانفق المال كله على شراء المخدرات .

ثم أقنع زوجته بضرورة بيع المنزل بأكمله ومغادرة يافا ، إذ انها الطريقة الوحيدة التي تمكنه من النجاة من عالم المخدرات . وأخبرها بأنهم سيذهبون الى (بئر السبع) ، مسقط رأسه ، وهناك سيشتري قطعة أرض ويبني عليها منزلا" جديداً . كانت زوجته في سن الخامسة عشر عندما تزوجها ، لذا نجح في تدريبها على طاعته طاعـة عمياء . وهكذا بِيعَ المنزل مقابل مبلغ يعادل ٢٠,٠٠٠ دولار ، وكان من المفترض ان ينتقل إليه المالكون الجدد خلال شهرين .

دفع جزءاً من المبلغ لقاء ديون قام بتسديدها الى المصرف ، وانفق ما تبقى على المخدرات وبالتالي تبخر الحلـم ببـدء حياة جـديدة في (بئر السبع) . وساءت العلاقة بينه وبين زوجته الى الحد الذي لم يمنعه من ضربها بوحشية . وفي يوم من الأيام ، استيقظت على الواقع المر" ، والذي لا يقتصر فقط على أنه يصبح كل يوم أكثر عنفاً ، بـل أيضاً بأنهم سيصبحون عائلة معدمة خلال شهرين فقط . فاستجمعت أخيراً ما تبقى من شجاعتها وأتت لمقابلتي . لا يستطيع المكتب أن يتدخل مباشرة في أزمة عائلية ما ، فهنالك وكالة إسكان حكومية تعالج مثل تلك الأزمات ، ولكن من الناحية القانونية لا يحق لهذه العائلة الحصول على المساعدة المالية من الوكالة ؛ فبعد أن قاموا ببيع منزلهم فقدوا الحق بشراء منزل آخر عن طريق الوكالة . وكان البديل الآخر الحصول على

قرض من المصرف ، ولكن لم يكن وضعهم يسمح بذلك أيضاً . تلك هي العقبات التي لم اتمكن من تذليلها ، ولكن بعد كثير من النقاش والجدل ، تمكنت من إقناع رؤسائي في المكتب بتقديم مساعدة ماليــة الى تلك العائلة لاستئجار منزل يأويها ، ولمدة عام واحد فقط بعد التمكن من تذليل أزمة السكن الملحة ، ركزت بعد ذلك على العلاقة بـين أفراد العائلة . فأُرسلَ اثنان من الأبناء الى مدرسة داخلية في الجليل ، وأُلحق الآخرون بمدرسة في يافا . وأمضيت جلسات طويلة مع الأبوين، وحاولت إقناع الأب باللجوء الى مركز طبي لمعالجة الإدمان؛ فوعد بذلك ولكنه لم يفِ بوعده ، بعد انقضاء العام ، حاولنا بمساعدة الجمعية الحصول على قرض أو إعانة مالية سكنية من وزارة الإسكان ، ولكنهم رفضوا رفضاً باتاً . وقالوا بأن هذه العائلة قد فقدت كامل حقوقها في الحصول على مساعدة للسكن ، ومنها أيضاً المســاعدة التي كانوا يحصلون عليها لاستئجار منزل .

ولم يتبق امامهم سوى حل وحيد وهو وضع اليد على منزل لمالك غائب كانت السلطات قد أهملته وأعلنته غير آمن للسكن . عاشــوا فيه لفترة من الزمن ، حتى قامت الشرطة بإخلائهم ، ولكنهم سرعان ماانتقلوا إلى منزل آخر ذي حالة مشابهة . وبعد مدة قصيرة من انتقالهم إليه ، اضطرت الزوجة لاستدعاء رجال الشرطة بسبب معاملة زوجها العنيفة معها . فأمرته المحكمة بعد ذلك بالابتعاد عنها وعدم العيش معها ، وأراد رجال الشرطة إخلاءها من المنزل ، ولكنهم أشفقوا عليها بسبب حالتها التعيسة وسمحوا لها بالبقاء فيه . وقدمت لها الجمعية يد المساعدة في ترميم بعض اجزاء المنزل المخربة ، وبدات تعيش حياة جديدة ، ولكنها لسوء الحظ لم تدم طويلا .

فهي تنتمي إلى عائلة محافظة في غزة ، وعندما تناهى إلى مسامع شقيقها بأنها تعيش بمفردها ، على الرغم من وجود بعض أولادها معها ، اتى على الفور لرؤيتها وأخبرها بأنها بذلك تسيء الى سمعة العائلة .

حاولت إقناعه بأن يدعها وشأنها تعيش حياتها ، ولكنه لم يصغ إلى حديثي ، وطرح امامها حلين لاثالث لهما : إما أن تستعيد زوجها وتذعن لقدرها ، أو أن تعود الى غزة وتعيش مع عائلتها .

لم أستطع بالطبع اتخاذ القرار بالنيابة عنها ، ولكنني ناقشت معها الحجج المؤيدة والمعارضة لكل اقتراح ، وفي النهاية عادت إلى غزة بسبب الضغوط المتزايدة من حولها . ولكن السعادة تملصت منها هناك أيضاً : فقد عاملتها عائلتها ، وخاصة شقيقها ، معاملة سيئة ، وأجبروها على العمل كخادمة في المنزل . وبعد فترة وجيزة لم تعد تطيق صبراً ، فعادت إلى يافا ، أما زوجها ، الذي قضى في السجن فترة لابأس بها بسبب تعاطي المخدرات ، ينتقل الآن من مدينة إلى أخرى ، وهو في حالة فقر مدقع .

ويتجلى الجانب الإيجابي في هذه الحالة بأنها شجعت العائلات الأخرى التي تعاني من صعوبات سكنية على وضع اليد على منازل تعود ملكيتها للغائبين ، وكانت السلطات قد اهملتها وأعلنت انها غير آمنة للسكن ، في الواقع لايوجد هنالك خطر من السكن فيها ، بل تهدف السلطات الى تدميرها وبناء شقق جديدة لليهود . تمكنت ثلاثون عائلة حتى الآن من حل مشاكلهم السكنية عن طريق وضع اليد ، ويقول القانون بأن العائلة التي تضع يدها على شقة ما وتبقى فيها أكثر من شهر واحد ، لايحق للسلطات إخلاؤها بالقوة دون اللجوء إلى القضاء . وتستغرق الدعوى القضائية أشهراً طويلة ، لذا يتم التوصل إلى تسوية ويسمح للعائلات بالبقاء في تلك المنازل شريطة أن يدفعوا بدل إيجار شهري .

أشعر أحياناً باليأس بسبب تلك العقبات التي تضعها السلطات ، والسياسات الجائرة التي تمارسها ضد الفلسطينيين . هل تعرفين أن مايقدمونه لنا من أجل الخدمات الاجتماعية في منطقة العجمي لايغطي ٥٪ من حاجاتنا ؟ اتساءل أحياناً إذا كان باستطاعتي التغلب على كافة

العقبات ؟ وهل سأستطيع أن اغير شيئاً ؟ تدفعني تلك الأسئلة إلى فكرة التخلي عن كل شيء ، ولكنني أعود وأقول لنفسي : إذا تخلينا عن كل شيء ، كيف يمكن أن نحقق تقدماً ؟

أجد أن العمل الطوعي الذي اقوم به في الجمعية وفي المركز الثقافي أكثر جزاءً نوعاً ما ، إذ لايكفي أن أحاول حل مشاكل قومي ضمن حدود مهنتي ، بل يجب أيضاً أن أشارك في نشاطات المؤسسات غير الحكومية لتنمية الوعي الثقافي والسياسي والاجتماعي لقومي) .

قفز (أديب) وهو ينظر إلى ساعة يده وقال : (يجب ان اذهب الآن إلى المركز) .

يقع المركز على مسيرة خمس دقائق من منزل اديب ، يوجد عند البوابة الأمامية درجاً يؤدي إلى شرفة واسعة ، وهنالك مدخل كبير ، يستعمل قسم منه كمكتبة ، ويوجد غرفة واسعة تستخدم للمؤتمرات والاجتماعات . وهناك أيضاً غرفتان لرياض الأطفال ، بالإضافة إلى مكتبين .

قال أديب موضحاً : (تأسس مركز يافا الثقافي العربي عام ١٩٨٧، ويتألف من تسعة أعضاء ، وهو جزء من جمعية عرب يافا ، من المشاكل التي واجهناها في بدايتنا عدم اشتراك الناس معنا خوفاً من عقاب السلطات ، بيد أننا تغلبنا على هذه المشكلة ، ويجتذب المركز الآن العديد من الشبان أقضي فترة بعد الظهر من كل يوم في المركز ، ومن أهدافنا الرئيسة تطوير الوعي الثقافي والسياسي والاجتماعي والحضاري لدى الشبان بشكل خاص . ونقوم بإلقاء محاضرات حول الحضارة والتاريخ والتراث الفلسطيني ، ونقدم دروساً إضافية لطلاب المدرسة الابتدائية ، وهنالك مكتبة . ونجحنا أيضاً في إقناع النوادي الاسلامية والمسيحية بتنسيق الوسائل فيما بينها ومساعدتنا في رياض الأطفال . وقدم لنا مركز دار الطفل في عكا النصيحة اللازمة ، وتمكنا من توظيف معلمين

مؤهلين . ويوجد في كل صف خمسة عشر طفلاً ، ويبدأ الدوام من السابعة والنصف صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر . ونولي الافضلية لأطفال الأمهات العاملات ، اذ يدفعون ٦٥ جنيه لقاء عشرة أشهر ، ولكننا نعلمهم في الواقع مدة إحدى عشر شهراً ، وندفع للمعلمين رواتب عن سنة كاملة .

وهنالك لجنة من الشبان يساعدنا أفرادها على أساس طوعي في ترميم الابنية القديمة ، ويذهبون ايضاً إلى المناطق الريفية لزيارة القرى العربية والمشاركة في المخيمات الصيفية ، حيث يقدموا المساعدة اللازمة لتحسين حالة الطرق وطلي الجدران وغيرها من الاعمال ، ونظهر للسلطات ، بإقامتنا المعسكرات الصيفية ، اننا قادرون على الاعتناء بأنفسنا ولا نحتاج الاعتماد عليهم . ونريد ايضاً افتتاح مركز عربي لمعالجة المدمنين على المخدرات لأن المعاهد اليهودية ترفض استقبال الأحداث العرب : بحجة أن تقاليدنا وطريقة حياتنا تختلف عن تقاليد اليهود وطريقة حياتهم . ولكن هذا الأمر ليس بالمهمة السهلة ، فإلى جانب أنه يتطلب مبلغاً كبيراً من المال : فهو يحتاج ايضاً إلى مشرفين مؤهلين ومتفانين في عملهم) .

استدعي (أديب) لتقديم المساعدة في تسوية بعض المشاكل الادارية .

حلّ لظلام في الخارج ، وغمر المدينة هواء مشبع بالرطوبة ؛ ولم يكن هناك موجة واحدة تعكر سكون البحر . وكانت السيارات تنطلق بضجر ، والناس يسيرون بتكاسل .

في المنزل كان الاطفال يراقبون التلفاز ، وتحضر (نورا) طعام العشاء .

قالت (نورا) : (أديب مشغول على الدوام ، أرغب احياناً بزيارة بعض الصديقات ، ولكنني لا أريد أن أطلب من عمي وزوجة عمي (والدي

أديب) الاعتناء بالأطفال . إنهما على استعداد تام للقيام بذلك ، واحياناً اطلب منهما ذلك ، ولكنني لا أحب أن أفرض أولادي عليهما ، بل أفضل أن يقوم (أديب) بتلك المهمة ، التي تصادف على أية حال مرة واحدة في الشهر . فهو يعطي الأولوية لعملة قبل واجباته المنزلية لأنه يشعر بأنني موجودة ، مع والديه ، في المنزل لتلبية المتطلبات والالتزامات الضرورية) .

دخل والدا (أديب) ، وبعد فترة قصيرة وصل (أديب) من عمله . قالت له (نورا) : (إنك تبذل جهداً كبيراً في عملك) .

أجاب (أديب) : يجب أن أقوم بعملي على أكمل وجه ، وإلا فلا داعي للقيام به على الاطلاق . لقد اقترب موعد بدء المعسكرات الصيفية ويجب أن نتأكد من تنظيمها الجيد . يشتمل العمل في المركز وفي الجمعية على نضال مستمر ضد السلطات ، التي تتهمنا بالقيام بنشاط تخريبي ، وبأننا نقوم بعملية غسل دماغ للشبان وشحنها بأفكار مناهضة لاسرائيل . ويتهموننا أيضاً بالحصول على أموال من منظمة التحرير الفلسطينية ، وهذا بالطبع غير صحيح ، تخشى السلطات من المؤسسات اللاحكومية واللاطائفية ، كمؤسساتنا ، لأنها تصل الى عدد كبير ومتنوع من الناس ؛ ونحن لا نخشى ، على عكس النوادي الدينية ، من انتقاد السلطات ومقاومتها) .

قالت والدة أديب : (يختلف جيل اليوم عن ابناء جيلنا السابق) .

وافق زوجها على كلامها وتابع الحديث : (نعم ، ولا يقتصر الاختلاف فقط في أسلوب نضالهم من أجل الحصول على حقوقهم ، بل يمتد أيضا الى سلوكهم في الحياة اليومية . كنا نحترم كبار السن ، ولكن اليوم ، إذا قمت بتوجيه نصيحة الى فتى في الخامسة من عمره ، فإنه ينظر إليّ ثم يقول : « هذا ليس من شأنك ! » واليوم بدلا من أن يساعد الشبان عجوزاً يعبر الشارع ، فإنهم يضحكون منه ويحتقرونه ويوجهون إليه الاهانات . كل هذا نتيجة للتمدن وتبني القيم والمبادىء الأجنبية) .

قال أديب : (لقد تغيرت بالطبع بعض مبادئنا نتيجة لتداخلنا مع اليهود ، إذ يوجد داخل المجتمع اليهودي نفسه العديد من المبادىء المختلفة والمتناقضة ، والسبب في ذلك توافد اليهود من مختلف أنحاء العالم . وتعتبر بعض التغييرات التي حدثت في مبادئنا سلبية ، وبعضها الآخر إيجابية ، وهناك بعض التقاليد التي ما نزال نمارسها حتى اليوم والتي أجدها بالية . ففي الماضي كان الأبوان هما اللذان يختاران العروس او العريس لأولادهم ؛ وانا لا اقبل هذه العادة ؛ إذ لا بد لكل شخصين يرغبان في الزواج من التعرف على بعضهما البعض ؛ واذا لم يكن يربط بينهما حب كبير ، فيجب على الأقل أن يتوفر نوع من التفاهم والمودة . بالنسبة لوالدي فهولا يوافق على هذا الرأي . لقد التقيت بزوجتي عندما كنت أقوم بالتدريس في مدرسة (تيراسانتا) حيث كانت طالبة هناك ، فوقعنا في غرام بعضنا بعضاً ، وتزوجنا بعد أن أنهت المدرسة . وقد عارض والدي بشدة لأنه كان يريدني أن اتزوج إحدى بنات عمي ، فرفضت ذلك وقلت له بأنني لن اتزوج سوى الفتاة التي اخترتها بنفسي؛ لذا لم يكن أمامه سوى قبول قراري هذا . الا انه لم يكن يرغب بأن أخرق تقليداً اتبعه الناس لأجيال عديدة) .

قالت (نورا) معلقة : (من ناحية اخرى ، هناك بعض العادات التي لم تتغير على الاطلاق، فعلى سبيل المثال ، لا أجد اية تغييرات في العلاقة بين الزوج والزوجة . فعندما يطلب أديب مني شيئاً، يجب أن أقوم به في الحال، بغض النظر عما اذا كنت أستطيع ذلك أم لا ، إذ لا يسعني معارضته . فهو يتوقع مني تنفيذ طلباته تماماً كما كان الجيل القديم من الرجال يتوقعون من زوجاتهم الطاعة الكاملة) .

قال أديب : (يعتبر في الواقع النضال من أجل قضيتنا من اكبر الاختلافات بين الجيلين . فما يزال والدي يخشى علينا عندما ننتقد السلطات ، فأقول له إنه من المفترض أننا نعيش في بلد ديمقراطي ، لذا يحق لي النضال من أجل حقوقي والدفاع عن قومي ؛ إلا أننا لا نعيش في

الواقع في بلد ديمقراطي على الاطلاق . وانا لا اخشى من التصريح بأنني مواطن فلسطيني ، ولكن ما يزال التردد يسيطر على والدي ، فيخشيان من التصريح بتلك الحقيقة ؛ وانا لا الومهما في ذلك ، بل اتفهم سبب فزعهما الشديد ، إلا أنني لا أوافقهما على ذلك ، ولا اقبل بموقفيهما ؛ ولا أوافق كذلك على الطريقة التي يريدان فيها أن يزرعا ذلك الخوف في أنفسنا . أما اليوم فاننا مختلفون ، وانا واثق من أن أولادي سيكونون اكثر وعيا واطلاعاً على الأمور من أبناء جيلي) .

قال رياض (يتأثر الجيل الجديد اليوم بالجماعات الخارجيـة ، لنأخذ الانتفاضة على سبيل المثال . فمنظمة التحرير الفلسطينية هي التي تملي الاوامر على الشبان ، واذا لم ينفذوها ، فانهم سيقتلون . فالانتفاضة ليست شيئاً بدأه الناس من تلقاء أنفسهم) .

قالت (عبلة) بانفعال : (الناس هم الذين بدؤوا الانتفاضة ، فاليهود يعاملون العرب معاملة سيئة ، فلم لا يقاومهم العرب ، حتى اذا كـان العنف هو الوسيلة ؟ قرأت في احدى الصحف أن سيدة يهودية قالت أنها تستمتع برؤية العرب وهم يُضربون ، فشعرت بغضب شديد ، ولو كانت امامي لضربتها) . قال أديب : (اذا شعرنا باليأس والاستسلام سيهزموننا ونضيع الى الابد ، ولكن اذا تابعنا النضال وتخلصنا مـن مخاوفنا ، واذا فكرنا في قضيتنا قبل التفكير في مصلحتنا الشخصية ، نستطيع عندئذ أن نوقف السلطات عن سياسات الضرب والنفي وتدمير المنازل والتمييز التي تمارسها ضدنا) .

صدر فجأة صوت موسيقا يصم الآذان من الجوار ، وتبعه رنـين ضحكات مرتفعة ، تنهد (اديب) وقال : (سيستمر هذا الضجيج حتى ساعات الصباح الاولى ، فهم ينامون طوال النهار ، ثم يستيقظون في وقت متأخر من المساء ويسهرون طوال الليل . لقد شكوت اليهم عدة مرات انزعاجي من الضجيج ، في بعض الاحيان يستمعون ويلتزمـون الهدوء ، ولكن في معظم الاحيان كأنني أتحدث الى الجدران . فهـم

لا يعوون ما يفعلونه لانهم دائما تحت تأثير المخدرات ، ولا تتمكن والدتهم او أخواتهم من فعل أي شيء بدافع الخوف) .

بعد عام تقريباً ، كان هنالك عدد من التغييرات .

قال (أديب) وقد جلس لتناول طعام الغداء : (اتعرفين ماذا حل بتلك العائلة في الشارع المقابل ؟ حسنا ، يوجد في السجن الآن ستة من الشبان ، ومنهم (عارف) ، وعلى الرغم من أنه لم يتعاطى المخدرات ولكنه بدأ الاتجار بها ، كان الاغراء للحصول على المال كبيرا جدا . لا بد وأن أحدا ما قد وشى بهم ، فهاجمتهم رجال الشرطة بينما كانوا في احدى الامسيات يصنفون كمية الكوكائين التي يتاجرون بها وسيقضون في السجن فترة طويلة ، وانا حزين جداً من اجل (عارف) لانه أضاع حياته .

قمت في الواقع بكتابة مسرحية عن مشاكل تعاطي المخدرات ، وعرضت مؤخرا على مسرح المركز ، وتدعى : (من يلام ؟) وتتألف المسرحية من الشخصيات التالية : ام وأب وابنان وابنة وزوجها . يدعى احد الابناء (ايهاب) وهو على وشك التخرج والحصول على شهادة جامعية في الحقوق . ويدعى الابن الثاني (دياب) ، وهو طالب كسول يتخلف عن المدرسة ويتعاطى المخدرات . يعلم (ايهاب) وزوج أخته بمشكلة (دياب) وادمانه ، ولكن الام ترفض أن تقبل أو حتى تعترف بأن ابنها الاصغر يعاني من مشكلة . يغضب زوجها وابنها (ايهاب) بسبب سلوكها الذي يشبه سلوك النعامة ورفضها مواجهة الخطر ويلومانها على افساد (دياب) . وكلما يقوم الوالد أو الشقيق الاكبر بتأنيب (دياب) ، تهب الام الدفاع عنه وتقول بأن (دياب) فتى حسن السلوك ولا يصدر عنه اطلاقا سلوك مشين ، ولكنها تواجه اخيرا واقع سلوك ابنها عندما يطلب منه المثول أمام المحكمة بتهمة تعاطي المخدرات . ويخبره شقيقه بأنهم سيقفون جميعا الى جانبه اذا وعدهم بتحسين سلوكه ، وبأنه سيدافع عنه ، بالاشتراك مع زوج أخته المحامي أيضاً .

يقول (دياب) بأنه قد ضاع الى الابد ، ولن يستطيع التغلب على مشكلته اطلاقا ، ويحاولون جميعا اقناعه بأن يبدأ حياة جديدة واعدين اياه بتقديم كل الدعم الذي يحتاجه ، بيد أن (دياب) لا يصدق وعودهم ، ويقول لهم لو أن كل فرد من العائلة وقف الى جانبه بشكل فعلي منذ البداية ، ما كان انتهى الى الادمان على المخدرات أو الترويج لهـا .

حضر لمشاهدة المسرحية اهالي الطلاب ، والفيف من الاخصائيين : كالعمال الاجتماعيين ، وعلماء النفس والمثقفين . وبعد انتهاء العرض جرت مناقشة سبل التغلب على مشكلة المخدرات . وقد تساءل بعض الاهالي عن الاسباب الكامنة وراء ادمان أولادهم على تعاطي المخدرات هل هو الوضع السياسي ، أو طريقة التربية التي نشؤوا عليها في المنزل والمدرسة ، او مشكلة الاسكان ، أو انعدام التسهيلات الترفيهية ، مما يدفع الشبان الى قضاء اوقاتهم بالتسكع في الشوارع . كان الحوار ممتعا ، وأبدى الاهالي حماسا حارا للحديث حول تلك المشاكل) .

دخلت والدة (اديب) مسرعة الى الغرفة لتلقي التحية قبـل أن تغادر الى الضفة الغربية لقضاء يومين وزيارة بعض الاقارب .

قالت نورا : (لم نذهب الى الضفة الغربية منذ وقت طويل ، وكذلك لم نزر القدس منذ مدة ، اذ نخشى السفر في سيارتنا لانها تحمل لوحة ترخيص اسرائيلية ، ولن يصدق الفلسطينيون هناك بأننا اخوانهم ايضا ، وربما نتعرض للضرب بالحجارة . عندما تذهب والدة زوجي الى الضفة الغربية ، فانها تستقل سيارة اجرة تحمل لوحة ترخيص من الضفة الغربية ، ولكن هذا يعني بالطبع ايقافهم من قبل الجيش وتعرضهم للتفتيش) .

ذهب (اديب) لمرافقة والدته ، وعندما عاد قال : (سأذهب الى القاهرة في غضون عشرة أيام ، اذ انظم هـذا العـام ثلاث رحـلات ، وسترافقني (نورا) في الرحلة الاخيرة .

والهدف الرئيسي من الرحلات التيانظمها هو مساعدة الفلسطينيين للحصول على فرصة للهرب من الاوضاع القمعية التي يرزحون تحتها ، بالاضافة الى أنني أجدها فرصة مناسبة لتنمية وعيهم السياسي . اذ أننا نسافر الى مصر برا بواسطة الحافلة ، مما يوفر لي الوقت الكافي للتحدث اليهم . فأخبرهم ، على سبيل المثال ، كل ما يتعلق بالمركز والجمعية ، ونقوم بمناقشة الحوادث الاجتماعية أو السياسية البارزة التي تحدث في يافا . وعندما نمر بالمستوطنات اليهودية المقامة في مناطق كانت في السابق قرى عربية ، أخبرهم عن تاريخ تلك القرى ، وكيف تم الاستيلاء عليها . بيد انني بالطبع لا ألقي عليهم المحاضرات طوال الرحلة ، بل اننا نغني ايضا ، ونلقي الفكاهات . وعندما نصل الى مصر ، أخبرهم عنحروب أعوام ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، وأحدثهم عن تاريخ مصر ، وعن ثورة عام ١٩٥٢ ، وعن (ناصر) . توفر لي مثل هذه الرحلة والاماكن التي نزورها فرصة مناسبة لمناقشة جميع تلك المواضيع . ويعتبر تنظيم الرحلات احدى هواياتي ، وفي البداية كانت الرحلات داخل اسرائيل والضفة الغربية فقط ، ثم عندما سمح لنا الذهاب الى مصر ، قمت بتنظيم الرحلات لاصطحاب الناس إليها فهم يجدون متعة في زيارة مصر) .

جلست طفلة (أديب) الصغرى على حجر والدها لتريه خدشاً صغيراً في إصبع يدها ، فقبل إصبعها ، واخبرها بأنها ستتحسن في الحال .

قال (اديب) : (لقد ألحقت طفلتي الصغيرة هذه بروضة أطفال تابعة للنادي الإسلامي ، الأمر الذي أفزع أقاربي ، فأخبرتهم بأنني أمقت الطائفية والتمييز ؛ وبما أنني أدعو للمساواة ، عليّ أيضاً أن أطبقها . وأشرت إليهم بأنهم إذا كانوا يرغبون في تحقيق المساواة الاجتماعية والسياسية ، فعليهم أيضاً أن يعملوا على تطبيقها) .

قالت نورا : (الطائفية أمر سيء ، كنت أقوم ببعض النشاطات في النادي الأرثوذكسي ، وأشارك أيضاً في نشاطات الكنيسة ، بيد أنني توقفت عن ذلك لأن عملي تعارض مع قوميتي . فقد كان الأشخاص الذين كنت أعمل معهم يؤمنون بالطائفية ، ولا يهتمون بتطوير الوعي السياسي ؛ ولا يدرك بعض الفلسطينيين بأنه لن يتم الاعتراف بهويتنا ما لم يقوموا بالاعتراف بها بأنفسهم قبل كل شيء . أرادت إحدى صديقاتي العربيات أن ترسل طفلتها الى روضة أطفال يهودية ، بزعم أنها ستلقى هناك عناية أكبر ، فقد سمعت أن الأطفال في المدارس العربية يعاملون معاملة سيئة ، وهذا بالطبع كلام لا أساس له من الصحة ، فقلت لها : « هل تريدين أن تأتي طفلتك الى البيت وتتحدث اليك باللغة العبرية ، وتغني الأغاني اليهودية ، وتحتفل بالأعياد اليهودية ؟ كيف ستتحملين ذلك ؟ » واصطحبتها الى روضة الأطفال في المركز لأريها طريقتهم في التعامل مع الأطفال . وانا سعيدة بأن أقول بأنها قد عدلت عن فكرتها ، ولن ترسل طفلتها الى روضة أطفال يهودية) .

قال أديب : (ينبغي علينا زيادة عدد الأطفال في الروضة التابعة للمركز لأنه لا يوجد عدد كاف من رياض الأطفال للعرب . لدينا الآن ٢٢ طفلاً في كل صف بدلاً من ١٥ طفلاً . فقد وُجد المركز قبل كل شيء لتحسين أوضاع العرب في يافا ، وإذا لم نقم نحن انفسنا بهذه المهمة ، من غيرنا سيقوم بها ؟ من إحدى مهامي لهذا العام التنسيق بين نشاطات رياض الأطفال العربية الموجودة في يافا ، إذ أتأكد من سير الأمور بشكل جيد ، وأحرص على عدم قيام السلطات بأي تدخل سلبي أو تمييزي في شؤونها . ونؤكد الآن على ضرورة التحاق جميع المعلمين العرب في رياض الأطفال العربية بدورات تدريبية في دار الطفل في عكا ، أو تدريبهم هنا على يد مدرس عربي . فيتعلمون بهذه الطريقة كل شيء عن تراثنا الفلسطيني ، وعن الاحتفالات العربية ، والهويّة الفلسطينية ؛ وكذلك يتعلمون أنواع الألعاب والأغاني والقصص التي تفي باحتياجات الأطفال العرب . وقمنا بالفعل بإرسال بعض المعلمين الى دار الطفل ، ويأتي من

وقت لآخر استاذ من هناك ليلقي عدداً من المحاضرات في المركز . ولسوء الحظ ما تزال بعض التحسينات التي نرغب في تنفيذها في مجال الخدمات الأخرى حبراً على الورق حتى هذه اللحظة ، وتنفيذها بشكل فعلي أمر مختلف تماماً .

قمنا أيضاً بإعادة تنظيم الجهاز الإداري في المركز ، وأصبح الآن يتألف من خمسة أعضاء يشتركون جميعاً في مسؤولية إدارة المركز . وأمضي هذا العام وقتاً إضافياً على برنامج الترميم والتطوير في منطقة العجمي . فإلى جانب ترميم المنازل القديمة ، كي لا تجد السلطات حجة لتدميرها وإخراجنا منها ، نقوم أيضاً بتحضير مشروع لتحسين الخدمات المتنوعة في المجتمع العربي : كالخدمات الصحية ، والخدمات المقدمة للمسنين ، بالإضافة الى مساعدة العائلات الفقيرة التي تضم عدداً كبيراً من الأطفال ، وتطوير رياض الأطفال .

وتم تمويل برنامج التنمية من قبل اليهود الأمريكيين في « لوس أنجلوس » ، وبلدية تل أبيب ووزارة الإسكان ؛ وأرسلت الأموال أيضاً الى الجماعة اليهودية .. ولكن ما نحاول أن نؤكده لهؤلاء الأشخاص هو الإهمال الكبير الذي تعرض له عرب يافا على مختلف الأصعدة ، وقد حان الوقت الآن لفعل شيء ما حيال وضعنا هذا . إلا أن أعضاء المجلس البلدي لا يحبون الجمعية أو المركز ، ليس بسبب انتقادنا لهم فقط ، بل لأننا أيضاً نقدم لهم الحلول المناسبة لوضع مجتمعنا العربي . فإننا نعلم ، قبل كل شيء ، ما هي مشاكلنا واحتياجاتنا ، لأننا نواجهها في حياتنا اليومية ، وهذا ما يغيظ البلدية لأنها تريد أن تفرض علينا الحلول المناسبة لها .

بعد أن كسبنا القضية أمام المحكمة العليا عام ١٩٨٧ لمنع السلطات من إخراجنا من يافا ، يحاولون الآن استرضاءنا بإعطائنا نصف قطعة من الحلوى هنا ، ونصف قطعة هناك ، إذ يسمحون لنا ، على سبيل المثال ، ترميم بعض المنازل ، إلا أنهم ما يزالون ، في الوقت نفسه ،

يحاولون تدمير غيرها . لا يمكنهم خداعنا لأننا لسنا أغبياء ، وسنستمر بمواجهتهم حتى ينفذوا كافة مطاليبنا ويعيدوا إلينا حقوقنا كاملة) .

حان الوقت الذهاب (أديب) الى المركز ، وقال بأنه سيزور في طريقه عائلة يحتاج منزلها الى الإصلاح ، وشرح وضع تلك العائلة بقوله :

(تتألف العائلة من اب وأم وأربعة أولاد : الاب عاطل من العمل ويعيش الابن الأكبر في منزل عائلة زوجته ، وهو مدمن على المخدرات ، وأمضى في السجن فترة من الزمن بسبب ذلك . أما الابنة الكبرى ، وهي متزوجة أيضاً ، تعتبر الوحيدة من أفراد العائلة التي تعيش حياة مستقرة الى حد ما . ويعيش الابنان الآخران ، وهما في طور المراهقة ، مع والديهما ؛ ويعاني أحدهما من اختلال عقلي . وللزوجة ابن آخر من زواج سابق ، كان قد انتحر لأنه قتل أعز أصدقاءه في حادث سيارة . ونتيجة لذلك ، أصيبت الزوجة بانهيار عصبي ، وترددت على المصحات العقلية ، وحاولت أيضاً الانتحار .

تعيش تلك العائلة في منزل قديم على الطراز العربي ، وقامت السلطات بإقفال معظم غرفه ؛ إلا أن الأب كسر قفل إحدى الغرف ، فأصبح لديهم الآن غرفتين للنوم ، وصالة (غرفة جلوس) وحمام ومطبخ . وتتسرب المياه من سقفي غرفة الجلوس والحمام ، ويحتاج أحد الجدران الخارجية للإصلاح .

تريد السلطات إخراج العائلة من المنزل لذا يسببون لهم الإزعاج ، ويخبرونهم بأن المنزل ليس ملكهم ، وأن العيش فيه يسبب خطراً على حياتهم ، وأن السقف سينهار فوق رؤوسهم . ترغب الجمعية بإصلاح المنزل ، إلا أن سياستنا تقضي بأن تدفع العائلات ثلث تكاليف الإصلاح ؛ بيد أن هذه العائلة لا تستطيع أن تدفع قرشاً واحداً ، لذا نصحتهم باللجوء الى « المقاصد الخيرية » للحصول على مساعدة مالية . ويطلبون

مساعدتي لإملاء الأوراق الرسمية لأنهم غير قادرون على فعل ذلك بأنفسهم) .

رحبت العائلة بقدوم (أديب) ترحيباً حاراً .

يبلغ الأب (ابراهيم) الخمسين من عمره ، وتتسم ملامح وجهه بالقسوة الى جانب تعبير مؤلم لرجل يبدو وكأنه فقد كل سبب يدفعه للبقاء .

قدم الأوراق الى (أديب) وقال : (لا أريد أن أخرج من المنزل ، إلا أنني غير قادر على النضال من اجل حقوقي ، وليس بمفردي بالتأكيد ؛ لقد تعبت من الحياة وتحطمت معنوياتي . فعندما كنت في الثامنة عشر من عمري أمضيت اثنتي عشر عاماً في سجن في الأردن ، بعد أن اتهموني بالتجسس ؛ والجريمة الوحيدة التي اقترفتها هي تهريب البضائع . وهناك قاموا بتعذيبي ، انظروا الى آثار الندبات على ساقيّ نتيجة للحرق بالسجائر . وعندما خرجت من السجن ، قام صديق لي بتهريبي الى (جلجوليا) مسقط رأسي . ثم احتجزتني القوات الإسرائيلية وسلبوني جواز سفري ؛ ونجحت في آخر الأمر في الحصول على أوراق شخصية ، ثم انتقلت الى يافا حيث تزوجت . عملت في البداية عامل تنظيفات ، ثم أصبحت صياداً ؛ ولكنني اضطررت لترك عملي بعد أن فقدت إحدى أصابعي . ولم أستطع حتى الآن الحصول على عمل آخر ، لذا أعيش من مساعدات جمعية الإنعاش) .

تبلغ (مها) ، زوجة (ابراهيم) ، الأربعين من عمرها ، وهي نحيلة وشاحبة ، وتنطق ملامحها بالأسى . كانت تتحرك ببطء وكأنها تحمل اثقال الحياة فوق كتفيها ، قالت وهي تطلق زفرة عميقة :

(نعم ، لقد تعبنا من الحياة . لا أمانع في إخلاء المنزل فوراً في حال قدموا لنا منزلاً آخراً ، ولا أملك الرغبة أو حتى القدرة على النضال ؛

ولا يهمني إذا أخرج الفلسطينيون من يافا ، وكذلك لا أهتم بالانتفاضة. أنا فلسطينية ، هذا صحيح ، ولكن لدي مشاكلي الخاصة ، لا يهمني ما يحدث في الضفة الغربية وغزة . بماذا ستفيدني الانتفاضة ؟ إنها لا تعني لي شيئاً) .

كرر ابنها ذو السادسة عشر عاماً مشاعرها عندما قال : (من يهتم بما يحدث في الضفة الغربية وغزة ؟ ليفعلوا ما يشاؤون ، فأمرهم لا يعنيني أيضاً) .

نظر (ابراهيم) إليهما ، وفجأة ومضت في عينيه شرارة ، ربما لأنه أدرك بأن الحياة ليست يائسة الى الدرجة التي تخيلها ، وقال : (حسناً ، أنا فخور بالانتفاضة ، وتجتاحني مشاعر الألم والتعاطف عندما أرى المعاملة القاسية التي يتعرض لها إخواني الفلسطينيون) .

ساعدهم (أديب) في كتابة الأوراق ثم توجه نحو المركز .

لم يكن هنالك أثر للمكتبة ، ابتسم (أديب) وقال : (نستعد لإقامة مكتبة جديدة ، وستكون في طابقين ومعزولة تماماً عن الضجيج ، ليتمكن الرواد من القراءة والعمل بهدوء تام . وسنقوم بإحضار ٤٠،٠٠٠ كتاب من مصر) .

كان هناك عدد من الأشخاص يجلسون في القاعة يتحدثون باللغة العبرية بصوت مرتفع ، قال (أديب) موضحاً : (هذه حلقة عمل مسرحية يهودية ، تتضمن أيضاً عناصر عربية . فقد قررنا في بعض برامجنا التي تهدف الى تطوير الوعي أن نضم إلينا عناصر يهودية يسارية تقدمية يتفهمون قضيتنا ويتعاطفون معها ؛ فنحن نريد من اليهود الذين يؤمنون بالمساواة والعدالة وإقامة دولة فلسطينية مستقلة أن ينضموا الى نضالنا . تجتمع هذه الحلقة مرة واحدة في الأسبوع ولمدة ثلاث ساعات ، ويعملون في مواضيع مختلفة تصور نضالنا السياسي والاجتماعي ،

ويقومون بكل ذلك بشكل تلقائي . ويصورون في مسرحياتهم بعض النزاعات والخلافات الموجودة بين اليهود والعرب ، فنسمعهم أحياناً يصرخون ، أو يقلدون الحيوانات ؛ وأحياناً أخرى يتناقشون ويتشاجرون ، أو يتحدثون بأصوات خافتة بمرافقة الموسيقا .

ويلجأون الى تطبيق أساليب متعددة للتوصل الى حلول مناسبة للنزاعات ، ولكنهم للأسف يستخدمون اللغة العبرية في كافة أعمالهم ، لأن اليهود في حلقة العمل لا يتكلمون اللغة العربية ، بينما يستطيع العرب أن يتكلموا العبرية . وعندما تنتهي التدريبات يقدمون مسرحية باللغة العبرية أيضاً ، والتي نريدها أن تصل الى المجتمع اليهودي ، وخاصة الى اليهود الذين لا يعلمون شيئاً عن قضيتنا ، والذين يتحاملون على الفلسطينيين . ولا يمكننا الوصول اليهم إذا كانت المسرحية باللغة العربية ، بالإضافة الى أن اليهود يميلون للاستماع الى غيرهم من اليهود أكثر من ميلهم للاستماع الى العرب .

قمنا أيضاً بزيادة عدد المحاضرات الثقافية والسياسية والاجتماعية. ويحضر أحدهم من النقب (النجف) للتحدث عن جماعات البدو والمشاكل التي تواجههم ؛ إذ نشعر بأننا معزولون عنهم الى حد كبير . ونقدم كذلك محاضرة عن الإسلام والمسيحية ، ولدينا أيضاً شاعر عربي يتحدث عن الشعر الفلسطيني . وهنالك عدد من المعارض المتنوعة : أحدها عن الانتفاضة ، والآخر عن فن العمارة في يافا منذ عام ١٩٠٠ وحتى اليوم ؛ وهناك أيضاً معرض لرسوم كاريكاتورية الفنان ناجي العلي . ونسعى لتقديم فرقة موسيقية تعزف على الآلات العربية فقط . لقد قمنا بأعمال كثيرة في العام المنصرم) . دون صرخة عالية من أحد الممثلين في حلقة العمل ، تلاها سكون مطبق .

قال أديب : (لدي اجتماع فيما بعد ، أما الآن فسأذهب الى المنزل، لقد كان يوماً شاقاً . ابذل أنا وزوجتي (نورا) جهداً مضنياً في عملنا ، ولكن ما نجنيه ليس كافياً . يعادل راتبي ٧٠٠ دولار في الشهر ،

وتحصل زوجتي على ما يعادل ٤٣٠ دولاراً في الشهر . ويحصل اليهود على مكافآت وعلاوات إضافية ، فعلى سبيل المثال ، يحصل كل من أدى الخدمة العسكرية على إعانة مالية عندما يرزق بطفل ، وهذا لا ينطبق بالطبع على الفلسطينيين . ويحصل اليهود على قروض أكبر لقاء الرهائن العقارية ، وعلى معاش تقاعدي أفضل) .

ثم تنهد بضجر وهو يقول : (سنحصل يوماً ما على حقوقنا . أنا مسرور جداً من التطورات الجديدة التي حققتها منظمة التحرير الفلسطينية . لقد أثمرت الانتفاضة عن بعض النتائج ، وستستمر في إثمارها . وفي حال قيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وغزة، الأمر الذي سيتحقق حتماً ، سيؤدي ذلك الى التخفيف من وطأة النزاعات والضغوط التي نواجهها هنا ، وسأكون فرداً من تلك الدولة ، بيد انني سأبقى في يافا لأنها موطني ومسقط رأسي . وإذا تمّ التوصل الى حلٍ عادلٍ ، أعتقد أننا لن نكون بحاجة الى حدود وجيوش وحروب، بل ستزال الحدود جميعها ، وسيصبح باستطاعتنا التنقل كما نشاء).

اتجه (أديب) الى منزله ، وحلّ الظلام ، وانقطع الضجيج الذي كان صادراً من الجيران في الشارع المقابل .





الفصل التاسع

الناظر: عامر في لاقيــة

(لقد أثرت بنا الانتفاضة في أكثر من طريقة : فقد طورت وعي الفلسطينيين الذين كانوا جاهلين من الناحية السياسية ، وعززت من نضالنا للمطالبة بحقوقنا ، وكذلك أثرت في الإجراءات القبلية المتخذة حيال النزاعات المتأصلة) .

عامـر

تضفي حرارة شمس الأصيل الهدوء والسكينة على القرية ، ويلوذ الناس بمساكنهم هرباً من أشعة الشمس الحارقة ، حتى الأبقار والحمير والمواشي والكلاب تقبع ساكنة تحت وطأة الحرارة المرتفعة . ويجد فقط طفل في الثالثة من عمره القدرة على الوقوف في أعلى الهضبة ، وهو يهرش أسفل ظهره العاري بينما يحدق بعيداً مستغرقاً في التفكير . يقع خلفه كوخ مصنوع من الحديد المموج ، وتمتد أمامه بقية قريته : قرية بدوية تتألف من ٧٠٠٠ نسمة ، وتقع على مسافة ١٤ كم شمال بئر شبعا . وتتجمع المنازل مع بعضها على شكل عنقودي غير دقيق وفق المجموعات العائلية . ولا تزيد الطرق عن كونها طرقاً ترابية ، ويلطف مناخ المنطقة القاسي ما تبقى من أشجار الزيتون . يقع الى الوراء بقية موطنه ، والى الأمام يمتد العالم . يطلق الفتى زفرة عميقة ويمشي الهوينى نحو الكوخ . يعيش بعض الناس في أكواخ مثل كوخه ، والبعض الآخر الأكثر حظاً إذ يعيشون في منازل خشبية ، وهنالك بعض الأبنية المصنوعة من الحجر .

تزرح القرية تحت تحديد دائم بالتدمير من قبل السلطات ، التي تزعم بأن السكان لا يملكون أي حق شرعي بالعيش في هذا المكان . وتقوم السلطات من وقت لآخر بتدمير منازل السكان واقتلاع أشجار الزيتون أيضـاً .

يبلغ (عامر) الرابعة والأربعين من عمره ، نحيل الجسم ، ويتسم بحس فكاهي تهكمي مـن شأنه أن يضفي البهجة على الوجه الحزيـن والمكتئب . يعمل (عامر) ناظراً في جامعة بئر شبعا ، ويعيش مع زوجته واطفاله الأربعة في منزل مبني من الخشب وأرضيته من الحجـارة . الغرفة الأمامية هي غرفة الجلوس ، ويوجد فيها جهاز *تلفاز* ، وبعض الصور المعلقة على الجدار ، ولوحة كتب عليها (ليحمي الرب منزلك) . وينام (عامر) وزوجته (فاطمة) في الغرفة الأخرى . أما الغرفة الثالثة فتمارس فيها (فاطمة) الخياطة ، وتنام فيها طفلتهما (عبير) التي تبلغ الخامسة من عمرها . ويقع مدخل المطبخ في الحديقة الخلفية ، وهو عبارة عن حجرة مظلمة بلا نوافذ ، ولا داعي في فصل الصيف لإيقـاد الموقد ، إذ تكفي حرارة الغرفة لطهي الطعام . ويوجد الى جانب المطبخ غرفة أخرى ينام فيها الأطفال الثلاثة الآخرون : الولد الأكبر (نضال) ، الذي يبلغ الخامسة عشر من عمره ، والابنة الكبرى (عروبة) ، وهي في الثالثة عشر من عمرها ؛ و (عصام) في الثانية عشر من عمره . ويوجد حمام الى جانب غرفتهم يحتوي على مرش للاغتسال وغسالة . وهناك حديقة صغيرة ولكنها مزهرة : تحوي نبات الكرمة الخصب ، وشجرتين أو ثلاثة من أشجار الزيتون ، وبعض الورود التي قامت (فاطمـة) بزراعتها . ويوجد في إحدى زوايا الحديقة حوض خارجي محاط بألواح خشبية ، وفي الزاوية الأخرى صنبور مياه لغسل الأطباق والخضار .

أنهى (عامر) طعامه بمضغ حبة مـن الفلفل الأحمر الحار ، ثم نهض وذهب ليجلس على أريكة في الشرفة ، حيث أشعل لفافة تبـغ وأطلق بصره نحو الهضبة التي كان يقف عليها الطفل الصغير .. لم يعد

هناك أثر للطفل ، ولكن فجأة قفز جواد' فوق الهضبة واختفى وراء الأفــق .

قال (عامر) دون أن يوجه ملاحظته الى شخص محدد : (اتساءل إذا كان صاحبه هو الذي أطلق له العنان ، أو أنه هرب من تلقاء نفسه) .

كانت فترة الحرية التي تمتع بها الجواد قصيرة الأجل ، لأنه سرعان ما عاد وصاحبه يمتطي صهوته .

تنهد (عامر) وقال : (لقــد حصل على حريتــه أكثر مما يجب) وأشعل لفافة تبغ أخرى .

قالت (فاطمة) وهي تجلس الى جانبه : (توقف عن التدخين الى هذه الدرجة) .

(فاطمة) امرأة جميلة في الثلاثين من عمرها ، طويلة ونحيلة القوام؛ وتغطي شعرها الأسود الطويل بخمار أبيض غير مربوط باحكام . وتتنقل بوقار في ثوبها البدوي الفلسطيني التقليدي .

هز (عامر) كتفيه بلا مبالاة ، متجاهلا ملاحظتها ، وقال : (نحن الآن في عام ١٩٨٨ ، ولم نحصل حتى اليوم على شوارع لائقة وأبنيــة جيدة للسكن ، ولايحق لنابناء مساكن دائمة . لدينا مدرسة ابتدائية ، ومدرسة متوسطة جديدة ، ومستوصف وحتى فريق كرة قدم ؛ ولكننا ما نزال ننتظر الترخيص لبناء منازل دائمة . وما نزال نعقد اجتماعــات ومناقشات لا تنتهي لنرى فيما إذا كانوا سيبيعون لنا هذه الأرض لنبني عليها المنازل . هل يمكنك أن تتخيلي كيف يبيعون لنا أرضنا التي نملكها ؟ يريدون اجبارنا على العيش في المناطق المدنية كي يتمكنوا من مصــادرة أرضنا ، ولكن حتى في المناطق المدنية لن يسمحوا لنا باقامة صناعاتنا ؛ بل يهدفون الى تحويلنا الى عمال ذوي أجور رخيصة لخدمة الاقتصــاد الأسرائيلي) .

قطع حديثه وصول والدة زوجته (سلمى) ، وزوجة عمه في الوقت نفسه ، وتبلغ الثامنة والأربعين من عمرها ؛ وهي امرأة مليحة الوجه ، وترتدي ، كابنتها ، الثوب البدوي الفلسطيني التقليدي المطرز .

جلست (سلمى) وبدأت تعمل بالصوف ، إذ تهم بالبـدء بحياكة حقيبة للكتب المدرسية لأحد أبنائها العشرة الذين تعدّ (فاطمة) أكبرهم .

قالت سلمى : (انظري إلى حياتنا التي نعيشها ، لا أقول بأن حياتنا الماضية كانت خالية من المشقات ، ولكننا كنا قبائل بدوية نعيش حياتنا الخاصة ، ونتمتع بحريتنا الشخصية) ، ثم توقفت عن الكلام وركزت انتباهها على الصوف .

قال (عامر) موضحاً : (تعتبر عائلتنا فرعاً من قبيلة كبيرة جداً تدعى « الصانع » . قبل عام ١٩٤٨ عاش بعضنا في « لاقية » ، والبعض الآخر في مكان يدعى « الشارية » ، ويبعد حوالي ٢٠ كم شرقي غزة . ونملك أيضا قطعة أرض بجانب « بئر السبع » التي كانت في السابق مدينة عربية ، وكانت خالية تماماً من اليهود ، بخلاف بعض المناطق الأخرى في فلسطين . وعندما استلم اليهود الحكم عام ١٩٤٨ ، أجبروا جميع العرب على مغادرة « بئر السبع » ، وكذلك أرغمونا على مغادرة « الشارية » . فذهب البعض إلى مخيم للاجئين في غـزة ، وانضـم البعض الآخر إلى أقاربهم في « لاقية » .

وفي عام ١٩٥٢ بعد أن استلمنا بطاقـات شخصية اسرائيلية ، أجبرتنا السلطات على مغادرة « لاقية » وأرسلونا إلى الضفة الغربية بجانب قرية « ضهرية » ، حيث مكثنا لمدة شهرين . ثـم ، ونتيجة لمفاوضات جرت بين السلطات الاسرائيلية والامـم المتحـدة والصليب الأحمر والأردن ، وافق اليهود على عودتنا إلى « لاقية » ، ولكن بعد أن أصبحنا داخل الحدود ، تراجعوا عن موافقتهم ، وبدلاً من السماح لنا بالاستقرار في « لاقية » ، وضعونا في « تل عراد » الذي يبعد ٤٥ كم شرقي « بئر السبع » .

فوجدنا انفسنا وسط فراغ ، وعشنا في أرض قاحلة تفتقر الى الماء والكهرباء والخدمات الصحية والمدارس ووسائل النقل . ولم يكن لدينا اجهزة مذياع أو صحف ، فوجدنا انفسنا في عزلة كاملة عن العالم ولم نعد نعلم ماذا يحدث حولنا . وعشنا تحت الخيام ، تسفعنا شمس الصيف الحارقة ، ويجمد أطرافنا برد الشتاء القارس . فقمنا بحفر الفتحات في الهضاب وعشنا فيها لنحمي أنفسنا من البرد والحر ، وحفرنا المستنقعات في الأرض لجمع مياه الأمطار وإطفاء ظمأنا . كنا نعيش في بؤس شديد ، وبالمقابل ، كان وضع أولئك الذين عاشوا في مخيمات اللاجئين أفضل بكثير من وضعنا . فهم على الأقل يجدون الى جانبهم منظمة الاونروا (وكالة الاغاثة والتشغيل التابعة لهيئة الامم المتحدة) ، التي تزودهم بالطعام واللباس والتعليم . أما نحن فلا نحصل على شيء ، ولكن برغم المشقات التي نواجهها فقد تمكنا من البقاء على قيد الحياة ورفضنا الهرب الى الاردن ، الامر كان من السهل القيام به) .

توقف (عامر) عن الكلام ، ولوح بيده مشيراً إلى رغبته في التزام الصمت قليلاً ، وقطع السكون المخيم على المكان صراخ طفل كان ينطلق من حين لآخر ؛ فقد تغلب الاغراء بالذهاب واللعب خارجاً على الإزعاج الذي تسببه أشعة الشمس الحارة . حدق (عامر) إلى القربة والى الأرض التي حرمت عليهم . وتابع يقول : (على الرغم من ظروف معيشتنا القاسية ، لم يشيء الآباء أن يبقى أولادهم أميين ، فلجأووا إلى شخص من الجماعة ليعلم أولادهم القرآن واللغة العربية وعلم الحساب . ثم في عام ١٩٦٢ حصلنا على أول مدرسة ابتدائية : كانت تتألف من غرفة واحدة فقط ، وكان الاطفال يتلقون العلوم بالتناوب . وكذلك سمحت لنا السلطات اخيراً بزراعة قطعة من الارض مقابل بدل إيجار ندفعه لهم .

لقد نما وعي ، كشاب صغير ، من خلال الإصغاء إلى أحاديث الناس من حولي ، اذ لم يقدم لي والدي أية ثقافة سياسية ، لانه لم يكن يتكلم إطلاقا عن الهوية الفلسطينية ، ولم ينصحني بماذا أقرأ . ولكنني

كنت أسمعه يتحدث مع أقرانه الآخرين عن الكارثة التي حلت بهم وعن التشتيت الذين تعرضوا له ، ولكنني كنت أسمعه يتحدث مع أقرانه الآخرين عن الكارثة التي حلت بهم وعن التشتيت الذي تعرضوا له ، الأمر الذي أثار فضولي وبدأت بطرح الأسئلة : لماذا غادر هذا الشخص ارضه ؟ لماذا اجبر الناس على العيش في معسكرات اللاجئين ؟ وأذكر ايضا الطريقة التي كنا نعامل بها تحت الحكم العسكري كمواطنين من الدرجة الثالثة . اذ لم يكن يسمح لنا بالتنقل بحرية في وطننا ، وكنا نتعرض للعقوبة في حال انتقالنا من مكان لآخر بدون ترخيص . وفرضت علينا العزلة عن السكان اليهود وعوملنا بمنتهى القوة والوحشية .

عندما كبرت أصبحت معلماً،ومارست التدريس لمدة خمس سنوات حتى تم القبض علي بتهمة تأييد منظمة (فتح) ، ومكثت في السجن مدة ثلاث سنوات) .

أطلقت (فاطمة) زفرة عميقة وهي تقول : (كانت أسوأ ثلاث سنوات مرة في حياتي ، آمل أن لا تتكرر ثانية) .

تابع (عامر) قائلا : بالطبع كانت النتيجة أنني فقدت عملي ، ولم يسمح لي ثانية بالتدريس . وبينما كنت في السجن ، عرضت علي (الخدمة السرية) عملا بدلا من التدريس ، وطلبوا مني بالمقابل أن أتعاون معهم . وحاولوا اقناعي بقولهم بأنني رجل مثقف وأنحدر من قبيلة مشهورة ، لذا لايمكن أن انتهي كعامل بالاجرة ؛ وقالوا بأنهم سيقدمون لي العمل الذي يتناسب ومركزي الاجتماعي . بالنسبة لي كان هذا الكلام فارغاً بالطبع ، واخبرتهم أن تسعين بالمائة من أهلي اصبحوا الآن عمالاً ، لذا مايمنعني أن أصبح مثلهم؟ فأنا ، قبل كل شيء لست أفضل منهم . وبعد اطلاق سراحي ، التحقت بقوة العمال ، وعملت في مواقع البناء ، ومارست الزراعة ايضا في أراضي اليهود . لم يكن امامي حل بديل ، إذ كنت بحاجة الى المال لإعالة أسرتي، وأخيراً انتهى بي الأمر في عملي الحالي حيث أشرف على الاراضي التابعة لجامعة بئر السبع .

بينما كنت ما أزال في السجن ، أرادت السلطات أن تنقل جميع العرب المقيمين في النقب (النجف) الى منطقة مدنيّة (غيتو) وتفرض عليهم سمات التغيير الخاصة بها . ولكن عندما أطلق سراحي ، وجـدت أن قسماً من أفراد قبيلتي قد عادوا الى « لاقية » ، وكانت مفاجئة رائعة بالنسبة لي ؛ فعلى الرغم من مصادرتهم لأراضينا ، إلا أننا لا نقبل بذلك، فأرضنا غاليـة علينا كثيراً ، وهي ملكنـا وليست ملكهم ، ولن نستغني عنهـا أبـداً .

يقوم بتمثيل قريتنا مجلس يهودي يطلق عليه (بين شامون) ، ويمثل حوالي تسع مزارع يهودية تعاونية في المنطقة . والشخص الذي يمثل قريتنا يهودي الجنسية ، وقد طلبنا منهم مراراً أن نعين ممثـلا عربياً لنا ، ولكن المجلس يرفض حتى الآن . ويتعامل المجلس مع قريتنـا على أساس قبلي ، إذ تتألف القرية من ثلاث عشائر رئيسية ، تنقسم كل منها الى مجموعات عائلية . ويجتمع المجلس مع رؤساء العشائر ، الأمر الذي لا يعود علينا بفائدة تذكر، بسبب خوف شيوخ العشائر الشديد من معارضة المجلس ؛ فمن المفترض أن يقوم الشيوخ بتمثيلنا والدفاع عن قضيتنا ، إلا أنهم لا يفعلون ذلك لأنهم عملاء متعاونون مع السلطات ، ونحن لا نعترف بهم لأنهم لا يمثلون ، هم أو المجلس ، مصالحنا .

عندما انتقلنا الى هذه المنطقة لم يكن لدينا ماء أو كهرباء ، ومنـذ ثلاث سنوات وبعد مناقشات لا نهاية لها مع السلطات ، تمكنا من الحصول على مياه للشرب . ولكنهم في فصل الصيف يقطعون أحياناً المياه ، ليس لمدة ساعة أو ساعتين فقط ، ولكن لعدة أيام ؛ إلا أنهم لا يفعلون ذلك مع المستوطنات اليهودية . ولم تزودنا السلطات بالطبع بالكهرباء حتى الآن . لذا قمنا بحل المشكلة بأنفسنا ، فقامت كل مجموعة من العائلات بشراء مولد كهربائي لمنطقتها ؛ ولا نحصل على الكهرباء سوى في المساء ، ولكن هذا أفضل من لا شيء.

أما الخدمات الوحيدة التي قدمها المجلس فتتعلق بالمدارس الابتدائية والمتوسطة ، وحتى في هذا الموضوع ليس لنا أي رأي . إذ تريد السلطات السيطرة على المدارس كي تكسب اليافعين الى جانبها فيشبوا وفق طريقتها في التفكير ، وبالتالي يلتزموا بسياسة الحكومة التزاماً شديداً . ويمكن رؤية تناقضات النظام في طريقة اعتراف السلطات بالمدارس ، وهي في الوقت نفسه ترفض الاعتراف بالوجود الفعلي لقريتنا . وبالتالي رفضت تزويدنا بالخدمات الرئيسية : كشبكة مصاريف جيدة ، وبناء طرق ، وجمع القمامة وغيرها . فيقوم السكان بأنفسهم بجمع القمامة ونقلها الى مقلب النفايات يقع عند طرف القرية .

وتدرك السلطات بأننا شديدو التصميم على البقاء في قريتنا وعلى ارضنا ، ولكنهم يهددون باستمرار بتدمير كافة منازلنا ، ويلجؤون أيضاً الى ممارسة أنواع أخرى من الضغوط . فقد قمنا ، على سبيل المثال ، بايجاد مستوصف خاص بنا بمساعدة منظمة غير حكومية ، وقام بادارته طبيب عربي وممرضة ؛ ولكن أجبرنا بعد ذلك على الانضمام الى (صندوق المرضى) ، وهو جهاز صحي ينتمي الى الهستدروت . ولم يعد يشرف على المستوصف طبيب عربي ، بل استبدل بطبيب يهودي عجوز من رومانيا لا يتحدث اللغة العربية إطلاقاً . ويفتح المستوصف أبوابه لاستقبال المرضى من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الظهر فقط ، لذا يضطر كل من يصاب ، لسوء حظه ، بمرض ما بعد الظهر أن يذهب الى الضفة الغربية ويدفع المال مقابل المعالجة في العيادات الخاصة . وهددت السلطات أيضاً بتدمير النصب التذكاري الذي قمنا بانشائه من أجل ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا ؛ إلا أن الضغوط التي مارستها وسائل الاعلام تمكنت من إيقاف السلطات عن تنفيذ وعيدها) .

نظر (عامر) الى ساعة يده ، حان الوقت اليوم لأن تجود الشمس برحمتها .

قال (عامر) وهو ينهض : (يجب أن أذهب الآن الى النادي ، يعتبر عملي هناك من أهم النشاطات التي أقوم بها ؛ وهو مكان آخر ترغب السلطات بتدميره) .

صاح طفل صغير من مكان ما : (شالوم !)

أجابه (عامر) : (اذهب وقل لأمك : شالوم) . ابتسم (عامر) ساخراً وقال : (إنه ابن أخي ، إنك غريبة هنا ، وأي شخص غريب يحيونه على الفور بكلمة « شالوم » العبرية . يعتقدون أنه من الأفضل البقاء في الجانب الأمن) .

قام بتأسيس النادي (أبناء جمعية لاقية) التي تأسست بدورها عام ١٩٨٢ ، ويضم أربعة عشر عضواً . يستقبل النادي أبناء القرية من مختلف الأعمار ، وهنالك ملعب خاص للأطفال يحتوي على منصات التسلق ، وأراجيح مصنوعة من إطارات السيارات ، وأرض صغيرة اسمنتية لكرة القدم ؛ ويوجد فوقها حديقة مرتبة تؤدي الى شرفة ثم الى مدخل النادي . وقد وضع فوق الجدار الرئيسي للشرفة لوحة كتب عليها باللغتين العربية والانجليزية : « أهلا بكم في نادي لاقية » ، ويوجد تحتها لوحة أخرى كتب عليها : « أبناء نادي لاقية » . يتألف النادي بحد ذاته من قاعة محاضرات تستوعب ثلاثين مقعداً ، ومكتب (عامر) الذي يحتوي أيضاً على مكتبة صغيرة ؛ وغرفة كانت تستعمل قبل ذلك كروضة للأطفال ، ومطبخ .

كان هناك بضعة أطفال يلعبون في الملعب ، وعدد من اليافعين يتقاذفون الكرة فيما بينهم بانتظار أقرانهم لبدء مباراة .

قال (عامر) موضحاً : (لدينا فريق كرة قدم جيد . عندما رغبنا في البداية بتشكيل فريق كرة القدم ، تدخل المجلس وأراد أن يختار اللاعبين على أساس نظام العشائر . لم يكن هذا التصرف سخيفاً

فحسب ، بل كان سيولد الأحقاد بين المتقدمين . فرفضنا هذا التدخل ، وقمنا بتشكيل الفريق وفق كفاءات اللاعبين . ثم أراد المجلس اطلاق أسم (بن شامون) على الفريق ؛ ولكننا رفضنا ذلك أيضا ، وانتهى الأمر الى تسميته (أبناء لاقيــة) .

فتح (عامر) مكتبه ، ثم القى نظرة على قاعة المحاضرات التي كان يلقى فيها درس باللغة الانجليزية .

قال (عامر) : (إن الشخص الذي يقوم الآن بتدريس الطلاب هو خريج جامعي ، ويعمل هنا بشكل طوعي ، كسائر أعضاء النادي . ونقوم أيضاً بالقاء محاضرات اجتماعية وثقافية ذات معان خفية ، ونشجع اليافعين على النضال من أجل حقوقهم وقضيتهم ، فلا بد من تطوير وعيهم تجاه هويتهم وتراثهم . واضطررنا لسوء الحظ الى اغلاق روضة الأطفال نظراً لعدم كفاءة المعلمين وفشلهم في الاتصال بشكل مناسب مع الأطفال أو ذويهم . على أية حال ، خضــع المعلمون ، وبمســاعــدة منظمة غــير حكومية ، الى دورة تدريبية انتهت منذ فترة وجيزة) .

قطع حديث (عامر) دخول فتى في حوالي التاسعة من عمره ، نحيل الجسم ، أشعث الشعر ، مهلهل الثياب ، وقال شاكياً : (لم يدعوني ألعب معهم كرة القدم) .

أجابه عامر : (يمكن أن تلعب مع الفتيان الأصغر سناً فيما بعد . سمعت أنك أثرت الشجار ثانية ، لقد أخبرتك أنني لا أريد شجارا هنا) .

بدأ الصبي بطرح تفسير مشوش لسلوكه ، وكانت عيناه تومضان باضطراب أثناء حديثه ، فاتجه (عامر) نحو خرطوم المياه وأخذ يسقي الأزهار ، فذهب الصبي وهو يتمتم بكلام غير مفهوم .

قال عامر : (إنه فتى غير طبيعي ، ويتلقى معاملة سيئة جــداً في المنزل ، وينهالون عليــه بالضرب دون شفقــة . أنوي أن أتحدث مــع والديــه قريباً) .

مع هبوب نسيم المساء ، خرج الناس من ملاجئهم ، وتردد صدى ضجيج الأطفال والحيوانات عبر القرية ؛ وخرجت النساء اللواتي يرتدين الأثواب البدوية التقليدية أو اللباس الاسلامي الأصولي ، لزيارة الأقارب أو الأصدقاء، وانتشرت هنا وهناك بضعة فتيات صغيرات يتجاذبن أطراف الحديث ويتبادلن الضحكات .

قال (عامر) وهو يضع خرطوم المياه جانباً : (لا يوجد اليوم في النادي نشاطات أخرى الى جانب درس اللغة الانجليزية . سنبدأ عاجلا بالتحضير للمخيم الصيفي الذي نعقده هنا ؛ ونقدم فيه الاغاني الفلسطينية ، ونلقي بعض المحاضرات ، ونرقص الدبكة (رقصة فولكلورية) ، ويساعد الشبان في تنفيذ بعض الاصلاحات اللازمة في القرية ، ان وجدت) .

ظهر طفل الثلاث سنوات من جديد فوق الهضبة ، يجر حبلا ربط فيه تنكة من قصدير ، لم يكن في هذه المرة يحدق بعيدا ، بل ينظر الى الفتيان الذين يلعبون كرة القدم ، والى الاطفال الذين يلهون بالاراجيح ثم استدار وسحب التنكة ، فهو يفضل لعبته الخاصة به لأنها تحدث ضجيجا وتثير الغبار .

عاد (عامر) الى منزله ، ووجد ابنته الصغرى (عبير) تثير شجارا مع شقيقتها الكبرى (عروبة) .

سألهما (عامر) : (لم كل هذا) ؟

صاحت (عبير) : (لا تريد أن تعطيني قطعة من حلوياتها) .

قالت (عروبة) محتجة : (لقد أعطيتها قطعة منذ قليل) .

قال (عامر) وهو يأمل في الحصول على شيء من الهدوء : (حسنا اعطيها المزيد) .

(عبير) فتاة جميلة ، شعرها قصير ، وعيناها تتألقان بنظرات عابثة ، وشخصيتها صارمة أيضا وتحب أن تسيطر على جميع أفراد عائلتها ، ويمكن أيضا أن تحكم القرية كلها او سنحت لها فرصة جزئية لذلك .

كانت (سلمى) جدة (عبير) ما تزال تجلس في الشرفةتحيك الصوف لصنع حقيبة . ودخلت (فاطمة) المطبخ لتعد القهوة ، واتخذت (عبير) في نهاية المطاف مكانها الى جانب والدها ، بعد أن حصلت على قطعة حلوى أخرى من (عروبة) ، فجلست واستغرقت في تفكير عميق وعلى وجهها تعبير صارم .

قالت (سلمى) بعد أن أطلقت زفرة عميقة : (ما أزال أذكر رائحة أرضنا الزكية . لم تكن البدويات يكتفين في تلك الأيام بحياكة النسيج بل كن يساعدن الرجال في أعمال الحصاد ، ويجلبن الماء من الينابيع ، ويحملن الخشب على ظهورهن للوقود ، ويحلبن الماعز) .

قالت (فاطمة) وهي تصب القهوة : (نحن اليوم ربات بيوت فقط ولا تعرف بنات جيلي القيام بشيء حتى الحياكة . لو كانت لدينا أرض ، كنا نقوم بزراعتها ، ولكننا لا نملك أرضا . هنالك عشر فتيات فقط من القرية يعملن : البعض منهن معلمات ، والبعض الآخر يعملن في المصانع . اتمنى لو كنت على الاقل اتممت دراستي ، ولكنني تركت المدرسة في نهاية الصف الرابع ، في أيامي لم يكن يسمح الفتيات باتمام دراستهن) قال زوجها : (أريد أن تتم بناتي دراستهن ويذهبن الى الجامعة أيضا فالتعليم هو الامل الوحيد الذي تبقى لنا) .

قالت (سلمى) وهي تستعيد ذكريات الايام الغابرة : (على الرغم من العمل الشاق الذي كنا نقوم به ، الا اننا كنا أحرارا ، نغني بمرح ، نغني أغنيات من أجل الزراعة ، وأغنيات من اجل الحياكة . لقد تغيرت طريقة حياتنا الى حد كبير ، حتى احتفالات الزواج تغيرت . في السابق

كانوا يضعون العروس على ظهر الجمل ويأخذونها الى العريس . وهم يغنون الاغاني التقليدية الجميلة ، لقد تغير كل شيء) .

قال (عامر) هو يربت بلطف على يد ابنته (عبير) : (لم يعد الناس يعرفون طريقة غناء الاغاني التقليدية التي كانت تغنيها والدتي وجدتي ، ويلجؤون اليوم في احتفالات الزواج الى استخدام اشرطة التسجيل التي تصدح بالأغاني الحديثة ، أو يحضرون مطربا يغني الاغاني الحديثة ايضا ، ولم يعد الناس يغنون بأنفسهم . اما في السابق كان المدعون هم الذين يغنون ويقومون بالتسلية : فكان للرجال الاغاني الخاصة به ، وللنساء أغانيهن الخاصة بهن . أما الآن فقد ضاع كل كل ذلك ، وضاعت الكثير من تقاليدنا القديمة ، ونحن نحاول استرداد بعض ما فقدناه ، فلجانا الى تعليم اغانينا القديمة والشعبية التقليدية الى اليافعين في النادي .

كنا في السابق نشتهر بوحدتنا واخلاصنا وولاءنا لجماعتنا ، ومساعدتنا بعضنا بعضا ، واحترامنا لاولياءنا ، ولكن كل هذا لم يعد له وجود اليوم بعد أن تبنينا بعض القيم اليهودية ، ونهجنا طريقة حياتهم ليس لانها بالضرورة افضل او اكثر تطورا من أسلوب حياتنا ، بل لاننا نقلدهم فقط على نحو اعمى . لنأخذ مثالا بسيطا جدا وهو القهوة : فقد اعتاد بائعوا القهوة على بيع القهوة العربية التقليدية المليئة بحب الهال ولكنهم امتنعوا عن ذلك اليوم ، ونجد انفسنا مرغمين على شراء القهوة الخالية من أي طعم التي يشربها اليهود) .

طلبت الوالدة من ابنتها (عبير) احضار طبق الفواكه من الداخل ، فنهضت مترددة بعد اطلقت زفرة تدل على الضجر ، وعادت بعد برهة بطبق الفواكه ووضعته امام والدها .

قالت (سلمى) : (كنا في السابق سعداء ، ولكنهم سلبونا حريتنا ، عندما يجرد الانسان من الامل . يفقد السعادة . يمكنك أن تسمعي الاطفال الصغار اليوم وهم يتكلمون عن أعباء الحياة ، فيبدون وكأنهم

يحملون هموم الدنيا فوق اكتافهم) . قــدم زوج (سلمى) ، وجلس في الشرفة دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو رجل مسن وموضع احترام وتقدير من جماعته ، ويجتمع ابنا ء القرية في ديوانه (مضافته) لمناقشة القضايا الهامة ، وحل النزاعات ، وكــذلك لاستقبال الغرباء الذيــن يمرون بالقرية ، ودعوتهم لقضاء الليل .

بدا وكأن وجوده قد قطع الحديث ، وساد صمت قلق ، قطعته (عبير) التي قفزت هاتفة لدى رؤيتها لاخيها الاكبر وهو قادم الــى المنزل ، فهرعت نحوه وفي الحال نشبت بينهما مشادة طريفة .

بعد مغادرة والدي (فاطمة) قالت : (أبي متزوج من امرأة ثانية ، لقد غضبنا منه كثيرا عندما تزوجها ، وارادت والدتي أن تنفصل عنه ، وعلى الرغم من انه يستحق ذلك ، الا اننا أقنعناها بالبقاء من أجــل الاطفال . ويشعر الآن بالندم على ما فعله ، ويقول انه كان يعيش حياة هانئة جدا مع والدتي ، وان زواجه الثاني كان سلوكا احمقا . حسنا ، ما حدث قد حدث) وهزت براسها باستنكار .

بدأ الظلام يرخي سدوله ، ولم يضيء نور واحد في القرية حتى الآن ولكن على مسافة قريبة من لاقية كانت تتلألأ انوار ســاطعة من مزرعة جماعيــة يهوديــة بنيت فــوق أرض كانت ملكيتها تؤول فيمــا مضى الى ابنــاء لاقيــة .

بعد مضي أقل من عام ، هرم (عامر) الى حد كبير . ففي العام الماضي لم يكن في رأسه شعرة رمادية واحدة ، اما الآن فقد غزا الشيب نصف رأسه تقريبــا ، وتعمقت الغضون في وجهــه ، وبدا اكثر نحولا من قبل ، ولكن مزاجه لم يتغير . ابتسم ساخرا وقال : (لدي بعض الاخبار المدهشة ، لقد اثمر اخيرا نضالنا وتصميمنا ، فمنذ شهرين وافقت السلطات على الاعتراف بوجودنا ، ولكن بالطبع ضمن شروط معينة . فكل قروي يملك أرضا مسجلة على الخريطة الهيكلية يحصــل على دونم واحد يبني عليه منزلا . اما الذين لا يستطيعون اثبات ملكيتهم

للارض عليهم أن يشتروا الدونم الواحد مقابل الفي دولار . للمرة الاولى بعد أربعين عاما سنحصل على منزل حقيقي ، منزل دائم ، فالمنزل جزءا لا يتجزأ من الوطن .

ولكن على الرغم من تلك الاتفاقية ، لم تتوقف السلطات عن تدمير المنازل ، ففي كانون الاول دمرت السلطات منزل احد الاشخاص لانه بناه دون ترخيص ، وفرضوا عليه غرامة وقدرها ٥٠٠٠ شيكل ، واجبروه على العمل دون راتب كحاجب في احدى المشافي ، بالتالي فقد عمله الحقيقي الذي كان يقوم به في احدى المصانع .

تم بناء جميع المساكن التي نعيش فيها بدون ترخيص ، وتختار السلطات المنازل التي تدمرها بشكل عشوائي ، وهذا هو الأسلوب الذي يلجؤون اليه في محاولتهم للتفريق بين أبناء القرية . إذ يتساءل الرجل الذي دُمّر منزله عن سبب اختياره هو بالذات وليس جاره الذي قام أيضاً ببناء منزله دون ترخيص . وهكذا تبدأ بذور الشك تنمو ، ويشك القروي الذي فقد منزله بأن جاره يعمل مخبراً . ولكننا أصبحنا الآن على حذر من مناوراتهم ، ونعلم تماماً أن من يقع عليه اللوم اولاً واخيراً هو السلطات الإسرائيلية .

اما التغيير الثاني الذي طرأ على الوضع في قريتنا هو تعيين رئيس جديد للمجلس ، إذ يتغير رئيس المجلس كل أربع سنوات ؛ وتقوم الجمعيات التعاونية اليهودية بالتناوب بتعيين ممثل لها كرئيس للمجلس. ويقال إن الرئيس الحالي اكثر اعتدالاً من سلفه ، إذ اقترح علينا انتخاب لجنة محلية تمثل قريتنا ، ولكن حتى الآن لم يحدث شيء . إذ لم يتفهم أبناء القرية تماماً ما هو متوقع منهم ، ولا يعرفون كيف ينتخبون اللجنة وعلى اي أساس سيتم ذلك .

على الرغم من اعتراف السلطات بوجودنا اخيراً ، إلا أن النضال لم ينته بعد ؛ فنحن بحاجة الى قروض من وزارة الإسكان لمساعدتنا في بناء المساكن ، ونبحث ايضا عن مهندسين عرب من الجليل ليضعوا

التصميمات اللازمة للبناء ؛ ونفضل المهندسين العرب لأنهم سيعرفون ما نحتاج اليه . ونحتاج الى المال لبناء مدرسة ثانوية كي لا نضطر لإرسال أطفالنا الى الشمال للحصول على تعليم ثانوي جيد . ويلزمنا المال لبناء الطرق ، وتحسين التمديدات المائية والكهربائية ، وكذلك نحتاج الى المال لتأسيس بعض أنواع الصناعة في قريتنا .

الشيء الوحيد الذي قدمته لنا السلطات حتى الآن هو مستوصف جديد ، ويعود السبب في ذلك الى احتجاج الطبيب اليهودي والممرضات ـ هنالك ممرضة عربية واحدة فقط ـ وتذمرهم من العمل في المستوصف القديم لضيق المكان . ولكنني على أية حال استفدت من البناء ، فبمساعدة بعض القرويين ، أقوم الآن بتحويل المستوصف القديم الى مكتبة عمومية . ونحاول الحصول على المال من عدد من المؤسسات ودور النشر لشراء الكتب وتمويل المكتبة ، وقد نشرنا إعلاناً في صحيفة (الاتحاد) في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ، بكلفة ١٠٠٠ شيكل ، وهو مبلغ كبير بالنسبة لنا . كتبنا فيه ما يلي :

(تعلن الجمعية التعليمية لأبناء لاقية عن افتتاح مكتبة عمومية ، وهي مرفق " خدمي " هام لأبناء القرية . وبسبب ضآلة مواردنا المالية ، نجد أنفسنا مضطرين لطلب المعونة المالية من الجمعيات الخيرية ، والمنظمات العامة ودور النشر ، ومن كتابنا وشعرائنا من أجل تنفيذ هذا المشروع في القرية . وكلنا أمل في مساعدة قومنا . العنوان : ص.ب ١٠١٤ بئر السبع) .

من الضروري إيجاد مكتبة عمومية وخاصة لفائدة اليافعين ، إذ يجب أن نحرص على ألا يَضيّع شبابنا أوقاتهم سدى ، وخاصة الآن وبعد وصول مشكلة المخدرات الى قريتنا . لم تبلغ المشكلة الحد الذي وصلت اليه في أماكن أخرى مثل يافا وعكا ، ولكن اكتشفنا الآن اثنين من أبناء القرية يتاجران بالمخدرات) .

توقف عن الحديث وأدار جهاز المذياع لسماع الأخبار باللغة العربية. وبعد نهاية النشرة قال :

(أنا ذاهب للإشراف على ضبط أبواب المستوصف القديم ، سنضع في الداخل أبواباً معدنية كي لا يتسلل أحدهم ويحرق الكتب) . وخرج وعلى وجهه ابتسامة ساخرة .

عاد الأطفال من المدرسة ، لقد تغيروا ايضاً : فقد ازدادت أعمارهم عاماً ، واستطالت قاماتهم كثيراً . إلا أن سلوك (عبير) الاستبدادي لم يتغير ، فرمت بحقيبتها في الشرفة ، وهرعت الى الحديقة الخلفية حيث كانت والدتها تجلس في ظل شجرة زيتون ، تفرم الملوخية .

سألت الطفلة : (ماذا سنأكل للغداء ؟) .

ـ (ملوخيـــة) .

قالت عبير بلهجة آمرة : (أريد دجاجاً ورقائق من البطاطس) .

ـ (ستحصلين على الدجاج ، ولكن لا يوجد بطاطس اليوم) .

ـ (لم لا ؟ أريد بطاطس !) .

تجاهلت (فاطمة) إلحاح ابنتها ، إلا أن عبير استمرت في نقّها ، ولكنها تعبت أخيراً بعد أن ادركت أن والدتها لن تذعن لرغبتها ، وأسرعت تبحث عن هدف آخر أكثر مرونة .

وصلت (منى) إحدى شقيقات (فاطمة) ، وتعمل معلمة في روضة اطفال ؛ ولم تكن ترتدي الزي البدوي التقليدي ، مثل فاطمة ، بل ملابس ذات طراز غربي مع وشاح للرأس . لقد أتت لأخذ طفلها الذي يبلغ الشهر السادس من عمره ، والذي تعتني به عادة والدتها أثناء ساعات عملها ؛ ولكن (سلمى) ذهبت الى غزة لزيارة قريب لها وصل من الأردن، لذا نابت عنها (فاطمة) في هذه المهمة .

قالت (منى) لشقيقتها : (عبير فتاة مجتهدة جداً في المدرسة ، وهي ذكية وطموحة) .

ارتسمت على وجه (فاطمة) ابتسامة هادئة تدل على اعتزازها بابنتها ، ثم قالت : (أتساءل كم سيمضي من الوقت قبل أن نبدأ ببناء منازلنا الجديدة الدائمة) .

ـ (أعتقد بعد شهرين أو ثلاثة على الأقل ، هذا إذا لم تختلق السلطات اعذاراً لا تنتهي لإعاقتنا . لا يمكنك إدراك طبيعة أولئك القوم ، من المحتمل أن يغيروا رأيهم كلياً) .

ران عليهما الصمت فترة من الوقت ، وقطع افكارهما وصول (نضال) الابن الأكبر لفاطمة ، وانشغل بإصلاح إطار دراجته .

تنهدت (منى) وقالت : (نحن نعيش في موطن إهمال في كل طريقة ممكنة ، ولا نحصل على حقوق مماثلة لتلك التي يتمتع بها المواطنون اليهود الإسرائيليون ، ولا يعتبرنا اليهود من العرب . ومن ناحية أخرى ، يعتبر بعض العرب أن جميع البدو خونة لأن هناك قليل منهم كذلك فعلاً ، ممن انضموا الى الجيش الإسرائيلي) .

وتلفتت حولها بغضب ثم تابعت تقول : (هل تعلمين أن مراقبي المدرسة في الشمال يصنفون على انهم عرب ، ولكن هنا في الجنوب ، يصنفون على أنهم بدو . قلت مرة للسلطات ، من نحن باعتقادكم ؟ إننا عرب أيضاً كما تعلمون) .

قال (نضال) بهدوء : (سأصبح معلماً عندما أكبر . لقد منعوا والدي من ممارسة مهنة التدريس ، لذا سأقوم بها بدلاً عنه) .

تابعت خالته تقول : (لا يعرف العالم تماماً حقيقة الحياة التي نعيشها ، ويجهل الناس في الخارج الممارسات الجائرة التي نعاني منها ، والنظام القمعي الذي نرزح تحته) .

ثم نظرت الى ساعة يدها وقالت بأنها يجب أن تسرع الى المنزل لتعد طعام الغداء لعائلتها .

نهضت (فاطمة) واتجهت نحو المطبخ ، ولكن لفت انتباهها ظهور « مجنونة لاقية » ، وهي امرأة في خريف العمر ، تحمل علبة تبغ في يدها ، وتذرع المكان جيئة وذهاباً أمام الحديقة .

قالت فاطمة : (تزعم بأنها كانت تعرف جمال عبد الناصر ، وبأنها أيضاً كانت زوجة القذافي .

كنت أشفق عليها واتركها أحياناً تقضي الليل هنا ، ولكنها بدأت تسبب لي الجنون أيضاً . إذ كانت تمضي الليل وهي تدخن وتتحدث مع نفسها بصوت مرتفع ، لذا اضطررت مؤخراً الى منعها من الدخول الى هنا . وهي تقوم أيضاً بنشر الإشاعات الى حد كبير : إشاعات مزيفة ومشينة) .

توقفت « مجنونة لاقية » عن التجول ومضت في سبيلها .

وضعت (فاطمة) طبق الطعام فوق أرض غرفة الجلوس ، في حين أدخلت (عروبة) الأرائك من الشرفة .

قال عامر الذي عاد لتوه من تركيب أبواب المستوصف القديم : (لم لا نتناول طعام الغداء في الخارج ؟) .

اجابت فاطمة : (لأن الجو حار جداً ، وهنالك الكثير من الحشرات الطائرة) .

اتخذ كل منهم مكانه فوق الأرائك وبدؤوا بتناول الطعام . مسّت (عبير) بأصابعها جميع قطع الدجاج ، حتى طلب منها والدها أن تكفّ عن ذلك .

قالت عبير : (غداً هو آخر يوم في المدرسة) ، ولكن لم يهتم أحـد" لملاحظتهـا .

قال عامر : (هناك تغيير آخر حدث خلال العام الفائت وهو طردي من العمل ، ولكن هذا الأمر سمح لي بتخصيص المزيد من الوقت للنادي ولتأسيس المكتبة . لقد طردت من عملي منذ حوالي ثمانية أشهر لأنني متورط بشكل فعلي في تطوير الوعي تجاه قضيتنا ، وقد تكلمت عن ذلك بشـكل علني . فعلـى سبيل المثال ، ناقشنا في اجتمـاع « الجبهـة الديمقراطية للسلام والمساواة » موضوع التمييز العنصري الى جانب مواضيع أخرى . وكنت أحـد الذين ألقـوا محاضرة عن موضوعي : العنصرية والاحتلال ، وهاجمتهما بحدة . وبعد فترة قصيرة ، استدعيت الى مكتب الأمن الإسرائيلي ، حيث تم استجوابي وتوبيخي ، واتهمت بأني إرهابي" . وقالوا بأنني لست سوى شخص تافه وسافل ، وتوقعت أن أسجن ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

وأقبض الآن إعانة مالية للبطالة ، ولكنني استدعيت لتوي لحضور اجتماع في مكتب البطالـة لدراسة قضيتي والتقـرير فيما إذا كانوا سيستمروا في تقديم الإعانة المالية لي) . ثم ابتسم ساخراً وقال : (من يعرف ، ربما يتكرموا ويجدوا لي عملاً آخراً .

وأواجه أيضاً بعض المشاكل مـع أعضاء مجلس (بن شامون) ، الذين يعارضون إقامة معسكر صيفي في النادي ، بحجـة أن المعسكر الذي يعقد في المدرسة يكفي ، ولكنني أعارض بشدة . فالمعسكر الصيفي المدرسي يتم تحت إشراف مدرب يهودي ، بينما يتم المعسكر الصيفي في النادي تحت إشرافي الشخصي بالإضافة الى أعضاء النادي الآخرين . وهذا يعني بالطبع أننا سنتمكن من إلقاء محاضرات عن الهويّة ، وإنشاد الأغاني الفلسطينية ، ومناقشـة موضوع الانتفاضـة ،.. الخ . الأمور التي لن يسمح بها في المعسكر الصيفي المدرسي . من أهداف المجلس محاولة التأثير على التلاميذ للقبول بسياساته .

والسبب الآخر لاعتراضي هو انه ليس من العدل أن يمضي الطلاب السنة الدراسية بأكملها في المدرسة ، ثم يقال المسكر الصيفي في المكان نفسه أيضاً ، حيث يترافق مع وجود المعلمين والدروس والسلطة . فالنادي على الأقل بيئة مختلفة ، ومكان يستمتع فيه الأطفال ، ويتعلمون ما يهمهم عن قضيتهم . وأنا مصمم على إقامة المعسكر الصيفي في النادي سواء رغب المجلس بذلك أم لا) .

حان وقت الذهاب الى النادي .

كان ملعب الأطفال كما هو لم يتغير ، ولكن يوجد في الداخل بعض انتغييرات . فقد أُضيف المطبخ الى الغرفة التي كانت تستعمل كروضة للأطفال ، وتحولت الى مكان للرياضة الجمبازية ، والكاراتيه اليابانية ، وكمال الأجسام . وكانت تجري في هذا الوقت دورة تدريبية لمعلمي رياض الأطفال .

قال عامر : (تشرف على هذه الدورة معلمة جديدة ، وهي فتاة فلسطينية درست في أمريكا وعاشت هناك عدة سنوات قبل أن تعود الى وطنها ، وهي معلمة جيدة . وستقوم منظمة غير حكومية بمساعدتنا لتأسيس نشاطات نسائية مولدة للدخل مثل : الخياطة والحياكة . ونرغب في تعليم الحياكة ليس لأنها تدر المال وحسب ، بل لأنها ستعيد تعريف تراثنا لفتيات اليوم اللواتي لم يتعلمن حياكة السجاد التقليدي الجميل الذي نشتهر به .

ويوجد فوق أحد جدران غرفة الرياضة صورة كبيرة تمثل شاب فلسطيني من الضفة الغربية ، كتب عليها عبارة : «فليسقط الاحتلال» . ويوجد على جدران جميع الغرف أقوال وقصائد كتبت بخط اليد حول العدالة والمساواة والوطن ؛ وهي أكثر شدة وانتقاداً وعدداً من الملاحظات التي كانت موجودة في العام المنصرم ، منها :

لو تذكرت أشجار الزيتون من زرعها

لتحول الزيت الى دموع .

« محمود درويش »

« نريد السلام من أجلنا ومن أجل أطفال العالم كافة . جل اهتمامنا هو تحرير انفسنا والى الأبد من العنف والحروب والعداء بين الأمم ؛ واستبدال كل ذلك بالمساواة والرخاء والسلام » .

« ليست الحرية من حق بعض الأفراد ، أو عدد من الأمم ، بل إنها حق مكتسب للعالم بأكمله ، فالحرية حقي ، وحقك ، وحق كافة البشر أن يتحرروا من الجوع والمرض والجهل والاستغلال . والحرية تشمل العدالة ، والعدالة تحرر الجنس البشري من الظلم : ظلم القوي للضعيف ، والقادر للعاجز ، والكبير للصغير ، والأبيض للأسود ، والرجال للنساء ، والحاكم للمحكوم » .

قال عامر : (أحاول أن أحرص على لفت انتباه اليافعين الى تلك اللافتات) .

وانشغل (عامر) بازالة الأعشاب الضارة من الحديقة ، وكان يعمل باهتمام بالغ ، لأنه يحب الحديقة كحبه لابنه ، وبعد برهة توقف عن العمل ومسح العرق فوق جبينه ، ثم حدق الى الفتيان الذين كانوا يلعبون كرة القدم ، قال وهو يجلس على إحدى درجات السلم : (منذ بضعة أيام دعى النادي فريق كرة قدم من الشبان اليهود من بئر السبع ليلعب مباراة ضد فريقنا . لدينا أرض أكبر مخصصة لكرة القدم عند طرف القرية ، ولكنها بالطبع لا تضاهي الملاعب الفخمة التي يتمتع بها اليهود . هل تتخيلين أنهم عندما قدموا الى هنا أصيبوا بدهشة كبيرة لاكتشافهم بأننا كائنات بشرية ، ويمكننا أن نلعب كرة القدم .

وقبل بدء المباراة ألقيت عليهم محاضرة حول التمييز العنصري ، وحاولت أن أوضح لهم بأن المساواة هي حق مكتسب وليست امتيازاً . وأصغوا بانتباه وبدا عليهم الاهتمام ، إلا أن موقفهم الودي تغير بعد المباراة بسبب انتصار فريقنا ، فانهالوا علينا بالشتائم ، ونعتونا بالحيوانات والوحوش وصفات غيرها) .

ابتسم وهز رأسه وقال : (ولكننا لم نستسلم ، ودعونا فريقاً يهودياً آخراً ، وكان هذه المرة فريقاً من شباب الكشافة ، وانتصر فريقنا المرة الثانية ، ولكن موقف شباب الكشافة كان أفضل من سابقيهم ، وتقبلوا انتصارنا بروح رياضية . نريد أن نبرهن لهؤلاء الناس بأننا نجاريهم في قدراتهم تماماً ، وبأننا بشر أيضاً ، ولنا حقوق مثلهم تماماً .

كان للانتفاضة أثر كبير علينا في اكثر من جهة : فقد عملت على تطوير وعي الفلسطينيين الذين كانوا على درجة كبيرة من الجهل السياسي، وعززت أيضاً نضالنا من أجل حقوقنا ، وأثرت كذلك على الإجراءات القبلية المتخذة لتسوية النزاعات المتأصلة .

منذ بضعة أيام ، قام أحد السائقين من « لاقية » بدهس فتى من القرية على الطريق القريب من هنا ، وهما ــ أي السائق والفتى ــ من قبيلتين مختلفتين . وعادة في مثل هذه الحالة يتحتم على المذنب وعائلته مغادرة القرية ، ثم يقوم عدد من كبار القرية (جاهة) بالتوسط بين العائلتين ويتم التوصل الى تسوية معينة ، يسمح بعدها للعائلة بالعودة الى القرية . ولكن في هذه الحادثة ، ذكرت عائلة الفتى القتيل أمام الجاهة بأن مصيبتهم تعتبر صغيرة بالمقارنة مع الطريقة التي يعامل بها اليهود سكان الضفة الغربية وغزة ؛ وبأنهم لن يرغموا السائق وعائلته على مغادرة القرية ، ولا يطلبون تسوية للموضوع . ولكن في حين اكتفت العائلتان بإنهاء الموضوع عند هذا الحد . كان لا بد للسائق أن يمثل أمام المحكمة .

وهناك حادثة أخرى تورط فيها اثنان من شبان القرية ، وكلاهما من عائلتين مختلفتين أيضاً . فقد نشب شجار بين الشابين ، وقتل أحدهما الآخر دون قصد ؛ وعلى الرغم من قيام رجال الشرطة بحجز المذنب فقد غادرت عائلته القرية كما يقتضي القانون القبلي . بَيد أن عائلة الضحية رفضت اتباع الإجراء التقليدي لحلّ الخلاف ، وطلبت من عائلة المذنب ، عن طريق الجاهة ، العودة الى القرية . وقالوا بأنهم بينما يندبون موت ابنهم ، إلا ان حزنهم لا يمكن أن يكون أعظم من أحزان مئات الآباء الذين فجعوا بأبنائهم في الانتفاضة .

لقد بدا وعي الناس لواقعهم السياسـي والاجتماعي يزداد أكثر فأكثر ، وأصبحوا يدركون أن مطاليبهم القبيلة التقليدية لقاء التعويض عن الأذى هي أمرٌ سلبي ويناقض مصالحهم ، ولا يخدم سوى مصالح الإسرائيليين ، لأنهم يرغبون أن نبقى في نزاع دائم فيما بيننا ، وبالتالي يريدون التفريق بيننا) .

حلّ المساء واصطحب معه نسيماً عليلاً . جلس (عامر) في الشرفة بهدوء غارقاً في أفكاره ، وأحضرت (فاطمة) مجلداً يضم صوراً فوتوغرافية للعائلة ، ومنها بعض الصور ، باللونين الأبيض والأسود ، أُخذت لهما إثر زواجهما .

قالت (فاطمة) : (من عاداتنا القديمة ، والتي ماتزال سائدة حتى الآن ، أن يتزوج الشاب ابنـة عمه . كنت سعيدة عندما اختارت عائلتي عامر زوجاً لي ، لأن الحب كان يجمع بيننا) . وابتسمت برقة وهي تنظر الى زوجها .

ابتسم (عامر) ابتسامة عريضة ، ثم نظر إلى ساعة يده وقال : (يجب أن أذهب ، لدي اجتماع مع بعض أعضـاء النـادي لمناقشة التجديدات الأخرى التي سنقوم بها في النادي ؛ وسندرس أيضاً قائمة

بأسماء المتطوعين لاختيار الشخص المناسب لتدريس اللغة الإنجليزية . ونريد كذلك إنهاء موضوع الشعار الذي سنضعه على القمصان التي سنقدمها للطلاب في المعسكر الصيفي . والهدف من هذا الشعار هو إحياء ذكرى الرسام الكاريكاتوري (ناجي العلي) ، وسيكون عبارة عن صورة لإحدى رسومه الشهيرة ، وقد كتب تحتها باللغتين العربية والعبرية : نعم للسلام ، لا للعنصرية .

اخبر عامر زوجته فاطمة أن لا يتوقعوا عودته على طعام العشاء لاحتمال طول مدة الاجتماع ، وبقيت فاطمة في الشرفة مع الأطفال بانتظار التيار الكهربائي . مرت أمام الشرفة امراة ترتدي الزي الاسلامي الاصولي ، والقت التحية على فاطمة . وعندما أصبحت بعيدة عن مرمى السمع ، قالت فاطمة :

(تقول المسلمات الأصوليات إنه لا يجوز ارتداء الزي الفلسطيني التقليدي ، وإنه يتوجب على المراة ارتداء الزي الإسلامي الذي يرتدينه) .

وهزت رأسها باستهجان وتابعت : (ان تكون مسلماً ملتزماً شيء حسن ، ولكن أن تكون متعصباً فهذا شيء فارغ وغير بناء . ارتديت في حفل زفافي ثوب خالتي ذا الطراز الغربي بعد إصرارها الشديد ؛ فقد كانت تعيش في الأردن وتملك افكاراً عصرية . وكنت اول فتاة ترتدي مثل ذاك الثوب في حفل زفافها ، وتلقيت سيلاً من الانتقادات الشديدة لأنني لم ارتدِ الزي الفلسطيني لثوب الزفاف . ولكنني في حياتي اليومية ارتدي دائماً الثوب الفلسطيني ، وسابقى كذلك على الدوام فهو يستر جسمي بأكمله تماماً كالزي الذي ترتديه المسلمات الأصوليات اليوم . احد اشقائي من المسلمين الاصوليين ، وكذلك زوجته ، ولااعتقد بأنه يوافق على الحديث معك ، لأنك امرأة ، ولكن حتماً يمكنك أن تتكلمي مع زوجته) .

قفز الأطفال وهرعوا إلى الداخل بسبب مجيء التيار الكهربائي ، وأداروا على الفور جهاز التلفاز ، وجلسوا لمراقبة برنامج باللغة العبرية .

ذهبت (فاطمة) لإعداد طعام العشاء ، وتحضير رقائق البطاطس المقلية، مما أسعد عبير . وبعد انتهاء طعام العشاء ، انضمت (فاطمة) إلى أطفالها لمشاهدة برامج التلفاز ، وطلبت منهم تحويل الإرسال الى برنامج عربي لأنها لاتفهم اللغة العبرية . المحطة العربية الوحيدة التي يمكن أن تصلهم هي من الأردن ، وكان الملك حسين يلقي خطاباً .

قالت عروبة متذمرة : (هذا مضجر !) وحولته على الفور الى المحطة الاسرائيلية .

صاحت والدتها غاضبة : (أعيديه الى الاردن ، سواء كان مضجراً أم لا ، على الأقل أستطيع أن أفهم اللغــة) .

أطاع الأولاد أوامر والدتهم ، ثم غادروا الغرفة بحثاً عن شكل آخر من أشكال التسلية ، إلا أن التيار الكهربائي انقطع قبل الوقت المعتاد ، ولم يعد هناك ما يمكن فعله ، لذا توجه الجميع إلى النوم .

استيقظت (فاطمة) في الساعة السادسة صباحاً ، نظفت المطبــخ وحضرت طعام الإفطار .

قال عامر : عدت الليلة الماضية في وقت متأخر جداً ، فقد استمر الاجتماع مدة طويلة جداً ، واحتدت المناقشة بين الاعضاء حول الشعار. فقد مانع أحد الأعضاء الكتابة باللغة العبرية على القمصان ، فأجبته :

« في هذه الحالة يجب أن تمزق بطاقتك الشخصية لأنها كتبت باللغة العبرية . إذا اردت أن تكون متعصباً حول هذا الموضوع، فستصبح شخصاً غير بناء كما هو حال اليهود اليمينيين ، فاقتراحك غير واقعي ولا يجدي نفعاً » . نحن نناضل من أجل حقوقنا ، ولكن علينا أيضاً أن نقبل الحقيقة التي تفيد بأننا يجب أن نعيش جنباً إلى جنب مع اليهود ونتعامل معهم . هناك قسم من اليهود على علم بمظالمنا ، ويريدون أن يتفهموا قضيتنا ، وهؤلاء يجب أن نكسبهم إلى طرفنا .

لقد أثار غضبي فعلاً إلى درجة كبيرة ، هل يعتقد بأنه اذا رفض الكتابة باللغة العبرية على القمصان سوف يبدأ ثورة من شأنها أن تغير وضعنا ؟! فالتعصب مهما كان نوعه يكون هداماً . لدينا اليوم الحركات الإسلامية التي حققت ، وللأسف ، نجاحاً ملحوظاً في الانتخابات الأخيرة ، وفازت في عدة قرى ، بالإضافة إلى أم الفحم ، التي تعتبر من أكبر المدن العربية . وتنفذتلك الحركات بعض الأعمال الطوعية مثل : بناء الطرق ، وتنظيف الشوارع ، وما الى ذلك من الأعمال الأخرى ، كما تفعل الجبهة وحزب أبناء البلد . إلا أن الفارق الرئيسي هو أنهم يقومون بكل ذلك باسم الدين ، ويقولون لأتباعهم بأنهم سيكافؤون في السماء .

عندما فاز الأصوليون في الانتخابات ، اعتقدت السلطات بأنهم سيشكلون تهديداً بالنسبة لها أكبر من ذلك الذي تشكله الأحزاب الأخرى ، إلا أنهم يرحبون بهم الآن بعد اكتشافهم بأن الكثيرين من الأصوليين يرفضون المشاركة في المظاهرات التي تقوم بها الأحزاب الأخرى ، ولا يشاركون في النضال . ولِمَ المشاركة طالما يقال لهم بأنهم سيجدون أخيراً السعادة في السماء ؟ مما يجعل مشاكلهم على الارض أكثر احتمالا ، أعتقد أن الكثيرين ممن ينضمون الى الحركة الإسلامية لايعرفون تماماً ماذا يجري في البلاد) .

سكت (عامر) وأنصت الى الأخبار . في الخارج بدأت حركة الصباح الباكر ونشاط الذاهبين الى أعمالهم . وخرجت بعض النسوة لتعليق الثياب المغسولة تحت أشعة الشمس أو لتعريض الارائك والاغطية والبسط للهواء . ووصل البائعون من غزة في شاحناتهم لبيع منتوجاتهم وهم يقودون ببطء في شوارع القرية وينادون عبر المكبر : (ملوخية طازجة ، خيار ، فلفل أخضر ، باذنجان !) ويبيع آخرون الحصر والاطباق المعدنية والفخارية . انتهى عامر من تناول افطاره ، واتجه الى بئر السبع .

تعمل (هدى) ، زوجة شقيق (فاطمة) وابنة عمها ، والملتزمة أصولياً ، معلمة في المدرسة الابتدائية ، وهي في نهاية العقد الثاني من

عمرها ، ولديها طفل في الثالثة من عمره . يتألف الذي تقطنه من غرفة نوم واحدة ، وغرفة جلوس ، ومطبخ وحمام .

كان ابن (هدى) الصغير نائماً على الأريكة في غرفة الجلوس ، قالت (هــدى) وهي تضــع بعض المشروبات المثلجــة على الطاولــة : (إنه ليس على مايرام) .

سألت عن صحة (فاطمة) وعائلتها ، ثم وبعد برهة قصيرة قالت : (تعلمين أنني لم انشأ هنا ، بل عشت حياتي في الأردن . فقط اشترك والدي في النزاعات التي جرت عام ١٩٤٨ ، ومنذ ذلك الوقت ، لم تسمح له السلطات الاسرائيلية بالعودة .

تخرجت من معهد التربية والتعليم في الأردن ، وبسرعة كبيرة عقد قراني على شقيق (فاطمة) ، وهو ابن عمي أيضاً . في البداية لم أوافق على الزواج منه لأنه كان يعيش هنا ، ولم اكن أريد الابتعاد عن أسرتي ، أو عن الأردن . وصممت على رفضي له ، ولكنني استسلمت بعد ذلك بسبب ضغط العائلة ؛ اذ ليس من السهل لفتاة في مجتمعنا أن تعارض أسرتها . وعندما قدمت الى هنا ، وجدت أن الحياة صعبة ، وكانت أول مشكلة اعترضتنا هي صعوبة اقناع السلطات ببقائي الى جانب زوجي . ثم لم يكن من السهل التكيف مع مستوى معيشة أقل من المستوى الذي اعتدت عليه في الأردن ، ولكني الآن اعتدت على حياتي ؛ فأنا اعيش هنا منذ اربع سنوات .

لقد نشأت لأكون مسلمة صالحة ، ولكني التحقت مؤخرا بالحركة الاسلامية . والانتصار الذي حققته الحركة في الانتخابات يعني أن الكثيرين ادركوا أخيرا أنها وحدها الحركةالقومية الفلسطينية الحقيقية، وهي املنا وخلاصنا في منطقة ٤٨ ، وكذلك في الضفة الغربية وقطاع غزة . وتدل أيضا على أن عــددا كبيرا من الفلسطينيين لم يتبنوا القيم والحضــارة اليهوديــة .

فلسطين والحركة الاسلاميـــة جزءان لا ينفصمان ؛ وعندمـــا سيتم تأسيس دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، ستعتمد على دستور اسلامي لأن غالبية أفرادها من المسلمين . وإذا حصلنا على دولة اسلامية صحيحة وحقيقية ، عندئذ سيتلقى المسيحيون معاملة عادلة ومتساوية. ولكن من أجل الحصول على دولة اسلامية حقيقية ، يجب أن يتغير ٧٥٪ من الناس على الأقل ، ويجب عليهم أن يمارسوا تعاليم الاسلام الحقيقية. يمارس كثيرون من الناس الآن الدين بشكل سطحي ، وسيحلّ الاسلام الحقيقي كافــة المشـــاكل التي تواجهنا : السياســية والاقتصاديــة والاجتماعيــة .

هنالك تضـــارب الآن بين منظمة التحرير الفلسطينيــة والحركة الاسلامية حول النظريات الفكريــة لكل منهما ؛ والخطأالذي يرتكبــه الأصوليون هو رغبتهم الملحة في « فرض » دولة اسلامية ، الأمر الذي يؤدي الى رد فعل سلبي ، إذ لا يمكن فرض دولة اسلامية ما لم تكن تلك رغبة الأغلبية . بل ينبغي أن نكسبهم الى جانبنا أولا ، ثم نعلمهم كيف يصبحون مسلمين صالحين . ومن ناحية اخرى ، إذ حصلنا على دولة علمانية ، ستكون هناك فوضى ، لأنها لن تقوم على أساس اسلامي متين . إن الاعتماد على الاسلام في تسوية مشاكلنا الاجتماعية أمر أسهل بكثير من خلق دولة اسلاميـــة حقيقية . قبـــل كل شيء يجب تغيير المواقف العلمانية المتأصلة عند الناس ، وهذه عملية معقدة .

أحاول بطريقتي الخاصة تغيير مواقف الناس بتعليم مبادىء الاسلام للفتيات اليافعات والنساء أيضا ، في حلقة اعقدها في المسجد مرتين في الاسبوع . وتضم الحلقة الآن ٤٠ فتاة و ١٥ امرأة ، تتراوح اعمارهن ما بين الثانية عشر والخامسة والأربعين عاما . وأفضل الطالبات هن من الشابات ويرتدين الثوب الاسلامي الصحيح ؛ وهن أكثر وعيا من الكبار الحقيقة التي تفيد بأن الحركة اسلامية هي أملنا الوحيد في الحصول على العدالة والمساواة . ولا تولي النساء الأكبر سنا اهتماما حقيقيا بالحركة

الاسلامية ، بل يشعرن بالكبت والخوف من الاندماج فيها . ونرى أن الكثيرين من المسنين ، وخاصــة الذين عانوا من معاملة اليهود السيئة لهم ، لا يتحدثون مطلقا عن القضية الفلسطينية ، بسبب خوفهم الشديد من السلطات . إلا أن أبناء جيلي لا يتورعون عن الحديث بصراحة عن القضية الفلسطينية ، وعن الحركة الاسلاميــة . وللأسف الشديــد ، لا يحضر حلقتي جميع فتيات القرية ، فالكثيرات منهن يرتدين الملابس الغربيــة ، ولا يهمهن أن يصبحن مسلمات حقيقيات . ولكن كل هــذا سيتغير يومــا مــا) .

كان (نضال) و (عصام) مستلقيان في الشرفة ، عندما تناهى الى مسامعها صرخة مرتفعة آتية من المطبخ ، فقفزا وهرعا نحو المطبخ وهمــا يصيحان : (امي ، امي ، ماذا هناك !) .

كان السبب (أبو بريص) يعدو مسرعا فوق جدار المطبخ ، فابتسم الولدان وطارداه بمقشة .

قال (نضال) : (إنه لا يؤذي) .

أجابت والدته : (لا أستطيع تحمل هذه الأشياء) .

انتهت (فاطمة) من تحضير طعام الغداء ، وحالما وضعت الطبق على ارض حجرة الجلوس ، دخل (عامر) وبصحبته شقيقه الأصغر (محمــد) .

يعمل (محمد) أيضا ناظرا في جامعة بئر السبع ، وهو المدرب الرياضي لفريق كرة القدم في القرية . قال وهو يبدأ بتناول الطعام : (تعرفون أن بعض اليهود طلبوا من الفلسطينيين القادمين من الضفة الغربية وغزة للعمل في إسرائيل أن يضعوا علامة مميزة كي يسهل التعرف عليهم . حسنا ، فاحتج بعض الطلاب اليهود اليساريين في الجامعة ، وقالوا انهم

إذا حدث ذلك ، سوف يضعون أيضـا عاملات مميزة تـدل على بلدهم الأصلي الذي قدموا منه مع عائلاتهم) .

قال عامر : (تستخدم السلطات مختلف أنواع الطرق في محاولة منها لتدميرنا : ففي الضفة الغربية يقتلون الفلسطينيين كل يوم ، وهنـا يحاولون تدمير هويتنا عن طريق فرض نظامهم التعليمي ، ومنعنا من نشر حضارتنا وتراثنا ، وتحريم بعض الأعمال علينا . وذهبوا الى حدٍ أبعد من ذلك ، فقاموا بتقسيمنا الى ، مسلمين ومسيحيين ودروز وبدو ؛ وهذا في الواقع تشويه للحقيقة . فنحن جميعا فلسطينيون من الناحيـة التاريخية وكذلك القومية . ومهما يحدث لن يستطيع اليهود تدميرنا أو تشويه هويتنا . وفي يوم من الأيام ، ستقام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، ولكنني لن أنتقل إليها لأنني أعيش هنا طوال حياتي ، فهذا وطني وهنا أرضي . ولكني ، من ناحية أخرى ، ربما يرغموني على الرحيل بسبب نشاطاتي السياسية) .

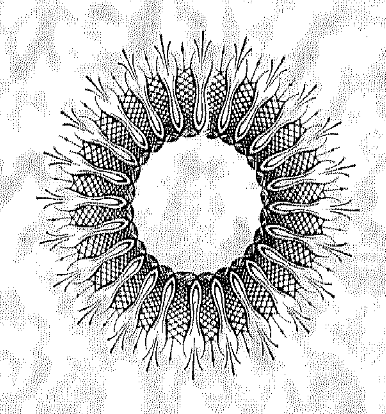
حان وقت نشرة الأخبار : قتل المزيد من الفلسطينيين في الضفـة الغربية . تنهدت (فاطمة) بضجرٍ وقالت : (ما هذا العالم الذي نعيش فيه ؟ هناك الكثير من المعاناة ، والكثير من القتل . ما هذا التاريخ الذي تخلفه البشريـة وراءها ؟) .

* * *

الفهرس

١٥٠٠ ط ١/ ٦/ ١٩٩٦





طبع وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر ٢٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل ٤٠٠ ل.س